ايـــام
المُقـدّسِ



للصف الثالث الثانوى

سنة ١٩٧٧

٢٠٠٠م-٢٠٠١م



تصدير

إن «يوم القدس» من أيام العرب الخالدة ، والتى سطرها التاريخ بأحرف من نور ، وقد جمع الأستاذ المؤلف أحداث هذا اليوم المجيدة ، ونظمها كما ينظم الدر فى كتاب جليل ، موضوعه أثيل ، وهدفه نبيل . حيث يسجل مواقف أبطال العرب الذين جاهدوا ودافعوا عن القدس العربية ، وكافحوا فى سبيل تطهيرها وإعزازها «يوم حطين» . فَضُرِّجوا بدمائهم ، وحفظوا لأنفسهم ذكرا حسنا لا ينقطع ، وأثرا مجيدا لا يُمْحى .

هؤلاء هم الأبطال الذين خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم القلوب . ألم يكونوا هم الذين قضوا نحبهم فى غيابات التشريد ، وانتهت حياتهم تحت وطأة التعذيب ؛ لحفظ مجد مغتصب ، ولطلب حق مسلوب ؟ ألم يكونوا هم الذين سما ذكرهم إلى السَّمْتِ الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء ؟

ما أشبه الليلة بالبارحة ، حيث تهفو القلوب الآن إلى القدس الجريحة ؛ ففيها بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى ، ومزار الإخوة المسيحيين ، ومنارة تنبعث منها عروبة أصيلة ، وعزة مشرقة فى جبهة الزمان .

لقد عُرِفت القدس منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، بأنها عربية لحما

ودما ، تعيش فيها القبائل الكنعانية العربية . وحاول بنو إسرائيل أن يستولوا على القدس قلب العروبة النابض قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام ، ولكن الرومان غلبوهم عليها ، وظلوا بها حتى أجلاهم عنها المسلمون فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنعمت القدس بالمكانة الرفيعة فى ظل تعاليم الإسلام النبيلة ، وسماحة أهله الشهيرة .

وفى غفلة من الزمن ، حين تناحر العرب ، وتفرَّقت جموعهم ، وتشتَّتت كلمتهم ، واختلفت آراؤهم ، زحف الفرنج نحو القدس تحت راية المحبّة الزائفة ، ثم قلبوا لأهلها ظهر المجن ، فنهبوا الأموال ، وأزهقوا الأرواح ، وزادوهم خسارًا ، وأوسعوهم خرابا ودمارا ، فلم يبق غنى إلا افتقر ، ولا عظيم إلا احْتُقِر ، ففاضت العبرات ، وزادت الحسرات .

ويأبى الفارس العربى ذلك ، فيصيح بأعلى صوته يستثير نخوة العرب : ياقوم ، تعلمون أنه ما عَزَّ قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالإباء . ألستم تمتازون بالإيمان الصادق ، والعقائد الصحيحة ؟ ألستم تنتسبون إلى أولئك الأبطال الذين ملكوا البلاد ، وسادوا العباد ؟

فإن قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم ؛ إن كان الموت فهم يخشونه ، وإن كان الخسار فهم يرهبونه ، ﴿ إِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ ثم يجلجل صوت هذا الفارس قائلا : لا تزال النجدة والشمم والرفعة تُرَجَّى فيكم أيها العرب ، ولا يزال دينكم يترقب منكم حميةً عليه .

إن الله - سبحانه وتعالى - ينظر فيما يعرض عليه من أعمالكم ؛ نهضةً لإعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه ، والله - عز وجل

- لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين . ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

بهذه الكلمات التى سرت فى عروق العرب مسرى الدم ، اشتعل العرب حماسا ، وهَبُّوا يوحدون الصفوف ، ويشحذون السيوف ، فكونوا جيشا هو نسيج من مصر والشام ، وتدفق هذا الجيش كالسيل العَرِم يسترد بلاده وقدسه ، ويستعيد كرامته ومجده ، تحت راية البطل صلاح الدين الذى وحد العرب ، وجمعهم على كلمة سواء .

ومن منطلق رسالة المدرسة والولاء للوطن ، كان اختيارنا لكتاب (يوم القدس) لطلاب الصف الثالث الثانوى الذى :

١ - يؤكد عروبة القدس منذ القدم .

٢ - ويقدم صفحة مشرقة من جهاد الأمة العربية ضد المعتدين عليها .

٣ - ويجسد أهمية الوحدة العربية فى النصر على المعتدين .

٤ - ويضع القيادة العربية فى مصاف القيادات العالمية .

٥ - ويبرز مكانة مصر ودورها العظيم فى المنطقة العربية .

وذلك لإثراء ثقة طلابنا بأنفسهم ، وتحفيزهم على أن يتأسوا بالقدوة الحسنة ؛ فمصر تنتظر منهم الكثير والجليل على المستويين الوطنى والقومى .

والله الموفق ،

مستشار اللغة العربية

عبد المعز أحمد داود الغمراوى

١٩٩٨/٧/٨م



تقديم

هذا يومُ القُدس ، يوم مَجيد من أيام التَّجلِّى الأعظم ، يقف الله فيها مع عِباده المُخلَصين ، يَشُدُّ أزْرَهُم ، ويقوّى عزائمهم ، ويثبِّت أقدامهم ويرد عنهم كيد عدوهم ، ويقذِف فيه بالحق على الباطل فيدمَغُه ، فإذا هو زهوق .

حمى العرب بهذا اليوم الجليل بيت ربِّهم ، الذى أودعه إياهم أمانةً فى أعناقهم ، فوفَوا بالعهد ، وخَلَّصوه من الأرجاس ، ونَظَّفوه من الأدْناس ، وأعادوه إلى رَوْنقه وجلاله ، ورَدُّوه إلى نقائه وصفائه ، مُسْتَعذِبين ما أنفقوا من دمائهم وأموالهم ، فرحين بالجزاء الأوْفَى ، الذى أعِدَّ للمجاهدين الصابرين .

كشف ذلك الكفاح المرير ما حَبا الله به العرب ، من فاضِل القِيَم ومجيد الأخلاق وجميل الصفات ، محاربين ومسالمين ، وأبان الفرق الشاسع بينهم وبين أولئك الذين لا يعرفون قانونًا ، ولا يحترمونه لو عرفوه .

وأظهر البَوْنَ الكبير بين الإنسان والإنسان ، وأعلن عظمة أولئك الذين ورثوا مجدًا تليدًا ، وحضارة عميقة ، وقيما راسخة : شهامةً

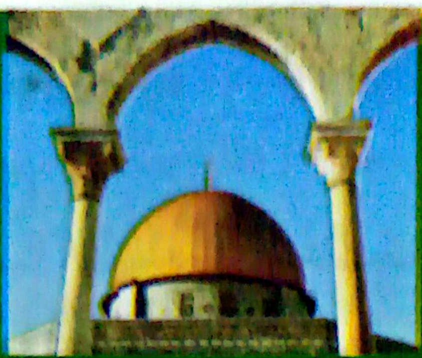
وعزةً ، ورحمةً بالضعيف وحَدَبًا على المسكين . . ، وعرَّى أولئك الذين لم يخرجوا من جلود الوحوش ، وإن بدَّلوها وغيروا معالمها ، وواصلوا بها التغرير والتمويه ، ليستمروا فى امتصاص الدماء وإزهاق الأرواح .

سنين طويلة ، وهؤلاء العرب الأبطال يكافحون الشر ، ويتحملون الشدائد فى سبيل القدس المغصوب ، لا يهتمون بالمعتدين الذين تَكَالَبُوا عليهم ، معتمدين على حقهم ونصر ربهم ، وقوة قلوبهم ، دائبين على الطريق ، لا يَهِنونَ ولا يضعفونَ ، حتى بلغوا النصر المبين ، وغادر القدس من بقى منهم فى ظل رحمة الإسلام وسماحة المسلمين .

وأمامك صور مشرقة ، من تلك البطولات الرائعة ، أدع لك أن تعيش فيها وَحْدَك ، تنظر وتتأمل ، فتكسب من أجدادك قوة وذَخِيرة تعينك على الأيام ، وتحقق لك النصر المؤزَّر كما حققوا . .

والله أسأل العون والتوفيق والرشاد ،

المؤلف



الفصل الأول

طمع وخداع

(١)



انْطَلَقت السَّفِينَةُ العَرَبِيَّةُ الكَبِيرَةُ مُسْرِعَةً ، تَشُقُّ مِياهَ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ العَمِيقَةَ ، مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّمالِ ، يَمْلأُ رُءُوسَ أَصْحابِها خَيالُ الرِّبْحِ الوَفِيرِ ، كَما يَمْلأُ الهَواءُ أَشْرِعَتَها الوَاسِعَةَ ، فَتَدْفَعُها بِقُوَّةٍ ، وتَقْتَرِبُ بِهَا مِنْ جَنُوبِ بِلادِ أُورُبَّا .

ولَمْ تَكَدْ هذه السَّفِينَةُ تَصِلُ إِلَى إِيطالْيا . وتُلْقِى مَراسِيَها[1] فِى مِيناءِ البُنْدُقِيَّةِ الفَسِيحِ ، حَتَّى أَسْرَعَ العُمَّالُ فِى نَقْلِ ما بِها إِلَى الشَّاطِئِ ، اسْتِجابَةً لِلنِّداءاتِ المُتَكَرِّرَةِ ، والعُيُونِ المتعَجِّلَةِ ، يَوَدُّ النَّاسُ أَنْ يَقْفِزُوا إِلَيْها ، ويَأْخُذَ كُلٌّ مِنْهم ما بِها قَبْلَ سِواه .

وما أَفْرَغَتْ حُمُولَتَها ، حَتَّى تَخَطَّفَها التُّجَّارُ المُتَلَهِّفُونَ عَلَيْها ، ودَفَعُوا فِيها كُلَّ ما طَلَبَ أَصْحابُها مِنَ الأَثْمانِ الكَبِيرَةِ ، راضِينَ كُلَّ

(١) مراسيها : مفردها : مُرْسَى وهو ثقل يلقى فى الماء فيمسك السفينة أن تجرى ، أو محط السفينة فى الساحل .

الرِّضا ، مَسْرورينَ كُلَّ السُّرورِ ، يَطيرُونَ فرحًا ، وهُمْ يَنْقُلونَها إِلَى دوابِّهم وعَرَباتِهم .

ولَمْ يَكُنْ عَجَبًا ، أَنْ يَدْفَعَ أُولئك التُّجَّارما طُلِبَ منْهُم منَ الأَثمانِ الهائلَة ، فَهُم يَعْرِفُونَ أَيْنَ يَضعُون أَمْوالَهُم ، ويَشُمُّونَ منْ بَعيد رائحة الرِّبْحِ الَّذى سَيَدْخُلُ جُيوبَهم ، يَعْلَمون أَنَّهُم يَشْتَرونَ سِلَعًا رائجَةً[1] ، سَتُدِرُّ عَلَيْهم الأَرْباحَ الَّتى يَحْلُمونَ بها ، فَقَدْ كانَتْ مِمَّا يَشْتَهِى أُولئكَ الفِرنجُ ، البَعيدُونَ عَنِ الشَّرْقِ وخَيْراته ، ومَا فيه مِنَ العَجائبِ والغرائِبِ :

قَرَنْفلٌ ، وزَنْجبيلٌ ، وقِرْفَةٌ ، وفُلْفُلٌ أَسْوَدُ ، وتَمْرٌ هِنْدىٌّ ، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ التَّوابِلِ الأَخَّاذَةِ الرَّائحَة ، الَّتى يُعالَجُ بِها الطَّعامُ ، فَتُكْسِبُه حَلاوَةَ مَذاقٍ ولَذَّةَ طَعْمٍ ، وتَفْتَحُ لَه شَهِيَّةَ الآكِلِينَ ، وتُغْريهِم بالتِهامِه .

كُلُّ ذلكَ كانَتِ السَّفينَةُ تَحْمِلُه ، مَعَ البُخورِ ، والمِسْكِ ، والعَنْبَرِ ، والعَاجِ ، والفَاكِهَةِ اللَّذيذَةِ ، والتَّمْرِ العَرَبىِّ الفائقِ الحَلاوَة ، وما يُتَداوَى به منَ الأَعْشابِ النَّادِرَةِ ، الَّتى تُنْبِتُها بِلادُ الشَّمْسِ المُشْرِقَة والأَجْواءِ الدَّافِئَة ، تَشْفِى المَرضَى ، وتَزيدُ الأَصِحَّاءَ قُوَّةً ونَشاطًا .

عَدا ما يَأْخُذُ بالأَعْيُنِ والقُلوبِ ، منَ الحُسْنِ البارقِ فيما طَرَّزَتْ أَيْدى الشَّرْقيِّينَ الماهِرَةُ ، ونَقَشَتْه عَلى البُسُطِ الثَّمينَة ، والمَلابِسِ المَتينَةِ النَّسجِ ، الرَّقيقَةِ المَلْمَسِ ، منَ المَوْسلِينِ ، الَّذى تَصْنَعُه بلادُ المَوْصِلِ ويُنْسَبُ إِلَيْها ، والدِّمَسْتُقِ الَّذى يَحْمِلُ اسْمَ دِمَشْقَ مَكانِ صِناعَتِه ،

(١) رائجة : من راجت السلعة رواجا ، أى كثر طلابها .

ومنْ رَقيق ثِياب مِصْر ، ومنْ إنْتاج الهِنْد ، وتُحف السُّودان والحَبَشَة وغَيرها ، مِمَّا يَخْطَفُ الأَنْظارَ ويَسْتَوْلى عَلَى العُقول .

وما مَلَكَ التُّجَّارُ هذه البِضاعَةَ ، حَتَّى طارُوا بها إلَى قُصُور الأُمَراء والأَغْنياء ، وأَرْبابِ المُقاطَعاتِ الكَثيرَة ، الَّتى تَنْتَشرُ فِى كُلِّ البِلاد ، وتَرَكُوا الفُقَراء فِى حَسْرَة ، يَنْظُرونَ إلَيْهم بعُيُون زائغَة[1] ، ويَتْبعونَهُم بقُلوب مُحْتَرِقَة ، فَجُيُوبُهُم خاوِيَةٌ ، وأَيْديهم قَصيرَةٌ ، لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَدَّ إلَى شَىْء منْ هذه السِّلَع الغالِيَة ، يَوَدُّون أَنْ يَهْجُموا عَلَيْها ، ويَنْتَزِعوها ، غَصْبًا عَمَّنْ يَحْمِلُونَها ومَنْ سَيَشْتَرونَها .

لكنَّهم لَمْ يَفْقِدُوا الأَمَلَ فِى اغْتصابِها ، فَكَثِيرٌ مِنْهم سُرَّاقٌ وقُطَّاعُ طُرُق ، ممَّنْ تَمْتَلئُ بِهِمْ تِلْكَ البِلادُ ، لَيْسَ لَهُم صِناعَةٌ سِوَى السَّلْب والنَّهْب ، أَلْجَأَهُم ما هُمْ فيه مِنَ الجُوع والفَقْر والجَهْل ، إلَى أَنْ يَعيشوا عِيْشَةَ الوُحُوشِ ، يَفْتَرِسُون مِثْلَها ، لِيَدْفَعوا عَنْ أَنْفُسِهم أَفْواهَ المَوْتِ كَما تَصْنَعُ .

فأَرْضُهم قاحِلَةٌ لا تُنْبِتُ ، وأَيْديهم مُعَطَّلَةٌ لا تَعْمَلُ ، وأَصْواتُ سُيُوفِهِم لاَ تَسْكُتُ ، يُحَكِّمونَها بَيْنَهُمْ لأَقَلِّ الأَسْباب ، فَيَتَبارَزُونَ ، ويَقْتُلُ القَوِىُّ مِنْهُمُ الضَّعيفَ ، مُفْتَخِرًا بقَتْله ، جاعِلاً سَفْكَ دَمِه فُروسيَّةً يَتَباهَى بِها ، دُونَ اهْتمام بِالدَّم المَسْفُوح ، ولاَ بِالأَنْفُس الزَّاهِقَة .

فلَمْ يَكَدْ أُولئِكَ التُّجَّارُ يُغادِرُونَ المِيْناء بِبِضاعَتِهم ، حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِم قُطْعانٌ منْ أُولئِكَ الجِياع ، تَعْوى مِنْ قَرارَةِ بُطونِها ، وتَنْدفعُ بِنارِ صُدورِها إلَى الفَريسَةِ الَّتى اقْتَرَبَتْ مِنْها .

---

(١) زائغة : مائلة عن مستوى النظر حيرةً وشخوصاً ، والجمع : زوائغ .

لكنَّ التُّجَّارَ لَمْ يَكونُوا غافلينَ عَنْهُم ، بَلْ كانُوا مُحْتاطينَ لَهُم ، تَسِيرُ قَوافِلُهُم بِسُيوف أَقْطَعَ مِنْ سُيُوفِهِم ، وسَواعِدَ أَشَدَّ مِنْ سَواعِدِهِم ، فَتَمكَّنوا بَعْدَ مَعارِكَ دامِيَة ، مِنْ أَنْ يَبْلُغوا مَأْمَنَهُم ، ويَصِلوا بِتِجارَتِهِم إِلَى الأَماكِنِ الَّتِى قَصَدُوها .

وسَرِيعًا ما عَبِقَتْ بِالمِسْكِ والعَنْبَرِ ، دُورُ أُولئِكَ الأَغْنياءِ وقُصُورُهم ، واهْتَزَّ دُخانُها المُنْعِشُ فِى جَوانِبِها ، فَبَعَثَ النَّشْوَةَ فى الصُّدُورِ ، والخَيالَ الوَاسِعَ فِى الرُّءُوسِ ، وأَطارَ الأَفْكارَ فى جَمِيعِ النَّواحِى ، وحَلَّقَ بِها فَوْقَ بِلادِ الشَّرْقِ كُلِّها ، يَرْسُمُ لَها صُوَرًا وأَشْكالاً ، تَمْلأُ القُلوبَ بالأَمانِى ، والصُّدورَ بِالأَحْلامِ .

وفِى هذِهِ النَّشْوَةِ ، الَّتِى دَفَعَتْها الرَّوائِحُ الذَّكِيَّةُ فِى الدِّماءِ ، وأَثارَتْها التَّوابِلُ فِى الأَجْسامِ ، جَعَلَ بَعضُ مَنْ فِى تِلكَ القُصُورِ ، يَصِيحُ فِيمَنْ حَوْلَه صارِخًا ، يَقولُ مُتَحَسِّرًا :

– كَيْفَ نَسْكُتُ عَلَى تِلْكَ البِلادِ ، الَّتِى تُنْتِجُ هذِهِ النَّوادِرَ ، وتُخْرِجُ هذِهِ العَجائِبَ ، وتَخْلُقُ هذا السِّحْرَ السَّاحِرَ ؟ ! .

ما هذِهِ الغَفْلَةُ أَيُّها الرِّجالُ ؟ ! ! .

لِمَ نَتْرُكُ أَهْلَ الشَّرْقِ يَمْرَحونَ فِى ذلِكَ النَّعِيمِ ، ونَرْضَى بِما نَحْنُ فِيه ، مِمَّا لاَ يُساوِى شَيْئًا ، بِجانِبِ ما يَتَمَتَّعُ بِه أُولئِك السُّعَداءُ ؟ ! .

ومـا بالُنا لاَ نَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ البِلادِ ، ونُهاجِمُها ونَمْلِكُها ، ونَسْتَوْلِى عَلَى جَنَّاتِها وكُنُوزِها ، ونَقْطِفُ بِأَيْدِينا ثِمارَها ، ونَسْتَخْرِجُ بِأَنْفُسِنا ما فِى بُطونِ أَرْضِها ، ولاَ نَنْتَظِرُ حَتَّى تَرِدَ إِلَيْنا خَيْراتُها ، ونَدْفَعَ فِيها الأَثْمانَ الَّتِى قَلَّما نَقْدِرُ عليها ؟ !

وماذا يُكَلِّفُنا غَزْوُ تِلْكَ البِلادِ وامْتِلاكُها ؟ ! !

لَنْ يُكلِّفَنا ذلكَ الغَزْوُ شَيْئًا كَثيرًا ، فَلَدَيْنا السُّيوفُ الَّتِى لاَ تَجِدُ ما تَضْرِبُه ، غَيْرَ أَنْ يَدُقَّ بَعْضُها بَعْضًا ، ويَكْسِرَ بَعْضُها بَعْضًا .

فَهَلاَّ أَشْعَلْنا فى صُدورِ أَصْحابِها ، فِكْرَةَ غَزْوِ تِلْكَ البِلادِ ، ودَفَعْناهُمْ إِلَيْها ، وأَبْعَدْنا عَنَّا سُيُوفَهُمُ الشَّديدَةَ العَطَشِ إِلَى دِمائِنا؟! .

نُلْقِى بِتِلْكَ السُّيوفِ بَعيدًا ، فَنُطْفِئُ نارَها الَّتى تَكادُ تُحْرِقُنا ، ونَنْتَفِعُ بِدِمائِها الَّتى سَتَجْرِى هُناكَ ، فى إِقامَةِ مُلْكٍ كَبيرٍ وسُلْطانٍ عَظِيمٍ .

نُوَجِّهُ إِلَى تِلْكَ البِلادِ هذه الأَعْدادَ الَّتى لاَ تُحْصَى ، مِنَ السُّرَّاقِ ، والعُصاةِ ، والْمُتَعَطِّلِينَ ، والمُجْرِمينَ تَمْتَلِئُ بِهِم سُجونُنا ، فَيَخُوضُونَ مَعَ أَهْلِ الشَّرْقِ مَعارِكَ طاحِنَةً ، تَهُدُّ قُواهُم ، وتُفْنِى الشَّرْقِيِّينَ ، وتُقِيمُ لَنا فِى أَرْضِهِم قُصُورًا أَعْلَى مِنْ قُصورِنا ، وحُصونًا أَرْفَعَ مِنْ حُصونِنا ، يُقِيمونَها هُمْ ونَأْخُذُها نَحْنُ ، فَسَوْفَ نَقْفِزُ عَلَى أَكْتافِهِم ، ونُصْبِحُ نَحْنُ السَّادَةَ هُناكَ ، كمَا نَحْنُ السَّادَةُ هُنا .

فَقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا فى تِلْكَ البِلادِ الَّتِى فَتَحُوها ، نَكُونُ قَدْ بَلَغْناها ، ووَضَعْنا أَيْدِينا عَلَيْها وعَلَى كُلِّ ما فِيها ، واسْتَوْطَنَّاها ، وتَرَكْنا بِلادَنا الجَرْداءَ الجامِدَةَ الوَجْهِ ، إِلَى الشَّرْقِ الضَّاحِكِ الخَصِيبِ .

هَيَّا يا مَلِكُ «بُوهِمَنْدُ» ، هَيَّا .

فَكِّرْ يامَلِكُ فِى هَذا المَشْروعِ العَظِيمِ ، وأَسْرِعْ بِتَنْفِيذِه ، وأَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ عَناءِ أُولئِكَ الجِياعِ ، الَّذينَ يُتْعِبونَ قَلْبَكَ ، ويُطِيرونَ النَّوْمَ مِنْ عَيْنَيْكَ .

هَيَّا يا صَديقى إلَى الشَّرْقِ وَسِحْرِه ، وجمَالِه ، ووَفيرِ خيْراتِه .

(٢)

مَلأَت الفكْرَةُ العُدْوانيَّةُ رَأْس «بُوهْمنْدَ» ، ورُءوسَ أُمَراءِ أُورُبَّا ، وزادهُم أمَلاً فى تَحْقيقِ أَمانيهم فِى الشَّرْقِ ، ما حَدثَ فِى بِلادِ الأَنْدَلُسِ بِجَنُوبِ غَرْبِ أُورُبَّا وقِيامِ الأُورُبِّيِّين هُناكَ بِحَرْبِ العَرَبِ ، مُنْتَهِزِينَ انْقِسامَهُم وتنازُعَهم علَى السُّلْطانِ ، لِيَطْرُدوهم مِنْ تِلْكَ البِلادِ ، الَّتِى عَمَرُوها ، وأَنْقَذُوها مِنَ الجَهْلِ ، والفَوْضَى ، وقَسْوةِ الحُكَّامِ ، وأَقاموا بِهَا حَضارةً مُزْدَهِرةً ، جَعَلتْ لِتلْكَ البِلادِ صِيتًا عاليًا بَعِيدًا .

كما زَادَ هؤُلاءِ الأُمَراءَ ، ثِقَةً فِى قُدْرَتِهم عَلَى تَحْقيقِ أَطْماعِهِمْ ، انْتِزاعُ الأُورُبِّيِّين كَثيرًا من جُزُرِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوسِّطِ ، مِنْ أَيْدى أَصْحابِها العَرَبِ ، ومَدُّ سُلْطانِهم عَلَى الجُزْءِ الغَرْبِيِّ مِنْ هذا البَحْرِ ، والتَّطَلُّعُ إِلَى شَرْقِه لِيَسْتَوْلُوا عَلَيه ، ويَضَعوا أَيْدِيَهُم عَلَى مُدُنِه وتِجارَاتِه .

وهَبَّ أُولئكَ الأُمَراءُ يَعْمَلُونَ ، وجَعَلوا يَجْتَمِعونَ ، ويَتَفَرَّقون ، ويَجْتَمِعُونَ ، يَبْحَثونَ عَنِ الوَسِيلَةِ الَّتِى تُبَلِّغُهُم آمالَهم ، ويُفَتِّشُون عَنِ الحُجَّةِ الَّتِى يَحْتَجُّون بِها ، لِيُبَرِّروا ذلكَ العُدْوانَ ، ويُقْنِعوا النَّاسَ بالإِسْراعِ إِلَيْه ، والتَّضْحِيَةِ بِأَرْواحِهم مِنْ أَجْلِه ، دُونَ أَنْ يَكْشِفوا نَواياهُم ، وما يُبَيِّتُونَ لَهم مِن أَخْطارٍ .

قَضَوا الصَّيْفَ كُلَّه فى تَفْكير وتَدْبير ، فالأَمْرُ أمامَهُم صَعْبٌ وخَطيرٌ ، حَتَّى أقْبَلَ الشِّتاءُ بِبَرْدِه القارِسِ ، وضَبابِه ، وظَلامِه ، وعَواصِفِه وثُلوجِه ، وأسْرَعَ النَّاسُ يَحْمُونَ أنْفُسَهم مِنْه بالنِّيرانِ الضَّخْمَةِ ، والمَلابِسِ السَّميكَةِ ، والأَغْطيَةِ الثَّقيلَةِ ، يُعانونَ الكَثيرَ مِنْ ثُلوجِه الَّتِى تُغَطِّى وَجْهَ الأَرْضِ ، ولا تَسْمَحُ بِنَباتٍ يَنْمُو ، ولاَ بِزَرْعٍ يَشُبُّ . يَزيدُهُم بَلاؤُه اشْتياقًا إلَى البِلادِ الدَّافِئَة ، المَكْسُوَّة بالنَّباتِ الأَخْضَرِ ، والأَزْهارِ المُتَفَتِّحَةِ ، ويَمْلأُ صُدُورَهم عَزْمًا عَلَى الإِسْراعِ إلَيْها وامْتِلاكِها .

جَعَلوا يُفَكِّرون فِى الوَسيلَةِ الَّتِى يَتَّخذونَها ، والحُجَّةِ الَّتِى يَحْتَجُّونَ بِها ، والمَالِ الْكَثير ، الَّذِى يُعينُهم عَلى ذلكَ العَمَلِ الكَبيرِ الشَّاقِّ ، حَتَّى ظَهَرَ لَهُمُ الطَّرِيقُ ، وبَدَتْ لَهُم الحُجَّةُ ، الَّتِى ظَنُّوها مَطِيَّةً سَهْلَةً ، يَرْكَبونَ ظَهْرَها إلَى ساحاتِ الأمانِى العِذابِ .

أَمَّا المالُ ، فَوَجَدوا عِنْدَ تُجَّارِ البُنْدُقِيَّةِ ، وجِنْوا ، وبيزا ، وسِواها مِنْ مُدُنِ جَنوبِ أُورُبَّا ، مِثْلَ ما فى صُدورِهِم ، مِنَ الآمالِ العَريضَةِ فى غَزْوِ الشَّرْقِ العَرَبِىِّ الوَفيرِ الخَيْراتِ ، وعَرَفُوا أَنَّهُم يَتَمَنَّونَ أَنْ يَسيرُوا إلَيْه ويَحْتَلُّوه ، ويُقيمُوا به البُيُوتَ المالِيَّةَ الكَبيرةَ ، يَنْتَزِعونَ بِها ثَمَراتِه ، ويَمْتَصُّونَ بها ثَرَواتِه ، ويَجْعَلُونَه سُوقًا لَهُم تَمْتَدُّ إلَى أَقْصَى البِلادِ ، فَهُوَ قَلْبُ الْعالَمِ ، وَإِذَا مَلَكوه تَمَكَّنوا مِنْ كُلِّ ما حَوْلَه ، ووَضَعوا أَيْدِيَهُم عَلَى جَميعِ كُنوزِه .

وَجَدوا عِنْدَ هؤُلاءِ التُّجَّارِ ، اسْتِعْدادًا كَبيرًا لِبَذْلِ ما يَتَطَلَّبُ ذلكَ الْغَزْوُ ، مِنَ المَالِ والسُّفُنِ والرِّجالِ ، ونَفَقاتِ المُقاتِلينَ ، وأَثْمانِ

الأَسْلحَة والذَّخائِر ، وأُجُورِ مَنْ سَيُجَنِّدونَهم لِلْقيامِ بالدَّعْوَةِ إلَى هذا الغَزْو ، وتَهْيئَة النُّفوس لِذلكَ العُدْوان .

فَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ الاحتلالَ الاقْتصاديَّ ، أَقْوَى وأَثْبَتُ أَقْدامًا من احْتلال السِّلاح ، وأَشَدُّ تَغَلْغُلاً فِى البِلاد الَّتى تُبْتَلَى به ، وأكْثَرُ قُدْرَةً عَلَى غَلِّها بالأَغْلال ، الَّتِى تُخْضعُها وتَكْتُمُ أنْفاسَها ، لكِنَّهُم مِثْلُ أُولَئِكَ الأُمَراءِ ، يَبْحَثُون عَنِ الطَّريقِ الَّذى يُوَصِّلُهُم إلَيْه .

يَعْلَمونَ أَنَّ هذا الاحْتِلالَ الاقْتصاديَّ المُتَحَكِّمَ فِى لُقْمَةِ العَيْش ، لابُدَّ أَنْ تَسْبِقَه السُّيوفُ والدِّماءُ ، تَفْتَحُ لَه الأَبْوابَ فَيَدْخُلُها مِنْ ورَائِها ، ويَنْسابُ فِيها انْسيابَ الجَراثيم فِى الأَجْسام ، ويُعَشِّشُ فِى جَوانِبِها ، ويَمُدُّ جُذورَه فِى أَرْضِها طَويلَةً عَريضَةً عَميقَةً ، لا يُسْتَطاعُ انْتزاعُها إلاَّ بِالدِّمَاءِ الغَزيرَةِ ، وهُمْ يُسْرِعُونَ بِامْتصاص تِلْكَ الدِّماء مِنْ عُروقِ أَهْلِها ، فَلاَ يَبْقَى فِى أَجْسادِهم ما يُراقُ مِنْها ، لِطَرْدِ الغُزاة أَوِ الثَّوْرَة عَلَيْهِم ، فَيَعيشونَ فِى بِلادِهِم أَمْواتاً ، يَنْظُرونَ إلَى ثَرَواتِهِمُ المَسْلوبَة ، ولاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحَرِّكوا ساكِنًا ، فلَم يَعُد فِى أَجْسامِهِم ما يُحَرِّكُها مِنَ الدِّماءِ .

كَما وَجَدَ أُولئكَ الأُمَراءُ ، أَنَّ كَثيرًا مِنْ رِجالِ الدِّينِ المُحِبِّينَ للدُّنْيا ، لَهُمْ رَغْبَةٌ شَديدَةٌ فى احْتِلال تِلْكَ البِلادِ الغَنِيَّة ، تُراوِدُهُمْ أَحْلامُهُم كَما تُراوِدُ أُولئِكَ التُّجَّارَ ، فَهُمْ يَشْعُرونَ بِضَآلَة سُلْطانِهِم ، مُنْذُ انْقَسَمَت الدَّوْلَةُ الرُّومانِيَّةُ إِلَى غَرْبِيَّة وشَرْقِيَّة ، وأَصْبَحَت الشَّرْقِيَّةُ مِنْها عَلَى مَذْهَبٍ دِينِىٍّ ، والغَرْبِيَّةُ مِنْها عَلَى مَذْهَب دِينِىٍّ آخَر

يُخالفه ويُعاديه ، وأنّهم بذلك الانْقسام قَدْ فَقدوا الكثيرَ مِنْ سُلْطانهمُ الرُّوحيِّ والدُّنْيويِّ ، اللّذَيْنِ كانا لَهُمْ والدَّوْلتانِ وَحْدةٌ واحدةٌ ، وعلى مَذْهبٍ واحدٍ .

ثُمّ زادَ ذلكَ الأمَلُ العُدْوانيُّ ، فِي صُدورِ هؤلاءِ الأُمَراءِ ، أكْثَرَ وأكْثَرَ ، حينَ عَرفوا أنَّ مُقاوَمَةَ العَرَبِ لَهُم ، سَوفَ تكونُ ضَعيفَةً ، وأنَّ الدَّوْلَةَ العَرَبيَّةَ الكَبيرَةَ القَويَّةَ ، الَّتِي طَرَدَتِ الرُّومَ مِنَ الشَّامِ ومِصْرَ وسواهُما ، قَدْ أصْبَحَتْ مُقَسَّمَةً بَيْنَ العَبَّاسيِّينَ الضُّعَفاءِ فِي الشَّرْقِ ، وبَيْنَ الفاطميِّينَ الَّذين تَهْتَزُّ دَوْلَتُهم ، وتَسْعَى إلَى السُّقوطِ ، في مِصْرَ وغَيْرِها .

عَدا الأفْرادِ ، الَّذينَ يَدْفَعُهُم حُبُّ العَظَمَةِ والسُّلْطانِ والانْفرادِ بالحُكْمِ ، إلَى أنْ يَنْفَصلوا عَنِ الجماعَةِ ، ويُقيمَ كُلٌّ مِنْهُم نَفْسَه مَلكاً مُسْتَقِلاً ، ولَوْ علَى مَدينَةٍ صَغيرَةٍ ، تُصْبحُ مَمْلَكَةً ضَعيفَةً ، يَسْهُلُ اكْتساحُها عَلَى مَنْ يَجِدونَ فِي أنْفُسِهِم قُوَّةً أكْبَرَ مِنْ قُوَّتِها ، فَبَيْنَ عَشيَّةٍ وضُحاها ، تَقومُ مَمالكُ مِنْها وتَسْقُطُ مَمالكُ أُخْرَى ، ويَنْتَقِلُ السُّلْطانُ فِيها مِنْ يَدٍ إلَى يَدٍ ، فِي حَرَكاتٍ داميَةٍ تَطْحَنُ الشَّعْبَ وتَهُدُّ قُواه .

اجْتَمَعَ أُولئكَ الأُمَراءُ ثُمَّ اجْتَمَعوا ، يَتَشاوَرُونَ ويُقَلِّبُونَ الآراءَ عَلَى وجُوهِها وجُنوبِها وظُهورِها ، حَتَّى اطْمَأنُّوا إلَى أنَّهُم قادِرُونَ عَلَى تَحْقيقِ أطْماعِهِم ، فارْتاحَتْ نُفوسُهُم ، وصاحَ كَبيرُهُم فِي فَرْحَةِ القاتِلينَ ، الَّذينَ ظَنُّوا أنَّهُم تَمَكَّنوا مِنْ فَرائسِهِم ، يقولُ لَهُم فِي عَزْمٍ :
وجَدْنا أمَلَنا! وجَدنا بُغْيَتَنا !

الوَسيلَةُ أيُّها الأبْطالُ أمامَكُم ، والحُجَّةُ القَويَّةُ فِى أيْديكُمْ .

حُجَّةٌ هائلَةٌ سَوْفَ تَهيجُونَ بها الخَواطِرَ ، وتَجْمَعُونَ بِها مالا يُحْصَى مِنَ السُّيوفِ والسَّواعِدِ .

فأسْرِعوا إلى الجَنَّاتِ العاليَةِ ، ذَاتِ القُطوفِ الدَّانيَةِ ، واتْرُكوا هذا الفَقْرَ الَّذى تُصْبِحُونَ فِيهِ وتُمْسُونَ ، والظَّلامَ الَّذى يَلُفُّكُم بِسوادِهِ ، ولاَ يُرْجَى لَه ضِياءٌ !

القُدْسُ أيُّها الأُمَراءُ ! القُدْسُ أيُّها الرِّفاقُ !

لُفُّوا حُجَّتَكُم حَوْلَ القُدْسِ ، وتَخْليصِهِ مِنْ أيْدِى العَرَبِ ، تَبْلُغُوا الأَمانِىَ وتُحَقِّقوا الأَحْلامَ .

(٣)

زادَ المُجْتَمِعونَ إنْصاتًا إلَى المَلِكِ «بُوهِمُنْدَ» ، وهُوَ مُنْطَلِقٌ فِى فَرَحٍ شَدِيدٍ ، يَتَحَدَّثُ عَنِ الحُجَّةِ الَّتِى عَثَرَ عَلَيْها ، ورَآها كَفِيلَةً بِتَحْقيقِ الأَمانِى البَعِيدَةِ ، ويَقولُ فِى حَماسٍ فائِرٍ :

– أَلَسْنا أيُّها السَّادَةُ نَحُجُّ إلَى القُدْسِ ، ويَبْكِى الكَثيرُونَ مِنَّا بالدُّموعِ الحارَّةِ ؛ لأَنَّهُم لاَ يَسْتَطِيعونَ الذَّهابَ إلَيْهِ ؟ ! .

فَلْنَجْعَلْه الجِسْرَ الَّذى نَمُرُّ عليهِ إلَى قَصْدِنا ، ونُذِعْ فِى النَّاسِ أَنَّ العَرَبَ الَّذينَ يَمْلِكونَهُ قُساةٌ غِلاظُ الأَكْبادِ ، يَمْنَعونَنا منْه ، ويَحُولونَ بَيْنَنا وبَيْنَه ، يَقْتُلونَ هُناكَ غَيْرَ المُسْلمينَ ، ويَهْدِمونَ مَعابِدَهُم ، ويَقْطَعونَ الطَّرِيقَ علَى الحُجَّاجِ ، ومِنْ واجِبِنا أَنْ نَهُبَّ مُسْرِعِينَ إلَى

إِنْقَاذِهِ ، وتَخْلِيصِهِ مِنْ أَيْدِى تِلْكَ الوُحُوشِ المُفْتَرِسَةِ ، الَّتِى تَصُدُّنَا عَنْهُ .

هذِهِ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ أَيُّها السَّادَةُ ، سَوْفَ تَنْطَلِى عَلَى الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ ، ولَنْ نَعْدَمَ أَنْ نَجِدَ مِنْهُم مَنْ نَجْعَلُهُم يَصْرُخونَ ، باكِين بِدُموعٍ غَزِيرةٍ كاذِبَةٍ ، مِنْ أَنَّ أُولئِكَ العَرَبَ هاجَمُوهُم ، ونَهَبوا أَمْوالَهُمْ ، وسَلَبوا مَتاعَهُم ، وسَبَوْا نِساءَهُم ، وذَبَحُوا أَطْفالَهُم ، وقَتَلُوا الكَثِيرَ مِنْ رِجَالِهِم .

نُجَنِّدُ هؤُلاءِ لِذَلِكَ العَمَلِ ، ونُعْطِيهِمُ المالَ الَّذِى يَتَلَهَّفُونَ عَلى القَلِيلِ مِنْه ، ولا نَقْتَصِرُ عَلَى ذَلِكَ البُكاءِ ، بَلْ نُحْدِثُ بِبَعْضِهِم آثارًا[1] ، نَدَّعِى أَنَّها حُفِرَتْ فِى الوُجوهِ والرُّءوسِ والأَجْسادِ ، بِأَيْدِى أُولئِكَ العَرَبِ الَّذِينَ قَطَعوا الطَّرِيقَ ، تَكُونُ مَعَ البُكاءِ الشَّدِيدِ والدُّموعِ الغَزِيرَةِ ، دَلِيلاً مَحْسوسًا أَمامَ المُشاهِدِينَ ، تَخْدَعُهُم ، وتُثِيرُ الدِّماءَ الحارَّةَ فِى عُروقِهِم ، وتَدْفَعُهُم إِلى التَّضْحِيَةِ بِأَرْواحِهِم مِنْ أَجْلِ القُدْسِ المُهانِ .

وعُقولُ أُولئِكَ السُّذَّجِ الجَهَلَةِ فِى آذانِهِم ، فَسَرِيعًا ما يُصَدِّقُونَ ، ويَنْدفِعونَ كَمَا يُوَجَّهونَ بِغَيْرِ وَعْىٍ ولاَ تَفْكِيرٍ .

اسْتَحْسَنَ الكَثِيرُ مِنَ السَّامِعِينَ الفِكْرَةَ والطَّرِيقَةَ ، وهَزَّ بَعْضُهُمُ الآخَرُ رُءوسَهُم ، عجَبًا مِنْ هذا الكَلامِ الغَرِيبِ المُزَوَّرِ[2] ، الَّذِى يَصِفُ أُولِئكَ العَرَبَ بِما لَيْسَ فِيهِم ، ثُمْ عادُوا يُنْصِتُونَ و «بُوهْمِنْدُ» يَقولُ مُتَسائِلاً :

---

(١) آثارًا : علامات .

(٢) المزور : المزخرف .

- ومَنْ ترَوْنَ أيُّها السَّادَةُ الأَحِبَّاءُ ، أَقْدَرَ النَّاسِ علَى أنْ يُثِيرَ العَواطِفَ ، ويُعَبِّئَ القُلوبَ بالكُرْهِ للْعَرَبِ ، ويَدْفَعَ إلَى الإسْراعِ بالنُّهوضِ لِتَخْليصِ القُدْسِ مِنْ أيْديهِم؟ .

لَيْسَ أَقْدَرَ على هذا العَمَلِ فى اعْتِقَادى ، مِنْ رِجالِ الدِّينِ الدُّنْيَوِيِّينَ ، الطَّامِعينَ فِى الثَّراءِ الكَبيرِ والسُّلْطانِ الواسعِ ، بِما يُلْقُونَ مِنَ الخُطَبِ الرَّنَّانَةِ وما يَدْفَعونَ فِى الصُّدورِ مِنْ باكِى الكلامِ ، دُونَ أَنْ يُفكِّرَ السَّامِعونَ فِى صِدْقِ ما يُقالُ أَوْ كَذِبِهِ ، ويَهُبُّونَ مُسْتَجِيبينَ لِما يَسْمَعونَ .

كُلٌّ مِنْهُم يُمَنِّى نَفْسَه بإراقَةِ دماءٍ أَكْثَرَ تَدَفُّقاً ، لِيَفوزَ بِجَنَّاتٍ أَكْثَرَ اتِّساعًا ، كَما سَوْفَ يُؤَكِّدُ لَهُم أُولئكَ الَّذين سَيَقُومونَ بَيْنَهم ، ويَصْرُخُونَ . ويَتَباكَوْنَ على القُدْسِ المَسْلوبِ ، وخاصَّةً المُتَعَصِّبينَ ، الَّذينَ يَوَدُّونَ أَنْ يُغْمِضُوا أَعْيُنَهم ويَفْتَحوهَا ، فَلاَ يَجِدُوا أَثَرًا لِعَرَبِىٍّ ولاَ لِمُسْلِمٍ علَى وَجْهِ الأَرْضِ .

وأَنَا أَيُّها الرِّفاقُ ، كَزَعيمٍ ، لِطائفَةِ الإسْبِتارِيَّةِ الشَّديدَةِ الكَراهِيَةِ لِلإسْلامِ والمُسْلمينَ ، سَأَكونُ أوَّلَ المُنْدَفِعينَ لِلْقَضاءِ علَى أُولَئكَ الأَعْداءِ ، أَنا ومَنْ حَوْلِى ، وضَامِنٌ كَذلِكَ لِطائِفَةِ الدَّاوِيَّةِ ، الَّتى لاَ تَقِلُّ عَنَّا تَعَصُّبًا عَلَيْهِم وكُرْهًا لَهُم .

ولَمْ يَعُدْ بَعْضُ الحاضِرينَ قادِرًا علَى أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَه ، ويَظَلَّ ساكِتًا ، حابِسًا شُعورَهُ أَمامَ الكَلامِ العَجيبِ ، الَّذى يُخالِفُ الحَقَّ ، وصاحَ يَقْطَعُ صَوْتَ «بُوهِمِنْدَ» ، قائِلاً فى دَهْشَةٍ :

- لكنِّى أَيُّها المَلِكُ جِئْتُ مِنْ هُناكَ قَرِيبًا جدًا ، بَعْدَما أَدَّيْتُ فَرِيضَةَ الحَجِّ ، ولَمْ أَجِدْ شَيْئًا مِمَّا تَقولُ !! .

وبَيْنَ الضَّجَّةِ العالِيَةِ ، الَّتِى ثارَتْ فِى وَجْهِ الرَّجُلِ ، والأَصْواتِ الصَّارِخَةِ بِإِغْلاقِ فَمِهِ ، اسْتَمَرَّ يَقولُ فى شَجَاعَةٍ :

- وَجَدْتُ هُناكَ الرَّاحَةَ ، والهُدوءَ ، والأَمْنَ ، والتَّرْحيبَ ، والحَفاوَةَ الشَّديدَةَ بِالحُجَّاجِ ، والعَمَلَ عَلَى راحَتِهِم جَميعًا ، وأَنَّ المُسْلِمِينَ هُناكَ يَحْتَرِمونَ الأَدْيانَ السَّماوِيَّةَ كُلَّها ، كَما أَمَرَهُم رَبُّهمْ ، لاَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَصْحابِها ، يَعْتَبِرُونَهُم إِخْوَةً لَهُم ، ويَجْعَلونَ القُدْسَ لِلْجَميعِ عَلَى سَواءٍ ؛ لأَنَّه بَيْتُ اللهِ لِلنَّاسِ كُلِّهِم ، ويُرَغِّبونَ فِى الحَجِّ إِلَيْهِ ، ويعْتَبِرُونَ الصَّلاةَ فِيه مُضاعَفَةَ الأَجْرِ .

ومَعَ ارْتِفاعِ الضَّجَّةِ أَكْثَرَ وأَكْثَرَ ، مَضَى الرَّجُلُ يَقْطَعُها ، رافِعًا صَوْتَه أَعْلَى مِنْها ، قَائِلاً فى قُوَّةٍ :

- لَمْ أَجِدْ أَيُّها السَّادَةُ أَكْرَمَ مِنْ أُولئكَ العَرَبِ ، ولاَ أَسْمَى أَخْلاقًا ، ولاَ أَسْخَى يَدًا ، فَكَيْفَ تَقولُونَ عَنْهُم ما تَقولُونَ ، وتَهُمُّونَ أَنْ تَفْعَلوا ما تُدَبِّرونَ ، ويَأْبَى اللهُ وبَيْتُه ما تُرِيدُونَ ، فا حْذَرُوا مِنْ أَنْ تُشْعِلُوا فِى القُدْسِ نارًا ، تَلْتَهِمُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحْرِقوا بِها عِبادَ اللهِ الطَّيِّبِينَ الآمِنينَ!

فَزادَ الضَّجيجُ ، وكادَ بَعْضُهُم أَنْ يقُومَ إِلَى الرَّجُلِ ويَبْطِشَ بِه ، لَوْلاَ أَنَّ «بوهْمِنْدَ» صاحَ فِيهِم يُهَدِّئُهُم ، ويَقولُ لَه فى سُخْرِيَةٍ شَدِيدَةٍ :

- ما هذا أَيُّها الأَميرُ الكَبِيرُ ؟ ! !



لم نَجْتَمِعْ هُنا ، لِنَسْمَعَ كَلامًا يَعْطِفُ القُلوبَ عَلَى أُولئكَ العَرَبِ ، بَلْ جِئْنا نَبْحَثُ عَنِ الوَسِيلَةِ الَّتى تُزيحُهُم مِنَ القُدسِ . وتُقْدِرُنا عَلَيْه ، وتُمَكِّنُنا بَعْدَه منَ الشَّرْقِ كلِّه ! .

- احْتِلالٌ أيُّها المَلِكُ ؟ ! .

- نَعَمْ يا صاحِبِى ، سَنَذْهَبُ إلَى تلْكَ البِلادِ ونَحْتَلُّها ، ولَنْ نَصِلَ إلَيْها إلاَّ بِالقُوَّةِ والدَّمِ ، والكَثِيرِ مِنَ التَّضْحِيَةِ بِالأَرْواحِ .

والاحْتِلالُ أيُّها الأخُ الطَّيِّبُ ، لاَ يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ ولاَ العَطْفَ ، يَصْنَعُ فِى سَبِيلِ مَقاصِدِه ، أكْثَرَ مِمَّا تَصْنَعُ الوُحوشُ الضَّارِيَةُ : يَكْذِبُ ويَقْتُلُ ، ويُحَرِّقُ ، ويُخَرِّبُ ، ويُدَمِّرُ ، لاَ رِقَّةَ لَدَيْهِ ولاَ عاطِفَةَ ، ولاَ صِدْقَ ، ولاَ وَفاءَ ، ولاَ اعْتِرافَ بِغَيْرِ الدَّمِ الحارِّ ، يَجْرِى أنْهارًا على حُدُودِ السُّيوفِ وأَسِنَّةِ الرِّماحِ .

أرَأَيْتَ أيُّها الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، ذِئْبًا جائِعًا أمامَ فَرِيسَةٍ سَمِينَةٍ ، مُمْتَلِئَةٍ لَحْمًا وشَحْمًا ، يَتأخَّرُ عَنِ افْتِراسِها ؟ !

هناكَ النَّعِيمُ يا أَمِيرُ ، فَكَيْفَ يَدَعُه الجائِعونَ ولاَ يَخْطَفونَه ، ولَوْ أفْنَوْا ذَوِيه جَمِيعًا ؟ ! .

أَفِقْ أيُّها الأخُ الطَّيِّبُ مِنْ سَطْوَةِ الأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، فالبُطونُ الخاوِيَةُ لا تَعْرِفُ هذه الأَخْلاقَ ولاَ تَلْتَفِتُ إلَيْها .

وإيَّاكَ أنْ تَتَحَدَّثَ إلَى أحَدٍ بِشَىءٍ ، عَنِ الحَقِّ الَّذى رأيْتَه هُناكَ ، فَتُضْعِفَ القُلوبَ ، وتَفْتَحَ الأَعْيُنَ عَلَى ما لاَ نَوَدُّ أنْ يُرَى ، وتَفْتَحَ الآذانَ عَلَى ما لاَ نُحِبُّ أنْ يُسْمَعَ ، وتُفْسِدَ عَلَيْنا الخُطَّةَ الَّتِى سَتُبَلِّغُنا القَصْدَ العَظِيمَ .

وفِى العُيُونِ النَّاظِرَةِ إلَيْكَ بنارِها وشَرارِها ، ما يُغْنِى عَنِ القَوْلِ ، وسَتَرَى مَنْ منّا أَرْشَدُ عَقْلاً ، وأَنْفَذُ بَصَرًا ، وأَبْعَدُ إِدْراكًا ، وأَقْدَرُ عَلَى الرُّؤْيَةِ البَعِيدَةِ الكاشِفَةِ .

(٤)

صَفقَ المُجتمِعون طَويلاً «لبوهْمنْدَ» ، وانْبَعَثَتْ من أفْواهِهِم كَلِمَاتُ الاسْتِحْسانِ لقَوْلِه ، وعُيُونُهُم تَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ الطَّيِّبِ العاقِلِ الَّذِى يقولُ الحَقَّ ، تَوَدُّ أَنْ تُحْرِقَه بنارِها ، وهُوَ باسِم لما يَرَى ، ساخِرٌ مِمَّا يَسْمَعُ ، حتَّى هَدَأُوا ، فَعادَ «بوهْمنْدُ» يُوجِّه الكَلامَ إِلَيْه ، ويَقُولُ فى عَجَبٍ شديد :

– لَسْتُ أدرى أَيُّها الأَمِيرُ ، العالِمُ ، الباحِثُ ، المُفكِّرُ ، كَيْفَ غابَ عَنْكَ أَنَّ القُدْسَ ، وفِلَسْطِينَ ، وبِلادَ الشَّامِ ، وغيْرَها ، كانَتْ أَرضَنا وقِطْعَةً منْ بِلادِنا الواسِعَةِ فِى الشَّرْقِ والغَرْبِ ، والبرِّ والبَحْرِ؟!

كَيْفَ تَنْسَى أيُّها الأَميرُ ، أَنَّ تِلْكَ البِلادَ كانتْ رُومانيَّةً ، يُرَفْرِفُ عَلَيْها العَلَمُ الرُّومانىُّ الخَفَّاقُ ، وأنّها كانَتْ تُرسِلُ خَيْرَهَا كلَّه إِلَى رُوما ، وتأْتَمِرُ بأَمْرِها ، وتَستجِيبُ مُسْرِعَةً لِكُلِّ ما تُريدُه منْها ، حَتَّى انْتَزَعها العَرَبُ منْ أَيْدِينا ؟!

آه ! عَرَفْتُ !! .

أنتَ من أولئِكَ الذِينَ تَلقَّوْا العِلْمَ فِى بِلادِ الأَنْدَلُسِ ، ودَرَسُوا فى جامِعاتِها العَرَبِيَّةِ الكَبِيرَةِ ، فَتَشَبَّعْتَ بِآراءِ العَرَبِ وأَفكارِهِم ،

وحَفظْتَ الكَثيرَ من عُلومِهم وآدابِهم ، وامْتَزَجَتْ رُوحُكَ برُوحِهم ، فأحْبَبْتَهُم فيمَنْ أحَبُّوهم من الفرنْج ، وجئْتَ تَتَحدَّثُ عَنْهُم كأنَّك عَرَبىٌّ مِنْهُم ! ولو أنَّ عَرَبيًا خالِصًا قامَ يَتَحدَّثُ عَنْهُم ، ما قالَ أكْثَرَ مِمَّا قُلْتَ !! .

القُدْسُ أيُّها الأمِيرُ رُومانيَّةٌ اغْتَصَبَها العَرَبُ منَّا ، وسَوْفَ نُعيدُها إلَيْنا ، ونُعيدُ فِلَسْطِينَ والشَّرْقَ كُلَّه مَعَها ، فالأَبْنَاءُ الْبَررَةُ لاَ يَنْسَوْنَ مَجْدَ الآباءِ والأجْدادِ ، واذا اغْتُصِبَ مِنهُم ، فَلاَ يَسْكتُونَ حتَّى يُعيدوه إليْهِم ، ويَطرُدوا مِنْه مَنْ سَطَوْا عَلَيْه وسَلَبُوه .

ولَمْ يَدَعْه الأَمِيرُ يُتِمُّ كلامَه ، وصاحَ فِى سُخْرِيَةٍ شَديدَةٍ قائِلاً :

- ما أرانا إلاَّ بدأْنا الكَذِبَ!!

القُدْسُ أيُّها المَلِكُ عَرَبيَّةٌ لَحْمًا ودَمًا ، أنْشأَها العَرَبُ مِنْ قدِيمِ الزمانِ واسْتَقَرُّوا بِها ، وأقامُوا فيها حَضارَةً عَرَبِيَّةً عَرَفَها التَّاريخُ عَنْهُم ، لا يُنكِرُها غَيرُ من لاَ يعْتَرِفُونَ بالفَضْلِ لِذَوِيه ، ومَنْ يُخْفُونَ الحَقائِقَ ، لِيَسيرُوا فِى الظَّلامِ إلَى ما لَيْسَ لَهُم ، ويَسْلُبوا ما لا حَقَّ لهُمْ فِيه .

جَعَلَ الحاضِرونَ يَتَخاطَبونَ بِعُيونِهم الغَاضِبَةِ مِنْ كَلامِ الرَّجُلِ ، وهو يراهُمْ ولا يَهْتَمُّ بِهِم ، ماضِيًا فى حَدِيثِه ، يَقولُ فى شجاعَةٍ وثِقَةٍ :

- لاَ تُغَيِّروا الحَقَائِقَ أيُّها النَّاسُ ، مِنْ أجْلِ أَن تنالُوا ما لَيْسَ لكُمْ! واعْلَموا أنَّ أوَّلَ مَنْ جاءَ إلَى القُدْسِ ، واسْتَقَرَّ بِها واتَّخَذَها مَوْطنًا لَهُ ، قَبِيلَةٌ عَرَبيَّةٌ خَالِصَةُ العُروبَةِ ، خَرَجَتْ مِنْ جَزِيرَةِ العَرَبِ ، مُنْذُ أربعَةِ

آلاف منَ الأعوام قبْلَ الميلادِ ، وحطّتْ رحالَها هُناك ، حَوْلَ نَبع عَذْبٍ غزيزِ المِيَاه فوْقَ أحَدِ جبالِها .

وأقامُوا حَيْثُ نَزلُوا ، مَدينَةً سمَّوْها «أُور سالم » ، أى مَدينَةَ السَّلام ، شاعَ اسْمُها عَلى الألْسُنِ باسْم «أورشَلِيم» . وبَعْدَمَا استَقرُّوا أنشأُوا بِها حَضارَةً عرَفَتْها تِلْكَ الأيّامُ البَعِيدَةُ .

- حَضارَةٌ !!

- نَعَمْ أيُّها النّاسُ ، حَضارَةٌ أرْتقَوْا بِها عَنْ أزمانِهِم ، وَصنَعُوا بِها شَيْئًا جَديدًا ، كانَ فى تِلْكَ الأيَّام مَوْضعَ دَهْشَةٍ ، فَلَدى العَرَب اسْتِعْدادٌ فِطْرِيٌّ لِلإنْشَاءِ والتَّعْمِير ، وإقامَةِ المجْتَمعَاتِ الرَّاقِيَةِ الفاضِلَةِ . أيْنَما حَلوا هَزُّوا الأرْضَ وأَخرَجُوا ثَمَراتِها ، وجَدَّدُوا ، واخْتَرَعوا ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ كُلُّ الأماكِنِ الَّتى نَزلُوها .

ولَنْ نَذْهَبَ بَعِيدًا لإِثْبَاتِ موهِبَةِ العَرَبِ العَظِيمَة ، فالأندَلُس أَمامَكُم خيْرُ شاهِدٍ عَلَيْها ، ما إنْ فَتحوها حتَّى نقَلُوها من عالَم فاسِدٍ إلى عالَم صالح رَفِيعِ القَدرِ ، وآثارُهُم هُناكَ تَنْطِقُ بِما بَنَوْا وعمَّرُوا وجَدَّدوا ، على الرَّغْمِ مِمَّا صَنَعَ الفِرنْجُ بِكَثِيرٍ مِنْها مِنَ التَّدْمير والتَّخْرِيبِ .

وسَوْفَ يَشْتَدُّ عَجَبُكُم ، إذا عَلِمْتُم ، أَنَّ أُولئكَ اليَبُوسِيِّين العَرَبَ الَّذينَ أَقامُوا القُدْسَ ، قَدْ تَوصَّلُوا إلى اسْتِخْدَامِ المعَادنِ فى ذَلِكَ الزَّمنِ البَعيدِ .

- وبَعْدَ ذَلِكَ أَيُّها الأَميرُ الجَلِيلُ؟! .

- حَسَنًا ! حَسَنًا! بَدأْتُ أَسمعُ شَيْئًا يَستحِقُّ أنْ يُجابَ عَنْه ،

وأُحِسُّ بِشَىْءٍ مِنَ التَّيقُّظِ ، أرْجُو أن يَنْمُوَ ويَنْتَشِرَ ، فَهُوَ أنفعُ مِنَ الاندفاعِ الأعْمَى للتَّحطيمِ والتَّخْريبِ .

مَضَى التَّاريخُ أيُّها السَّادَةُ ، بأُولئكَ اليَبُوسيِّينَ العَرَبِ ، كما مَضَى بسواهم ، فَبَعْدَهُم جاءَ العَمُوريُّون إلَى «أُورْسالم» ، وهُمْ مِثْلُ اليَبُوسيِّينَ الكَنْعانيِّينَ ، قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ أقْبَلَتْ مِنْ شعاب جَزِيرَةِ العَرَبِ ، ومَدُّوا الحَضارَةَ الَّتى وَرِثُوها مِنْ إخْوانِهم ، وكانُوا أوّلَ مَنْ بَنَى سُورًا حَوْلَ القُدْسِ .

- ثُمَّ أيُّها العالِمُ الدَّارِسُ المُحقِّقُ! .

- ثُمَّ مَرَّ بالقُدْسِ الفُرْسُ ، والأغْريقُ ، وفَتَحَها الإسْكَنْدَرُ المَقْدُونِىُّ سَنَةَ ثَلثمائَةٍ وثَلاثِينَ قَبْلَ المِيلادِ ، وبَعْدَهُ بَطالِمَةُ مِصْرَ ، وبَعْدَهُم جاءَ دَوْرُ الرُّومانِ الَّذِينَ احْتَلُّوها وطَرَدوا كُلَّ مَنْ فِيها .

أرَأَيْتُم أيُّها السَّادَةُ ؟! .

صِلَةُ العَرَبِ بِالقُدْسِ قَدِيمَةٌ ، سَبَقَتْ دُخولَ المُسْلمينَ بَعْدَ الإسْلامِ ، فِى العامِ السَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِىِّ ، فَلَمْ يَكُنِ الفَتْحُ الإسْلامىُّ لَها ، غَيْرَ اسْتِرْدادٍ لِوَطَنٍ ، أزالَ عَنْه حُكْمَ الأجْنَبِىِّ الدَّخيلِ المُسْتَبِدِّ .

(٥)

انْفَجَرَ الكَثيرُ مِنَ الحاضِرِينَ ، يُحاولونَ إسْكاتَ الأمِيرِ ، وتَقَدَّمَ مِنْه بَعْضُهُم ، وجَعَلَ يُجاذِبُه ، ويَهُمُّ بِالاعْتِداءِ عَلَيْهِ ، فَحالَ البَعْضُ الآخَرُ بَيْنَهُم وبَيْنَه ، وصاحَ فِيهِم قائِلاً فِى شِدَّةٍ :

- اهْدأُوا أَيُّها النَّاسُ واسمَعوا ، فما لَنا لا نُريدُ أنْ نَعْرِفَ ما لَمْ نكُنْ نَعْرِفُ ؟ !

هذا الَّذى سَمِعْنا يُنيرُ عُقولَنا ، وهُوَ فى صالح الحَمْلَة الَّتى سَتَذْهَبُ إلَى الشَّرْق ، ومِنَ الضَّرورىِّ لِمَنْ يُريدُ أنْ يَمْلِكَ البِلادَ ، أنْ يَعْرِفَ كُلَّ شَىْءٍ عَنْها ، قَبْلَ أنْ يَدْخُلَها ، ويَتَورَّطَ فِى مَتاهاتٍ لاَ يَعْرِفُ مَداخِلَها ومَخارِجَها ، ولا يَدْرِى مِنْ أيْنَ تَأْتِيهِ الضَّرَباتُ القاصِمَةُ .

هذا الكلامُ أَيُّها القَوْمُ يُفيدُنا ولا يَضُرُّنا ، فاسْتَمِعُوا ولا تَنْساقُوا بِعَواطِفَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ خَطَرًا مِنَ الأَعْداءِ .

فَسكَتُوا على كُرْهٍ ، وعادَ الأَميرُ فى هُدُوءٍ :

- الحَقِيقَةُ أَيُّها السَّادَةُ مُرَّةٌ ، علَى مَنْ لاَ يَعْتَرِفُ بالحَقِّ ولاَ يُحِبُّ الصِّدْقَ ، والعِلْمُ الصَّادقُ لا يَعْرِفُ الكَذِبَ ، وهُوَ أَمانَةٌ فِى أَعْناقِ ذَوِيه ، وإذَا كانَ الحَقُّ يَخْتَفى عَنِ الأَعْيُنِ فِى أَوْقاتِ الظَّلامِ ، فَسَوْفَ يعُودُ مَعَ النُّورِ قَوِيًّا شامِخًا ، لأَنَّه لا يَموتُ أَبَدًا .

ثم اشتَدَّ صَوْتُه ، وهُوَ يَقولُ فِى تَأْكِيدٍ :

- القُدْسُ أَيُّها السَّادَةُ عَرَبِيَّةٌ لَحْمًا ودَمًا ، وإذا كانَتْ الأَيْدى الغاصِبَةُ قَدْ تَداوَلَتْها منْ يَدٍ إلَى يَدٍ ، فَلابُدَّ مِنْ أَنْ يَرْتَدَّ الْحَقُّ إلَى صاحِبِه ، مَهْما طالَتْ الأَيَّامُ وكَرَّتْ الأَعْوامُ .

فَلا تُغامِروا ، وتُلْقُوا بِأَنْفُسِكُمْ بَيْنَ المَخالِبِ الحادَّة ، الَّتى سَوفَ تَفْتَرِسُكُمْ ، ولاَ تَدَعُكُمْ تَعِيشُونَ فِى غابِها ، وإنْ امْتَدَّ بِكُم الزَّمَنُ .

ولَمَّا رَأى «بُوهْمنْدُ» ارْتياحَ البَعْضِ لِمَا سَمِعَ ، انْفجَرَ صائحًا يَقْطَعُ كَلامَ الأَميرِ ، ويَقولُ فِى غَضبٍ شَديد :

- أَلْقُوا أيُّها السَّادَةُ مِنْ رُءُوسِكُمْ كُلَّ ما دَخَلَهَا ، مِنَ القَوْلِ المُثَبِّطِ لِلهِمَمِ وهَيَّا إلَى القُدْسِ مَحَطِّ الآمالِ !

كُلُّ ما قَالَ الأَميرُ كَلامٌ لا فائدَةَ فيه ، وسَوْفَ يَنْدَمُ مُرَّ النَّدمِ على أنَّه لَمْ يَكُنْ مَعَنا ، ولاَ إخالُه إلاَّ سَيَلْحَقُ بِنا ، بَعْدَما يَرَى النَّجاحَ الباهرَ الذِى حَقَّقْناه .

ثم كانَتْ دَهْشَةُ الحاضِرينَ شَديدَةً ، قام رَجُلٌ آخَرُ ، يَقولُ فِى شَكٍّ مِنْ نَجاحِ الفِكْرَةِ :

- والعَرَبُ هُناكَ أَيُّها المَلِكُ ! كَيْفَ نَدْخُلُ عَلَيْهِمْ بِلادَهُم ، ونَحْنُ نَسْمَعُ أَنَّهُم يَتَوَكَّئُون عَلَى الرِّماحِ والسُّيوفِ لاَ عَلَى العِصِيِّ ؟ ! .

وهل يَرْضَى إمْبراطورُ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّةِ الشَّرْقيَّةِ البِيزَنْطيَّةِ ، وهو يَكْرَهُنَا ونَكْرَهُه ، أَنْ نَخْتَرِقَ أَرْضَه إلَى بِلادِ العَرَبِ ، أو يَسْمَحَ لِلْحَمْلَةِ بِأَنْ تَجْتازَ مَضيقَ البُسْفورِ ، وتَمْضِىَ إلَى الشَّرْقِ وتَفْتَحَه ؟ !

إنَّه لَنْ يَسْمَحَ بذلِكَ أبدًا ، خَوفًا مِنْ أَنْ يُؤكَلَ قَبْلَ أَنْ يُؤْكَلَ العَرَبُ ، وهُوَ ذُو مَطامعَ فِى تِلْكَ البلادِ ، لاَ تَقِلُّ عَنْ مَطامِعِنا ، ولَنْ يَرْضَى بِأَنْ نُشارِكَه فيها .

فَكَيْفَ تَثِقُونَ فى نَجاحِ الحَمْلَةِ مَعَ هذا كُلِّه ؟ ! ! .

إنَّها مُغامَرَةٌ لَيْستْ مَأْمونَةَ العواقِبِ ، وقَدْ نَبَّهَكُمْ إلَيْها الأميرُ العاقِلُ .
فَهَلْ تُفكِّرونَ ، قَبْلَ أَنْ تُلْقُوا بِأَنْفُسِكُمْ فِى أَفْواهِ الأُسودِ الباطِشَةِ ؟ ! ! .

مناقشة الفصل الأول

١ «انطلقت السفينة العربية الكبيرة مسرعة تشق مياه البحر الأبيض المتوسط العميقة، متجهة إلى الشمال، يملأ رءوس أصحابها خيال الربح الوفير، كما يملأ الهواء أشرعتها الواسعة فتدفعها بقوة وتقترب بها من جنوب بلاد أوربا»

(١) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايلى :

- «تدفعها» : مرادفها : (توجهها - تنشطها - تحركها)
- «أشرعة» : مفردها : (شرْع - شراع - شريعة)

(ب) لماذا اتجه تجار الشرق إلى أوربا ؟

(جـ) بالفقرة خيال وضحه ، وبين أثره فى المعنى

٢ «ولم يكن عجبا أن يدفع أولئك التجار ما طلب منهم من الأثمان الهائلة، فهم يعرفون أين يضعون أموالهم، ويشمون من بعيد رائحة الربح الذى سيدخل جيوبهم، يعلمون أنهم يشترون سلعة رائجة»

(١) ضع مرادف (الهائلة) ، ومضاد (رائجة) فى جملتين من عندك .

(ب) لِمَ وافق التجار على دفع الأثمان الهائلة المطلوبة منهم ؟

(جـ) ما سبب تهافت الفرنج على سلع بلاد الشرق ؟

٣ «فأرضهم قاحلة لا تنبت، وأيديهم معطلة لا تعمل، وأصوات سيوفهم لا تسكت، يحكمونها بينهم لأقل الأسباب ، فيتبارزون، ويقتل القوى منهم الضعيف، مفتخرا بقتله، جاعلا سفك دمه فروسية يتباهى بها»

(١) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايلى :

- (سَفْك دمه) : يقصد بها : (القدرة عليه - إراقة دمه - هزيمته)
- مضاد : «قاحلة» : (مورقة - خصبة - مثمرة)

(ب) تناولت العبارة بعض الصفات السيئة للفرنج . اذكرها .

(جـ) قارن بين فروسية الغرب ، وفروسية العرب من خلال العبارة السابقة .

(د) الأرض قاحلة ، والأيدى معطلة ، وأصوات السيوف لا تسكت . ما العلاقة بين الجمل الثلاث ؟

٤ «نوجه إلى تلك البلاد هذه الأعداد التى لا تحصى، من السراق والعصاة والمتعطلين، والمجرمين الذين تمتلئ بهم سجوننا، فيخوضون مع أهل الشرق معارك طاحنة، تهد قواهم، وتفنى الشرقيين»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- التعبير بـ «لاتحصى» : يوحى بـ (الكثرة - الشمول - التعدد)
- مضاد : (تهد) : (تحيى - تقوى - تبنى)

(ب) أين تجد التعصب الأعمى ، والحقد الدفين فى العبارة السابقة ؟

(جـ) ماذا أفاد ذكر الفئات الآتية :

السراق ، العصاة ، المتعطلين ، المجرمين؟

٥ «فهم يعرفون أن الاحتلال الاقتصادى، أقوى وأثبت أقداما من احتلال السلاح، وأشد تغلغلا فى البلاد التى تبتلى به، وأكثر قدرة على غلها بالأغلال التى تخضعها وتكتم أنفاسها، لكنهم مثل أولئك الأمراء، يبحثون عن الطريق الذى يوصلهم إليه»

(ا) ضع مرادف (تبتلى) ، ومفرد : (أغلال) فى جملتين من عندك .

(ب) ماذا تعرف عن الاحتلال الاقتصادى ؟

(جـ) بم تسلحت دول الشرق للخلاص من هذا المستعمر ؟

(د) وجد الفرنج أن الاحتلال الاقتصادى ، لابد أن تسبقه السيوف والدماء . فلماذا ؟

٦ «القدس أيها الأمراء ! القدس أيها الرفاق !

لفوا حجتكم حول القدس، وتخليصه من أيدى العرب، تبلغوا الأمانى، وتحققوا الأحلام»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لمايأتى :

- المراد بـ(لفوا) : (غلفوا - دوروا - موهوا)

- مفرد (الأحلام) : (الحليم - الحُلْم - الحِلْم)

(ب) لماذا اختاروا القدس ذريعة لتدخلهم فى شئوننا ؟ وما رأيك فى ذلك ؟

(جـ) «لفوا حجتكم حول القدس» بالعبارة السابقة خيال ، وضحه ، واذكر قيمته الفنية .

٧ «لم أجد أيها السادة أكرم من أولئك العرب، ولا أسمى أخلاقا، ولا أسخى يدا، فكيف تقولون عنهم ماتقولون، وتهمون أن تفعلوا ما تدبرون، ويأبى الله وبيته ماتريدون، فاحذروا من أن تشعلوا فى القدس نارا، تلتهمكم من قبل أن تحرقوا بها عباد الله الطيبين الآمنين !»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لمايلى :

- مفرد : (أخلاق) : (خليقة - خُلُق - خِلْقة)

- مرادف (تشعلوا) : (تضيئوا - تحرقوا - توقدوا)

(ب) وصف المتحدث العرب بعدة صفات . فما هى ؟

(جـ) من أى شىء حَذَّرَ المتحدث قومه ؟ ولماذا ؟



تآمر الأشرار

(١)



اتَّفقَ الأُمَراءُ مَعَ بُيوتِ الْمالِ ، ومَعَ رجالِ الدِّينِ ، عَلَى ما يُقَدِّمُ كُلٌّ مِنْهُم لِلحَمْلَةِ ، ولَم يَبْقَ أَمامَهم سِوَى إِمْبراطور الدَّوْلَة البيزَنْطِيَّة ، وإِقْناعه بِالمرُور فى بلاده ، ورأَوْا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَيْه وَفْدًا مِنْ كُبَرائِهِم ، يُؤَثِّرُ عَلَيه ، ويَعْرِضُ عليْه نَصيبًا مِنَ الغَنيمَة .

وكانَ ذَلكَ الأَمْبراطُورُ غارقًا إِلَى أُذُنَيْه ، فِى مِثْلِ ما يَغْرَقونَ فيه مِن الأَحْلام ، قَدْ جَنَّدَ جُيوشَه وأَغارَ عَلَى تِلْكَ البِلاد ، وانْتزَعَ بَعْضَها مِنْ أَيْدِى أَصْحابِها ، مُوهِمًا النَّاسَ بِأَنَّه قامَ يُحَرِّرُ القُدْسَ مِنَ العَرَبِ ، الَّذين يُفْسِدونَ فِيهِ كمَا يَدَّعِى .

وسارَ يَفْتَحُ ويُحَطِّمُ مُتَّجِهًا إِلَى القُدْسِ ، فَنَهَضَ إِلَيْه المُلوكُ السَّلاجِقَةُ المُسْلمونَ ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى غَرَضِه ، وهَزَمُوه هَزِيمَةً مُنْكَرَةً ، أَطارَت مِنْ رَأْسِه الأَحْلامَ ، وجَعَلَتْه يَلْطِمُ خَدَّيْه ، فَزِعًا مِنْ

سُقوط عاصِمَتِه القُسْطَنطينيَّة نَفْسها فِي أَيْدِيهم ، فَقَدْ لاحَقُوه بَعْدَ هزيمَتِه ، حَتَّى بَلَغوا أَسْوارَ هذه المَدينَةِ المَنيعـةِ ، وجَعَلوا يَدُقُّونَ أَبْوابَها بِحماسٍ شَديد .

فَلَمْ يَجِدْ - وقَدْ تَحَطَّمَتْ آمالُه على سُيوف المُسْلمين - إلاَّ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى أَعْدائه الرُّوم الغَرْبِيِّينَ ، ويَتَوَسَّلَ إِلَيْهِم أَنْ يُنْقذُوه ، مُتَناسِيًا العَداءَ القَديمَ ، سامِحًا لَهُم بِاخْتِراقِ بِلادِهِ ، باذِلاً لَهُم كُلَّ ما يَسْتَطِيعُ مِنْ مُساعَدَة .

وبَيْنَما كانَ أُولئكَ الأُمَراءُ ، يُفكِّرون فِي إِقْناعِه بالسَّماحِ لَهُم بِالمُرور فِي بِلادِه ، إِلَى الشَّام لاَ يُصدِّقُ الكَثيرُونَ مِنْهم أَنَّه سَيُوافِقُ عَلَيْه ، إذا بِرسالَتِه الحَزينَة ، تُقْبِلُ إِلَى «بُوهْمِنْدَ» ، يَصْرُخُ فيـها مِنَ المُسْلمينَ الَّذينَ قَضَوْا عَلَى جَيْشِه ، ورَدُّوه إِلَى العاصِمَةِ الخَائِفَةِ ، الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تَسْقُطَ فِي أَيْديهم .

ويَطْلُبُ مِنْهم أَنْ يُسْرِعوا إِلَيه بِجُيوشٍ جَرَّارَةٍ ، ويَضَعوا أَيْدِيَهُم فِي يَدِه ، لِيُخَلِّصُوا القُدْسَ والشَّرْقَ كُلَّه مِنَ العَرَبِ ، ويَقولُ فِي كَلِمات تَفِيضُ بِالخَوْفِ والهَمِّ : أَغِيثُونا أَيُّها الإِخْوَةُ الأَحِبَّاءُ ! .

القُسْطَنْطِينِيَّةُ فِي خَطَرٍ شَديد ، ولَيْسَ بَعْدَها سِوَى بِلادِكُم يَفْتَحُها العَرَبُ . فَلْنَنْسَ كُلَّ شَيْءٍ أَمَامَ ذَلِكَ العَدُوِّ المُشْتَرَك ، ولَكُمْ عِنْدِي ما تُحِبُّونَ مِنَ المالِ والرِّجال ، وسَوْفَ أَكُونُ أَمامَكُم بِسَيْفِي الجَديدِ ، الَّذِي سَيَمْتَلِئُ قُوَّةً بِنَجْدَتِكُم ، أَضَعُه فِي أَعْناقِ المُسْلِمِينَ وأُفْنِيهِم مَعَكُم .

فتهلَّلَ «بُوهْمنْدُ» ، وجَعلَ يرْقُصُ طَرَبًا ، شَديدَ الانْبساط لهذه الفُرْصَة العَظيمة الَّتى سَعَتْ إلَيْه ، قَدْ أَمْسَكَ بيَده سَيْفًا لامِعًا ، وجَعَلَ يَهُزُّه مَعَ حَرَكَاته الرَّاقصَة ، ويَقولُ لَهُ فى حُبور :

- اسْتَعدَّ يا سَيْفى العَزيزَ ، لتَخْطَفَ أَكْبرَ الرُّءُوسِ العَربيَّة وأَكْثَرَها ، وتَجْعَلَنى الأمْبراطورَ العَظيمَ ، الَّذى يَمْلكُ الشَّرْقَ كُلَّه ، ويَتَحَكَّمُ فى الرِّقَابِ والأَمْوال ، ويَمْشى عَلَى الذَّهَبِ واللُّؤْلُؤ ، تَسْجُدُ لَه الجِباهُ ، ويُلَبِّى أَوامرَهُ أَقْوَى الأَقْوياء .

ثُمَّ قَرَّبَه منْ فَمه ، وجَعَلَ يُقَبِّلُه ويَحْتَضنُه ، ويَقولُ لَهُ فى نَشْوَة : أَنْتَ حَبيبى ، ومُنْقذى ، ورافعُ قَدْرى ، ومُنيلى أَمَلى ! . ثُمَّ الْتَفَتَ فرَأَى المَلكَةَ واقفَةً أَمامَهُ ، تَنْظُرُ إلَيْه فى عَجَبٍ ، وتَقولُ بوَجْهٍ ساخرٍ :

- ما هذا أيُّها المَلكُ الهُمامُ ؟ ! .

كلُّ هذا للسَّيْف ! وأَيْنَ المَلكَةُ ؟ ! وماذا أَبْقَيْتَ لهَا ؟ !

فَارْتَبَكَ ارْتباكًا شَديدًا ، وأَسْرَعَ يَتَخَلَّصُ منَ الحَرَج ، واصلاً كَلامَه ، قائلاً : ومنْ أَجْلِ المَلكَة العَظيمَة ، طَبَعْتُ هذه القُبُلات على خَدِّكَ أَيُّها السَّيْفُ الضَّاحكُ ، ومنْ أَجْلها كانَتْ تلْكَ الأَحْضانُ . منْ أَجْلِ الجَواهرِ والدُّرَرِ الَّتى سَتَزيدُها المَلكَةُ حَلاوَةً بلُبْسـها إيَّاها ، والكُنوزِ الهائلَة الَّتى سَتُفْرحُها ، والمَجْد الرَّفيع الَّذى سَتُصْبحُ فيه .

كُنْتُ أَحْلُمُ بعَظَمَة صاحبَة الجلالَة ، وهىَ هُناكَ فى هَوْدَجٍ كَبيرٍ ، عَلَى ظَهْرِ فيلٍ منْ أَضْخَمِ الأَفْيال ، يَمْشى بها مُتَبَخْترًا ، وبجَانبِها

جوارى الشرق الفاتنات ، بأيديهن المظلات الرقيقة المزخرفة ، يحجبن بها الشمس عنها ، ويلطفن حرارة الجو بمراوح ريش النعام الزاهية الألوان ، وبقصصهن المشبعة ، وأصواتهن الرقيقة ، ومعازفهن التى تعرف ألحان الشرق ، الهادئة مثل هدوئه ، الدافئة مثل دفئه ، الحالمة مثل ما فيه من الجمال الحالم .

فابتسمت الملكة ، ومدت عينيها بعيدًا ، وهو يقول فى بشاشة :

- أوشكنا أيتها الملكة السعيدة أن نملك الشرق ، ونمرح فى جناته ، نصنع مثل أولئك الذين تمتلئ آذاننا بقصص غناهم ومتعهم ، ولياليهم وأيامهم ، فاستعدى ، فقد آن الأوان لنترك الثلج والبرد والآلام القاتلة ، إلى أرض الأمانى والأحلام .

قالت ، وهى تنظر إلى جانب من الجوانب فى دهشة :

- وما هذه الكومة الضخمة من السيوف؟ ! أتضرب بها كلها ؟ ! .

- نعم يا عزيزتى ، فليس كفاح العرب بالشىء الهين ، كما نقول للبلهاء ، فالمهمة صعبة ، ستدق فيها سيوف وسيوف ، وتطير فيها رءوس ورءوس ! .

قالت الملكة فى خوف شديد :

- إنكم أيها الملك تعتمدون على تفرق العرب ، وتنازعهم ، وتشتت قواهم ، وفقدانهم البطل الذى يقودهم .

وأخشى أن يطول الوقت بكم ، دون أن تبلغوا منهم ما تريدون ،



فتنبت أرضهم بطلاً جديدًا قويًا ، يجمع شملهم ، ويوحد قوتهم ، ويسرع إليكم بجموعهم ويقضى عليكم .

فكر طويلاً أيها الملك ، قبل أن تلاقوهم ، وترجعوا من لقائهم بغير شىء ، أو لا ..

وسكتت ، فاحمر وجهه ، وقال مشجعًا نفسه :

- أتمى ! أتمى ! !

أو لا نرجع أبدًا ! أتريدين هذا ؟ ! .

اطمئنى يا عزيزتى ، فسوف لا نرجع حقيقة ، لأننا سنفتح تلك البلاد ، ونستقر بها ، ونقيم فيها ملكًا كبيرًا ، لا ينتزع أبدًا ، وستظهر لك الأيام صدق ما أقول .

(٢)

طير «بوهمند» خبر موافقة الأمبراطور البيزنطى فى جميع النواحى ، فنشط الدعاة يصرخون فى الناس بالكذب الذى اتفقوا عليه ، يحرضونهم على النهوض لإنقاذ القدس من يد العرب ، وبكوا بدموع التماسيح ، ولطموا الخدود وشقوا الجيوب ، فثارت النفوس سخطًا على ذلك العدوان الذى لم يروه ، وطمعًا فى الجنات الواسعة ، التى وعدوا بها ، إن قتلوا أنفسهم فى سبيل القدس المستغيث .

وأَسْرَعَ المُتطَوِّعونَ مِنْ كُلِّ المُقاطَعاتِ يَتجَمَّعُونَ ، ويَسْتَعِدُّونَ للسَّيْرِ إلى بلادِ الشَّرقِ ، مِنْ عامَّةِ النَّاسِ ، ومِنْ فُرسانٍ ، وأَشْرافٍ ، ورجالِ دينٍ ، مَمْلوئي الصُّدورِ بالآمالِ العَريضَةِ في النَّصْرِ ، يَتزَعَّمُهُمْ بَعْضُ الأُمَراءِ ، عَلَى رأْسِهِمِ «بُوهِمُنْدُ» مَلِكُ جَنُوبِ إيطالْيا ، و «رِيمُونْدُ» دُوقُ طُولوزَ بِجَنُوبِ فَرَنْسا ، و «جُودِفرِي» دُوقُ اللُّورينِ الوُسْطَى .

واتَّفَقوا عَلَى أنْ يَلْتَقُوا في القُسْطَنْطِينيَّةِ ، ومِنْ هُناكَ يَبْدَأُونَ زَحْفَهُمْ[1] عَلَى بِلادِ العَرَبِ واحْتِلالِها .

وفي ظِلِّ العامِ التَّاسِعِ والتِّسْعِينَ بَعْدَ الأَلْفِ مِنَ المِيلادِ ، تَحرَّكَتْ الجُمُوعُ الهائِلَةُ ، رِجالاً ونِساءً وأَطْفالاً ، شِيبًا وشُبَّانًا ، ثُمَّ انْقَسَموا شَطْرَيْنِ ، شَطْرٌ مِنْهُما يَضُمُّ العامَّةَ ، الَّذينَ أَسْرَعَ أَكْثَرُهُم بالسيْرِ جَرْيًا عَلَى أَقْدامِهِم ، فِرارًا مِنَ الجُوعِ القاتِلِ .

ولَمْ يَكونُوا سِوَى شَوارِدَ[2] ، لاصِلَةَ لَهُم بِعِلْمٍ ، ولاَ مَعْرِفَةٍ ، ولاَ دِينٍ ، يَجْهَلُونَ أَبْسَطَ مَبادِئِ الحَرْبِ وأَنْظِمَتِها . فَسارُوا فِي وُجُوهِهِم ، يَكْتَسِحونَ ما أَمامَهُم ويَحْصُدُونَه حَصْدًا ، كَأَنَّهُم الجَرادُ المُنْتَشِرُ ، يَأْكُلُ الأَخْضَرَ والْيابِسَ ، ولاَ يُبْقِي خَلْفَه شَيْئًا مِنْ آثارِ الحَياةِ .

لَيْسَ فِي صُدورِهِم سِوَى أَحْلامِ الشِّبَعِ والرِّيِّ ، دونَ أَنْ يُقِيمُوا لِلْكَرامَةِ وَزْنًا أَوْ يَعْرِفُوا لِلإِنسانيَّةِ طَعْمًا ، أَوْ يَحْسِبُوا لأَحَدٍ حِسابًا .

---

(١) زحفهم : مشيهم فى ثقل لكثرتهم .

(٢) شوارد : جمع شارد : وهو من يتطلع إلى غير ما له من متاع .

فَأتَوْا مِنَ السَّلْبِ ، والنَّهْبِ ، والتَّعْذِيبِ ، والقَتْلِ ، ما يُفَتِّتُ القُلوبَ ، ويُذِيبُ الأكْبادَ .

اندفعوا صارِخِينَ بِاسْمِ القُدْسِ الَّذى حَفِظُوه ، وهُمْ لا يَعْرِفونَ ما القُدْسُ ، ولا يَدْرُونَ مَعْنًى لِتَخْلِيصه ، إلاَّ أَنْ يَكونَ هُناكَ طَعامٌ يَرُدُّ الجُوعَ ، وشَرابٌ يُرْوِى الظَّمأَ إنْ عاشُوا ، أَوْ غُفْرانٌ لِجَميعِ ذُنوبِهِم إنْ ماتُوا ، كَما أَفْهَمَهُمُ الدُّعاةُ وأَكَّدُوا لَهُم .

مَضَوْا فِى اكْتِساحِهِمْ المُدَمِّرِ ، يُحَطِّمُونَ البِلادَ ، وَينالُونَ مِنْ أَهْلِها ما يَشاءُونَ ، حَتَّى بَلَغُوا آسْيَا الصُّغْرَى ، فَإذا بِأحْلامِهم تَطِيرُ مِنْ رُءُوسِهِم ، صارِخَةً مِنَ الهَوْلِ الَّذى لَمْ تَكُنْ تَتَوَقَّعُه أَوْ تُفَكِّرُ فيه .

فَقَدْ وجَدُوا أَمامَهُم جَيْشًا ضَخْمًا مِنَ السَّلاجِقَةِ المُسْلِمِينَ ، يُهاجِمُهُم ويُحَوِّلُهم قِطَعًا مُمَزَّقَةً ، مُلْقاةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِى وُعِدُوا بِامْتِلاكِها ، ووَضْعِ أَيْدِيهِمْ عَلَى كُنوزِها .

أَمَّا الشَّطْرُ الآخَرُ مِنْ هذه الحَمْلَةِ الغاشِمَةِ ، فَكانَ يَتَأَلَّفُ مِنَ الأُمَراءِ ومَنْ يَتْبَعُهم مِنَ الفُرْسانِ ، مِمَّنْ يُجِيدُون النِّزالَ والضَّرْبَ والطِّعانَ ، يَقُودُهُم أُولئِكَ الأُمَراءُ الطَّامِعُون .

أَقْبَلُوا يَهْتِفُون هُتافاتِ العَداءِ لِلْعَرَبِ ، مُسْرِعِينَ إلَى الدُّنْيا الجَدِيدَةِ الَّتى يَحْلُمُونَ بِها ، عازِمِينَ عَلَى امْتِلاكِها ، مَهْما يُصادِفُهُمْ مِنْ عَقَباتٍ ، أَوْ يَقِفُ فِى طَرِيقِهِم مِنْ صِعابٍ .

أَخَذُوا يَتَوافَدُون عَلَى القُسْطَنْطِينيَّةِ ، جَماعاتٍ جَماعاتٍ ، حَتَّى بَلَغُوا مِائَةَ أَلْفِ فارِسٍ ، وسِتَّمائَةِ أَلْفٍ مِنَ المُشَاةِ ، عَدَا النِّساءِ والأَطْفالِ ،

فَقامَ فيهِم قُوّادُهم يَخْطُبونَهم ، ويَحُثُّونَهم عَلَى الثَّباتِ والصَّبْرِ ، ويُهَوِّنُونَ عليْهِم شَأْنَ العَرَبِ ، ويَضْرِبونَ لَهُم على نَغْمَةِ التَّنازُعِ والتَّفَرُّقِ ، وما يَجُرُّ الخِلافُ علَى أَصْحابه مِنَ الضَّعْفِ والوَهْنِ ، ويُؤَكِّدونَ لَهُم ما يَعيشُ فيه العَرَبُ مِنَ هذه الفُرْقَةِ القاتِلَة ، ويَدْفَعونَهم بِقُوةٍ إِلَى الإِسْراعِ باقْتِحامِ تِلْكَ البِلادِ ، قَبْلَ أَنْ يَصْحُوَ العَرَبُ مِنْ نَوْمِهِم ، ويَتَنَبَّهوا إِلَى خَطَرِهِم .

قالَ هذا ، وقالَ ذاكَ ، وبَكى هذا ، وبَكَى ذَاكَ ، حَتَّى اكْتَمَلَتْ جُمُوعُهُم ، فَعَبَروا مَضيقَ البُسْفُورِ ، وتَقَدَّمُوا فى بِلادِ الأَناضُولِ .

(٣)

لَمْ يَكُنْ هؤُلاءِ الغُزاةُ فِى تَقَدُّمِهِم ، أَقَلَّ بَشاعَةً مِنْ إِخوانِهِمُ الَّذين سَبَقُوهُمْ ، فَأَتَوْا مِثْلَ ما أَتَى أُولَئِكَ وأَشْنَعَ مِنْه .

وكُلَّما تَحَرَّكَتِ النَّخْوَةُ فِى صَدْرِ أَحَدِهم ، وتَذَكَّرَ ما تُنادى به أُصولُ الفُروسيَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، والعِفَّةِ ، والشَّهامَةِ ، والكَرامَةِ ، هَدَّدَهُ «بُوهِمَنْدُ» بِالقَتْلِ والتَّقْطِيعِ ، وصاحَ فِيه وفِى غَيْرِه ، يَقولُ فِى شِدَّةٍ مِنَ الغَضَبِ :

- لَيْسَ هذا يَوْمَ كَرامَةٍ ، ولاَ شَهامَةٍ ، ولاَ رَحْمَةٍ ، ولاَ شَفَقَةٍ ، ولاَ عِفَّةٍ ، بَلْ يَوْمَ الدِّماءِ ، والقَتْلِ ، والإِفْناءِ .

أَلْقُوا الفُروسِيَّةَ وشَهامَتَها وَراءَ ظُهورِكُمْ ، ودُوسُوها بِأَقْدامِكُمْ ، وحَطِّمُوا ، وأَبِيدُوا ، وفَزِّعوا . تُزيحُوا مَنْ تَقْدِرُون عَلَيه مِنْ أَمامِكُم ،

وتُطيرُوا قُلوبَ مَنْ لَمْ تَبْلُغوهُم ، فَتضْعُفَ أَيْديهِم عَنْ حَمْلِ السِّلاحِ ، وتُبْطِئَ أَرْجُلُهُم عَنِ السَّيْرِ إِلَيْكُم .

اقْذِفُوا الرُّعْبَ فِي القُلوبِ بِأَعْمالِكُمُ الفَظِيعَةِ ، يُغْنِكُم ذلكَ الرُّعْبُ عَنْ كَثيرٍ مِنَ السُّيوفِ والرِّماحِ والسِّهامِ ، فَهُوَ أَقْوَى مِنْها ضَرْبَةً وأَشَدُّ فَتْكًا .

ثُمَّ يَزيدُ صُراخًا وانْتِفاضًا ، وهُوَ يَقولُ فِي شِدَّةٍ :

- أَبِيدُوا أَيُّها الأَبْطالُ مِنَ الْعَرَبِ ، مَنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تُبِيدُوهُم ، يَأْتِكُمْ سِواهُم ، مِمَّنِ انْخَلَعَتْ قُلوبُهم بِوَحْشِيَّتِكُمْ ، يَرْجُونَ رَحْمَتَكُمْ ، ويَبْذُلُونَ الكَثيرَ لَكُمْ ، ثَمَنًا لِكَفِّ أَيْدِيكُم عَنْهُم .

تَشَجَّعوا ، ولاَ تُلْقُوا بالاً لأُولئِكَ الجُبَناءِ الَّذينَ سَبَقُوكُمْ ، والتَهَمَتْهُمْ سُيُوفُ الْمُسْلِمينَ فِي ساعَةٍ مِنْ نَهارٍ ، فَلَمْ يَكونُوا فُرسانًا مِثْلَكُم ، مُدَرَّبِينَ عَلَى النِّزالِ والقِتالِ ، ولْيَكُنْ أَخْذُهُم دافِعًا لَكُمْ عَلَى الْمُضِيِّ بِقُوَّةٍ إِلَى قَصْدِكُمْ ، لا دافِعًا إِلَى الْخَوْفِ والتَّراجُعِ ، فَقَدْ كانُوا حَشَراتٍ داسَتْها النِّعالُ ، وكُنْتُ أَتَوَقَّعُ لَهُم ذلِكَ الْمَصيرَ .

وعَلَى أَيِّ حالٍ ، فَقَدِ اخْتَبَرْنا بِهِمُ الطَّريقَ ، وعَرَفْنا أَنَّه لَيْسَ مُمَهَّدًا ناعِمًا مَمْلُوءًا بِالوُرودِ ، وتَأَكَّدْنا أَنَّه طَرِيقٌ صَخْرِيٌّ وَعْرٌ مَلِيءٌ بِالأَشْواكِ .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى قُوَّادِه بِوَجْهٍ جامِدٍ ، وأَلْقَى أَمْرَه بِالْمَسيرِ ، فانْدَفَعُوا بِجُمُوعِهِم فِي ذلِكَ الزَّحْفِ المدمرِ ، يَحْصُدونَ الرُّءُوسَ ويَكْتُمونَ الأَنْفاسَ ، حَتَّى بَلَغُوا مَدِينَةَ «الرُّها» العامِرَةَ الْمُحَصَّنَةَ ، فَلَمْ تُفِدْ مَعَهُم

مُقاومَةُ حاميَتِها الباسلَةِ ، ودكُّوا أَسْوارَها القَويَّةَ ، ودَخَلوها واسْتَوْلَوْا عَلَيْها ، وأَقامُوا بِها الإمارَةَ الفِرنْجيَّةَ الأُولَى ، بَعْدَ ما أَتَوْا مِنَ التَّخْريبِ ، والتَّدْميرِ ، والقَتْلِ بالسَّيْفِ ، والإِحْراقِ بِالنَّارِ ، ما يُفَتِّتُ الأَكْبادَ .

وأخذ «بُوهِمنْد» يُؤَكِّدُ لَهُم أنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا بَعْدَ ذلكَ ، إلاَّ مُقاوَمَةً ضَعيفَةً لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَنْهارَ ، ويُحاوِلُ أَنْ يَمْحُوَ مِنْ قُلُوبِهِم مَا دَخَلَها مِنْ هَيْبَةِ الْعَرَبِ والخَوْفِ مِنْهم ، وما يَتَرَدَّدُ عَلَى الأَفْواهِ مِنْ أَنَّهم إذَا كانُوا قَدْ نَجَحوا ، فَهُمْ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ ، لا يَعْرِفونَ ما بَعْدَه ، ولا يَدْرُون ماهُمْ إِلَى الآنَ صائِرونَ إِلَيْه .

ثم التَفَتَ إِلَى المَلِكَةِ ، ومَنْ حَوْلَها مِنَ المَلِكَاتِ والأَمِيراتِ ، وقالَ باسِمًا :

- سَتُتَوَّجْنَ كُلُّكُنَّ عَلَى مَمالِكَ واسِعَة ، ومَنْ لا تُعْجِبُها مَمْلَكَةٌ مِنْها ، فَلْتَخْتَرْ غَيْرَها ، فَبَعْدَما نُخَلِّصُ القُدْسَ ، ونُثَبِّتُ فيه أَقْدامَنا ، سَنَمْضِي مُسْرِعِينَ فِي هذه الأَرْضِ ، الَّتِي خَلَعْنا قُلُوبَ أَصْحابِها ، ولَمْ يَعودُوا قادِرِينَ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا سُيُوفًا ، أو يُحَرِّكُوا رِماحًا ، أَوْ يُلْقُوا سِهامًا ، ولَنْ نَهْدَأَ حَتَّى نَفْتَحَ الشَّرْقَ كُلَّه !

ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى القُوَّادِ والجُنودِ ، وقالَ يَبْعَثُ فِيهِم حَماسَةً أَشَدَّ :

- العَمَلُ أَيُّها الأَبْطالُ أَساسُ المُكافَأَة والتَّرْقِيَة ، وعَلَى مِقْدارِ الرُّءُوسِ ، الَّتِي سَتُطِيرُها السُّيوفُ مِنْ فَوْقِ أَكْتافِ الْعَرَبِ ، سَوْفَ تَكُونُ قِيمَةُ المِنْحَةِ ، فَهَيَّا بِشَجاعَةٍ وعَزْمٍ ، نُتِمُّ الأَمانِيَ ونُحَقِّقُ الأَحْلامَ .

(٤)

أَشْرَقَ النَّهارُ عَلَى أُولئِكَ القساة ، يَخْتَرِقونَ البِلادَ ، يَقْتُلونَ ويُخَرِّبونَ ويُدَمِّرونَ ، ويَمْحونَ المُدُنَ والقُرَى مِنْ أَساسِها ، مُسْرِعِينَ إِلَى القُدْسِ ، حَتَّى بَلَغُوا «أَنْطاكِيَةَ» ، فَوَقَفوا أمامها ، فِى ذُهُول مِنْ سُورِها الضَّخْم وحُصونِها القَوِيَّة ، وأَهْلِها الَّذينَ اسْتَعَدُّوا لَهُم ، لَمْ يُخِفْهُم ما بَلَغَهُم مِنَ الجَرائِمِ البَشِعَةِ ، الَّتِى ارْتَكَبَها أُولئِكَ الغُزاةُ ، والرُّعْبِ الَّذِى نَشَرُوه .

ولَمَّا لَمْ يَجِدِ الفِرِنْجُ لَدَى الْعَرَبِ أَقَلَّ أَمَلٍ فِى التَّسْلِيم ، اشْتَدَّ غَضَبُهُم ، وأَسْرَعُوا يَدُورُونَ حَوْلَ السُّورِ الضَّخْم ، يَبْحَثونَ فيه عَنْ مَنْفَذٍ يَدْخُلونَ منْه ، فَلَمْ يَهْتَدُوا ، فَلَجَئُوا إِلَى الخِسَّة[1] ، وجَعَلُوا يُعَذِّبُونَ بَعْضَ مَنِ اقْتَنَصُوهُم مِنْ أَهْلِها ، لِيَدُلُّوهُم عَلَى ثُغْرَة ، أَوْ يُرْشِدوهُم إِلَى طَرِيق ، فَلَمْ يَصِلُوا مِنْهُم إِلَى شَىْء ، فَدَبَّ الخَوْفُ فِى قُلوبِ القُوَّاد ، ولَمْ يَكُنْ «بُوهِمُنْدُ» أَقَلَّ مِنْهُم خَوْفًا ، فَصاحَ فِيهِم مُحَذِّرًا ، وجَعَلَ يَقُولُ لَهُمْ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ :

- تنبَّهوا ! . تيقَّظوا ! .

دَخَلْنا مَناطِقَ الخَطَرِ ، ويَظْهَرُ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ سَهْلاً كَما تَوَقَّعْنا ، بَعْدَما حَقَّقْنا نَصْرًا هَزِيلاً عَلَى غَيْرِ هذه المَدِينَةِ ! .

ثُمَّ أَحَسَّ بِأَنَّ كَلامَه سَيُلْقِى الرُّعْبَ فِى القُلوبِ ، بَدلاً مِنْ أَنْ يُقَوِّيها ، فَغَيَّرَ لَهْجَتَهُ ، وجَعَلَ يَقولُ مُشَجِّعًا :

---

(١) الخسّة : الحقارة .

- لكنَّ ما أَلْقَيْنا مِنَ الفَزَعِ فِى الصُّدورِ ، لَنْ يَذْهَبَ أَثَرُه سَرِيعًا ، فَهَيَّا نَنْتَهِزْه ، ونَخُضْ مَعْرَكَةً حاسِمةً مَعَ هؤلاءِ ، نَدُكُّ بِها مَدِينَتَهُم ، ونَخْلَعُ بِها قُلوبَ مَنْ بَعْدَهُم .

انْصِبُوا المَجانيقَ[1] الباطِشَةَ ، واضْرِبُوا هذا السُّورَ المُسْتَعْصِىَ ، واهْدِمُوه عَلَى رُءُوسِ أُولئِكَ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم سَيَسْتَمِرُّونَ فِى الدِّفاعِ مِنْ خَلْفِهِ ، ويَحْسَبونَ أَنَّنا سَنَضْعُفُ أَمامَ صُمودِهِم .

فَانْهالَتِ القَذائِفُ الثَّقِيلَةُ عَلَى السُّورِ وأَبْراجِهِ ، ودَكَّتْها دَكًّا ، ودَخَلَ أُولئِكَ الغُزاةُ المَدِينَةَ ، وانْطَلَقُوا فِى جَوانِبِها ، يَخْلَعونَ الرُّءُوسَ .

ثُمَّ جَلَسَ «بُوهِمُنْد» فى مَجْلِسِه ، والْبِشْرُ يَمْلأُ وَجْهَه ، يَشْكُرُ جُنودَه عَلَى ما عَمِلوا مِنْ ذلِكَ الإجْرامِ ، ويَحُثُّهُم عَلَى الإسْراعِ بِإِتْمامِ المُهِمَّةِ ، ويَطْرُدُ مِنْ قُلوبِهِم ما قَدْ أَصابَ بَعْضَها مِنَ الخَوْفِ ، ويَقولُ لَهُم : مَزِيدًا مِنَ الدِّماءِ الجارِيَةِ ، والأَجْسادِ المُمَزَّقَةِ .

لاَ رَحْمَةَ ولا شَفَقَةَ ، حَتَّى نَقْضِىَ عَلَى الْعَرَبِ جَمِيعًا ، ونَسْتَرِيحَ مِنْ شَرِّهِمْ .

وطَلَبَ الأَسْرَى لِيَتَخَلَّصَ مِنْهم ، قَبْلَ أَنْ يَمْضُوا إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى ، فَأَسْرَعَ الجُنودُ بِهِم ، يَجُرُّونَهُمْ فِى القُيودِ عَلَى وجُوهِهِم ، شَدِيدِى السُّرورِ بِمَنْ لا يَقْوَى عَلَى جَذْبِهِم ، فَيَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ وتَزْهَقُ رُوحُه ، يُصَفِّقُونَ ويُهَلِّلون ، وهُم يَقْذِفون بِجُثَّتِه بَعِيدًا عَنْ قِطارِ الأَسْرَى .

---

(١) المجانيق : مفردها : المنجنيق ، وهى آلة قديمة ترمى بها الحجارة فى الحرب .

كـانُوا يَظُنُّونَ «بُوهِمُنْدَ» سَيَـقْطَعُ رِقـابَ الأَسْرَى ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، وبَدا لَه أَنْ يَنْتَفع بِهِم ، وجَعَلَ يَصِيحُ فِى لَهْفَة قَائلاً : المالُ ! المالُ ! فلنحولْ هؤلاء الأسرى إِلَى مالٍ ، فَما جِئْنا إلاَّ مِنْ أَجْلِه !

اعْرِضُوهُمْ علَىَّ واحِدًا لأَخْتارَ .

وجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى أَوَّلِ مَنْ قُدِّمَ إِلَيْهِ ويَتَـأَمَّلُه ، ثُمَّ صاحَ فِى سُرورٍ قائِلاً :

- حَسَنًا ! حَسَنًا ! هذا فَتًى جَمِيلٌ قَوِىٌّ ! سِلْعَةٌ عَظِيمَةٌ تَجْلِبُ مالاً كَثِيرًا ! احْتَفِظُوا بِه ، رَقِيقًا يُباعُ فِى الأَسواقِ !

وهذا ؟ ! ! .

يا لَلسَّماء ! ! . عَجوزٌ لا يَنْفَعُ شَيْئًا ، لا يُباعُ ولا يُشْتَرَى ، ولَنْ نُقَدِّمَ لَه طَعامًا ولا شَرابًا . اقْتُلوه .

ثُمَّ انْتَفَضَ واقِفًا ، بارِقَ العَيْنَيْنِ ، مُتَرَجْرِجَ الشَّفَتَيْنِ ، يَقولُ فى ذُهُولٍ :

- جَمِيلَةٌ ! ! جَمِيلَةٌ ! ! رائِعَةٌ ! ! رائِعَةٌ ! ! .

سَوْفَ تَجِىءُ لَنا بِثَمَنٍ ضَخْمٍ! جَارِيَةٌ فاتِنَةٌ ، يَكْثُرُ علَيها الطَّلَبُ ، ويُدْفَعُ فِيها الثَّمَنُ الكَبِيرُ! واحِدَةٌ مِمَّن سَمِعْنا عَنْهُنَّ مِن فاتِناتِ الشَّرْقِ! .

لاَ! . لاَ! .

أبْقُوها جارِيَةً تُبْهِجُ قَصْرِى ، وتَبْعَثُ النُّورَ فِى جَوانِبِه .

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى المَلِكَةِ ، الَّتِى بَدا عَلَيْها شَىْءٌ مِنَ الغَيْرَةِ ، وقال يَتَدارَكُ كَلامَه :

- عَبْدَةً مِنْ عَبِيدِ القَصْرِ .

سَتَكُونُ جارِيَتَكِ أَيَّتُها المَلِكَةُ الجَمِيلَةُ . اخْتَرْتُها لَكِ ، وسَأَخْتارُ لَكِ الكَثِيرَ مِنْ أَمْثالِها ، لأَراكِ ، وهُنَّ حَوْلَكِ زَهَراتٍ جَمِيلاتٍ ، وأَنْتِ بَيْنَهُنَّ أَحْلَى مِنْهُنَّ ، مِثْلَ ما سَمِعْنا عَنْ جَوارِى قُصُورِ الشَّرقِ ، ومَلِكاتِه الفاتِناتِ السَّاحِراتِ .

ولَمَّا انْتَهَى مِنْ إِجْرامِه ، انْتَخَبُوه أَمِيرًا عَلَى هذه المَدِينَةِ ، وأَقامُوا بِها وَقْتًا ، يَرْقُصُونَ ويُغَنُّونَ ، ويَجْمَعُونَ الأَسْلابَ ، ويُحْرِقُونَ المَكْتَباتِ ، ويَهْدِمُونَ المَساجِدَ ، ويُزِيلُونَ كُلَّ أَثَرٍ لِلْحَضارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الزَّاهِيَةِ .

وبَعْدَ ما عَبَثُوا بِكُلِّ ما وجَدُوا مِنَ الآثارِ الإِسْلامِيَّةِ ، ذاتِ القِيمَةِ الكَبِيرَةِ ، اتَّجَهوا بِجُمُوعِهِم إِلَى مَقْصِدِهِم ، الَّذِى ادَّعَوْا أَنَّهُم جاءُوا مِنْ أَجْلِه ، مُهَدِّدِينَ ، يَصِيحُونَ بِأَصْواتٍ عالِيَةٍ :

- القُدْسُ ! . القُدْسُ ! .

الوَيْلُ لِلْعَرَبِ مِنْ سُيُوفِ الإِفْرِنْجِ الباطِشَةِ ! .

مناقشة الفصل الثانى

١ «اتفق الأمراء مع بيوت المال، ومع رجال الدين، على مايقدم كل منهم للحملة، ولم يبق أمامهم سوى إمبراطور الدولة البيزنطية، وإقناعه بالمرور فى بلاده...»

(أ) ما موقف إمبراطور الدولة البيزنطية من الأمراء ؟

(ب) ما نوع الأسلوب الآتى ؟ وما غرضه البلاغى ؟

«لم يبق أمامهم سوى إمبراطور الدولة البيزنطية »

(جـ) «واجه الإمبراطور البيزنطى ملوك السلاجقة المسلمين»

اذكر نتيجة هذه المواجهة ، وبين ما تدل عليه .

(د) إلى من لجأ إمبراطور الدولة البيزنطية بعد هزيمة المسلمين له؟ وماذا طلب منهم ؟

٢ «تأتى الرياح بما لا يشتهى السُّفِن» إلى أى مدى تنطبق المقولة على «بوهمند» ؟

٣ «أغيثونا أيها الإخوة الأحباء»: من المستغيث ؟ ومن المستغاث به؟

٤ «ثم قربه من فمه، وجعل يقبله ويحتضنه، ويقول له فى نشوة: أنت حبيبى، ومنقذى، ورافع قدرى، ومنيلى أملى !»

(أ) اختر الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- معنى «نشوة» : (فرحة - لهفة - غبطة - سعادة)

- جمع «قَدْر» : (أقدار - قدور - قدرات - قُدُر)

(ب) ما الذى قربه المتحدث من فمه ؟ وهل يستحق ما ذكره عنه؟

(جـ) ما قيمة التعبير باسم الفاعل : منقذ ، رافع ، منيل ؟

٥ **«فليس كفاح العرب بالشىء الهين كما نقول للبلهاء، فالمهمة صعبة، ستدق فيها سيوف وسيوف، وتطير فيها رءوس ورءوس!»**

(أ) ما مفرد «البلهاء» ؟ وما مضاد «الهين» ؟

(ب) ما قيمة استخدام لفظة «البلهاء» هنا ؟

(جـ) ما رأيك فى اعتراف «بوهمند» تجاه العرب ؟

٦ **«ليس فى صدورهم سوى أحلام الشبع والرى، دون أن يقيموا للكرامة وزنا أو يعرفوا للإنسانية طعما، أو يحسبوا لأحد حسابا، فأتوا من السلب والنهب، والتعذيب، والقتل، ما يفتت القلوب، ويذيب الأكباد»**

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايلى :

- المقصود بكلمة «أحلام» : (آمال - رؤى - أخيلة)

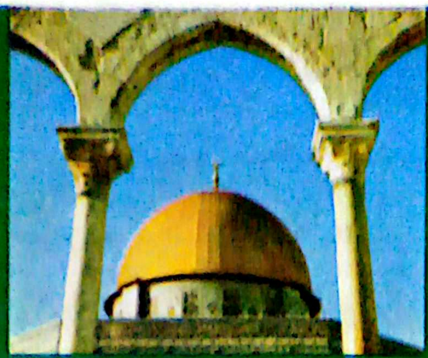
- «الشبع والرى» بينهما : (تضاد - مراعاة نظير - مزاوجة)

(ب) «يفتت القلوب ويذيب الأكباد» بم توحى هذه العبارة ؟

(جـ) ولماذا استخدم الكاتب التفتيت مع القلوب والإذابة مع الأكباد ؟

(د) بم وصف الكاتب الفرنجة ؟





الفصل الثالث

بداية المسيرة

(١)



سَنَتان سَوْداوَان كامِلَتان ، وأَفْواه الوُحوشِ الضَّارِيَة تَنْهَشُ لُحومَ البَشَر ، ومَعاوِلُ الهَدْمِ والتَّخْريب ، لا تُبْقِى فى البِلاد عامِرًا ولا تَذَرُ ، تَشُقُّ الطَّرِيقَ إِلَى القُدْسِ .

كُلُّ المُدُن الَّتى تَدْخُلُها تِلْكَ الوُحوشُ ، تُلاقى نَفْسَ المَصيرِ البَشِعِ[1] ، مِنَ القَتْلِ ، وهَدْمِ المعَابِد ، وإحْراق المَكْتَبات الزَّاخِرَة بالكُتُبِ النَّفِيسَة ، وتَحْطِيم المساجِد ، ومَحْوِ الآثار النَّاطِقَة بعَظَمَة العَرَب وجَلالِهِمْ .

ولَقَد صَبُّوا أَكْبَرَ جَرائِمِهم عَلَى أَكْبَرِ الرُّءُوسِ ، مِنَ العُلَماء والكُبَراء ، وهُم يَدُقُّون الطُّبولَ ، ويَنْفُخونَ فى المَزامِيرِ ويَرْقُصونَ أَمامَها ، فَرَحًا بِإِبادَة البَشَرِ على تِلْكَ الصُّورَة البَشِعَة .

ولَمْ يَزالُوا علَى هذه الحال ، حَتَّى وَجَدوا أَنْفُسَهم أَمامَ رَبْوَة[2] عالِيَة ، مِنْ فَوْقِها المَدينَةُ العَتِيقَةُ ، تَنْظُرُ بعَيْنِ الفَزَعِ إِلَى تِلْكَ الجُمُوعِ المُلْتَفَّة حَوْلَها ، عالِيَةَ العُواءِ ، مُرْتَفِعَةَ التَّهْدِيد والوَعِيدِ .

(١) البشع : الكريه . (٢) ربوة : ما ارتفع من الأرض ، وجمعها رُبىً .

ومع ما أبدى أهلها العرب من الدفاع المستميت ، حطم الوحوش أسوارها الضخمة بمجانيقهم الباغية ، ودخلوها مندفعين بحشودهم الكبيرة ، وانطلقوا فيها بمخالبهم وأنيابهم ، ينهشون اللحوم ويدقون العظام .

تمت المأساة الفاجرة ، وأبيد سكان القدس وأصحابها ، ومن أقبلوا حجاجا ، كانوا سيغادرونها بعد الحج ، ومن نووا الإقامة الدائمة بها مجاورين لبيت الله ، تقربا إلى ربهم وطمعا فى ثوابه .

ولم يبق فى المساجد ، والمتاحف ، والدور ، شىء من القناديل الذهبية والأوعية الدرية ، والهدايا الثمينة ، التى أهديت إلى بيوت الله . من الملوك والأمراء والأغنياء وسواهم . وديس المسجد الأقصى بالنعال وربطت فيه الخيول ، ثم جعل حظيرة للخنازير ، ولم تبق منه مئذنة ، ولا منبر ، ولا أثر للفن الرفيع ، الذى كان يحلى الجدران ، ويتلألأ فى ضوء المصابيح الوهاجة .

ذهب ذلك كله ، وانمحت صوره بيد الفرنج ، الذين جاءوا متعطشين للدماء والخراب ، مقسمين على ألا يتركوا أثرا للإسلام والمسلمين .

وبعدما انتهوا من القتل والإحراق ، والخنق ، والتخريب ، والسلب ، والنهب[1] ، أقاموا حفلا ساهرا ، رقصوا فيه على الأنغام المثيرة ، وفى نهايته انتخبوا «جود فرى» ملكا لبيت المقدس ، وألبسوه التاج الملكى ، بين الهتاف العالى بقوته وعظمته ، وحياة الفرنج الذين لا يغلبون ، والحث على الإسراع بإتمام فتح البلاد ، ليتفرغوا لما بعدها .

(١) النهب : الأخذ قهرا .



وكانَ رَدُّه بَعْدَ الشُّكْرِ الجَزيلِ ، والثَّناءِ علَى البُطولاتِ النَّادِرَةِ ، أَنْ قالَ مُنَبِّهًا :

- البَحْرُ أَيُّها الرِّجالُ ! البَحْرُ أَهَمُّ مَقاصِدِنا بَعْدَ هذا النَّصْرِ الكَبيرِ !

مِنْ أَجْلِ القُدْسِ وحمايَته ، عَلَيْنا أَنْ نَفتحَ الطَّريقَ إِلَى السَّاحلِ ، وإِلاَّ حَصَرَنا العَرَبُ ، وأَدْرَكوا منَّا كُلَّ ما يُريدُونَ . فَهَيَّا إِلَيْه لِنَفْتَحَ بِلادَه ، ولاَ نَفْقدَ اتِّصالَنا بِأَهْلِنا وأَوْطاننا ، ولِيَسْتَمِرَّ المَدَدُ الَّذى يَأْتينا عَنْ طَرِيقِه ، ولاَ تَنْقَطِعَ النَّجْداتُ الَّتى تُسْرِعُ إِلَيْنا على ظَهْرِه .

هَيَّا أَيُّها الرِّفاقُ لِنَحْمِيَ القُدْسَ وما فَتَحْنا سِواه ، وبَعْدَه نَسيرُ ونَسيرُ ، حَتَّى نَبْلُغَ أَقْصَى مَكانٍ فِى هذِهِ الدُّنْيا الواسِعَةِ ، ونَرْفَعَ علَيه عَلَمَنا الخَفَّاقَ .

(٢)

انْطَلَقَتْ تِلْكَ الجُمُوعُ الكَبيرَةُ إِلى «عَكَّا» و «صُورَ» وغَيْرِهما مِنَ المَوانِى القائمَةِ علَى شاطِئِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوسِّط ، تُحَطِّمُ وتُخَرِّبُ ، لا تَهْتَمُّ بِأَرْواحِ النَّاسِ ، ولا تُلْقِى بَالاً لِمَا وَصَلَتْ إِلَيْه تِلْكَ البِلادُ مِنْ حَضارَةٍ ورُقِىٍّ ، تَسْخَرُ مِنْ مَدارِسِها ، ومَعاهِدِها ، ومَعابِدِها ، وأَسْواقِها ، وزِينَتِها ، وتَتَسَلَّى بِمَنْظَرِ الدِّماءِ الجارِيَةِ ، وهِىَ تَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ فَوْقَ الأَرْضِ ، وبالنِّيرانِ المُشْتَعِلَةِ وهِىَ تَلْتَهِمُ المَكْتَباتِ الكَبيرَةَ ، وما بِها مِنَ الكُتُبِ النَّادِرَةِ ، لا يَهْتَمُّونَ بِما تَحْوِى مِنْ عُصارَةِ الأَفْكارِ ،

وما تضُمُّ من ميراثِ الأجيالِ البعيدةِ ، من الثقافة ، والعلْم ، والأدب ، والفنِّ ، والتَّجارب الواسعَة ، وتطْربُ لرُؤية العُلماء الأجلاء ، وهُمْ يُلْقُونَ بما في رُءوسهم ، مَع الكُتُب ، واللَّوْحات والخَرائط ، في ذلكَ الجحيم المُتَّقد .

«كانَتْ «طَرابُلسُ» مَدينَةً جَميلَةً بارعَةَ الحُسْنِ ، حَوْلَها البَساتينُ الفَاخرَةُ ، والمزَارعُ الكَثيرَةُ ، منْ قَصَبِ السُّكَّر ، وأَشْجار النَّارنْج والموْز واللَّيْمون ، وبها المَنازلُ العاليَةُ ، ذَاتُ الطَّبقات الأَرْبع أَوِ الخَمْسِ أو السِّتِّ ، نَظيفَةَ الشَّوارعِ والمَيادين ، في وَسَطها مَسْجدٌ عَظيمٌ مَحلًّى بآيات القُرْآن الكَريم ، المَكْتوبَة بخَطٍّ بَديع ، في ساحَته قُبَّةٌ ضَخْمَةٌ ، تَحْتَها حَوْضٌ منَ الرُّخام ، في وَسَطه نافورَةٌ منَ النُّحاسِ الأَصْفَر . وبها مَصْنَعٌ كَبيرٌ للْوَرَق الجَميلِ ، نَظيفَةَ الحَمَّامات ، يَتَمَتَّعُ أَهْلُها بِدَرجَةٍ عاليَةٍ مِنَ الرُّقيِّ والعِلْم» .

فَلَّما بَلَغَها أُولئكَ المعتدون ، حاصَرُوها ، وضَيَّقوا الخناقَ عليها ، فَلَمْ تَسْتَطعْ الوُقوفَ طَويلاً ، أَمامَ الهَوْل المُنْصَبِّ عَلى سُورها الضَّخْم ، ولَمْ يَكُنْ عنْدَها أَقلُّ أَمَلٍ ، في أَنْ يُسْرعَ إِلَيْها جَيْشٌ يُخَلِّصُها ، يَجيءُ منَ البَرِّ أَوْ يَجيءُ منَ البَحْرِ ، فَلَيْسَ هُناكَ دَوْلَةٌ ذات جُيُوشٍ تُنْجدُها ، وتَحْميها منْ نيرانِ المَجانيقِ الَّتى تَصُبُّ قَذائفَها عَلَيها .

وما حَطَّموا سُورَها ، حَتَّى انْدَفَعوا بَيْنَها ، يُعْملونَ السُّيوفَ فى الرِّقاب ، ويَنْهَبونَ الدُّورَ ، والقُصورَ ، والمَتاجرَ ، ويَسْبُونَ النِّساء ، ويُسْرعونَ إِلَى المَساجد ، يَقْتُلونَ مَنْ اسْتَجارُوا بها ، ويَهْدمُونَ مآذنَها ، ويَمْحُونَ ما عَلى جُدْرانها منْ الآيات القُرْآنيَّة الجَميلَة ، المَكْتُوبَة بماءِ الذَّهَبِ ، ويَسْرقونَ قَناديلَها الدُّرِّيَّة ، ويَنْهَبُونَ كُلَّ ما

يَجِدُون فيها مِنَ الأَشْياءِ الغاليَة ، ويُحيلُونَ مَكْتَباتِها ، ومَدارِسَها ، ومَصانِعَها ، ودُورَ عِبادَتِها رَمادًا ، وهُمْ يُصَفِّقُون ويُهَلِّلون ، ويُهَنِّئ بَعْضُهُم بَعْضًا بِالنَّصْرِ الْمُدَمِّر ، كما فَعَلُوا بِسِواها .

وبَعْدَ الحَفْلِ السّاهِر ، الَّذى أَقامُوه احْتِفالاً بِالانْتِصار الدّامِى ، أَعْلَنوا إِقامَةَ إِمارَةِ «طَرابُلُس» الإفرنجيَّة ، لِتَكونَ الإمارَةَ الرّابِعَة ، فِى هذه البِلادِ الَّتى ابْتُلِيَتْ بِهِم ، وانْتَخَبُوا «رِيمونْدَ» دُوق طُولُوزَ أَميرًا عَلَيْها ، لِيَنالَ نَصِيبَه مِنَ الغَنيمَةِ الفاجِعَة .

ولَمّا انْتَهَى ذلكَ التَّنْصيبُ ، قامَ «رِيمونْدُ» يَخْطُبُ فِى الجُمُوعِ المُلَطَّخَة أَكُفُّها بِالدِّماء ، وهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى سَيْفِه ، يَقولُ فى غُرور :

- شُكْرًا لَكُمْ أَيُّها الأَبْطالُ ، على ما بَذَلْتُمْ مِنْ تضحيات ، وما حَقَّقْتُم مِنْ نَصْر ، فَبِفَضْلِكُم تَكَوَّنَ لَنا فى الشَّرْقِ أَرْبَعُ إِماراتٍ ، كُلُّ إِمارَة منها ذاتُ عاصِمَةٍ كَبيرَة ، تَتْبَعُها مُدُنٌ وبِلادٌ ، وفُتِحَتْ بِسَواعِدِكُم لَها المَنافِذُ السّاحِلِيَّةُ ، لِتَكُونَ الصِّلَةَ الدّائِمَةَ ، بَيْنَها وبَيْنَ بِلادِنا العَزِيزَة الَّتِى لَنْ نَنْساها ، وإِنْ كُنّا قَدْ مَلَكْنا ما هُوَ خَيْرٌ مِنْها وأَغْلَى وأَحْلَى .

وعَلَيْنا أَيُّها الشُّجْعانُ ، أَنْ نَحْتَفِظَ بِما نَحْنُ فيه مِنَ القُوَّة ، والشَّجاعَة ، والشِّدَّة ، والخُشُونَة ، والقُلُوبِ الَّتِى لا تَرْحَمُ ولا تَرِقُّ ، وأَلاّ تَصْرِفَنا عَنْ قَصْدِنا البَعيد ، شَمْسُ هذه البِلادِ المُشْرِقَة ، وأَنْسامُها الدّافِئَة ، وهَواؤُها العَليلُ ، وظِلُّها الظَّليلُ ، وخَيْرُها الكَثيرُ ، وحِسانُها الفاتِناتُ ، اللاّتِى مَهَرَ الشَّرْقُ فِى إِنْباتِهِنَّ ، وأَجادَ فِيما أَعْطاهُنَّ مِنَ السِّحْرِ السّاحِر .

احْتَفِظُوا أَيُّها الجُنودُ بِخُشونَتِكُم وحُبِّكُم لِلدِّماء ، وإِلاّ ضَعُفَتْ أَيْدِيكُمْ عَنِ الضَّرْبِ والطَّعْنِ ، فَأَمامَنا جِهادٌ مَرِيرٌ ، أَغْلَبُ ظَنِّى أَنَّه سَيَكُونُ أَشَدَّ مِمّا لَقِينا مِنْ هؤُلاءِ العَرَب ، الَّذينَ لا يُرِيدُونَ أَنْ يَخْضَعُوا .

ولاتَنْسَوْا أيُّها الرِّفَاقُ أنّ المُدُنَ الدَّاخليَّة ، كَدمشْق وحَلَب وسواهُما ، لا تزَالُ فى قَبْضة العَرَب . وأَنَّ فلَسْطِينَ خاضعَةٌ لمصْرَ ، وتِلْكَ أَشْواكٌ يَنْبَغِى أَنْ نحْسِبَ حِسابَها ، ولانَذُوق راحَةً حتّى نكْسِرَها .

هَيَّا أيُّها الأَبْطالُ ، أَسْرِعُوا ، فَإِنِّى خائفٌ مِنَ أنْ يَسْتَيْقظَ أُولئكَ الغافلُونَ منْ نَوْمِهِم ، الّذى ساعَدَنا إلَى اليَوْم علَى هَزِيمَتِهِم ، وإذا صَحَوْا ، كانُوا خطَرًا شَديدًا علَيْنا ، قَدْ لا نَحْتَمِلُ لِقاءه .

خائفٌ أيُّها الأَبْطالُ ، منْ أنْ تَنْضَمَّ مِصْرُ إلَى الشَّام فِى كِفاحِها ، وَتَقُومَ بَيْنَهُما وَحْدَةٌ تَنْهَضُ لِحَرْبِنا ، وتَعْمَلُ علَى طَرْدِنا . وَوَحْدَةُ الْعَرَبِ بَلاءٌ كَبيرٌ أَخْشَى أنْ يُدْرِكَنا .

ومَعْنَى ذلكَ ، أنَّه لابُدَّ مِنَ الإسْراعِ بفَتْحِ الشَّامِ كُلِّهِ وفَتْحِ مِصْرَ ، لِنَقِفَ أمامَ تِلْكَ الوَحْدَةِ ، ونَمْنَعَها مِنْ أَنْ تَتِمَّ .

يَنْبَغِى أيُّها الرِّفاقُ أنْ تَذْكُروا دائمًا ، أنَّنا ما جِئْنا هُنا لإنْقاذِ القُدْسِ كَمَا نَدَّعِى ، وإنَّما جَعَلْناهُ جِسْرًا ، نَمُرُّ عَلَيْه إلَى أَحْلامِنا البَعيدَةِ فِى الشَّرْقِ الغَنِىِّ الجَميلِ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إلَى المَلِكاتِ والأَميراتِ ، وقال باسِمًا :

– الإماراتُ الأَرْبَعُ الّتى أقَمْناها ، بِفَضْلِ حَماسِكُنَّ وتَشْجيعِكُنَّ ، لَها أَرْبَعُ مَلِكات ، وأَوَدُّ أنْ نحْتَفِلَ قَرِيبًا ، بِتَنْصيبِ مَلِكاتٍ أُخْرَياتٍ علَى إمارات جَديدَة .

وإنِّى أَلْمَحُ فِى العُيُون تطَلُّعًا إلَى مُلْك مصْرَ ، فهَيَّا أيُّها الأَبْطالُ ، بِقُلُوبِ الأُسودِ الّتى اخْتَرَقَتِ الحواجِزَ ، لِنُعْطِىَ المُلْكَ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ ،

ونَثَبّتَ الأقدامَ فِى إمارات واسعَة ذات ثروَات هائلَة .

ثُمَّ جَلَسَ والتَّصْفِيقُ يُدَوِّى ، والهُتَافُ بحياته يَعْلُو ، والكُئُوسُ تَدُقُّ الكُئوسَ ، والشِّفاهُ تقتربُ مِنَ الأَقْداحِ ، وتَرْشُفُ منها ما تَشاءُ مِنَ الشَّرابِ .

ثُمَّ انْفَضُّوا يهُزُّونَ سُيوفَهُمْ فِى زَهْوٍ ، ويَسْتعِدُّونَ لِعُدْوانٍ جَديدٍ أثِيمٍ .

(٣)

عَجزَ الشَّامُ عَنِ النُّهُوضِ وَحْدَهُ للدِّفاعِ عَنْ أَرْضِه ، وجَعَلَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَه ، يَلْتَمسُ النَّجْدَةَ الَّتِى تُنْقذُه ممَّا هُوَ فيه ، والأُمَراءُ مَشْغُولُون بتَنازُعِهم وبتَباغُضِهم ، هَمُّ كُلٍّ مِنْهم أَنْ يُزيحَ أخاه مِنْ أَمامه ، ويَسْتَوْلِىَ علَى مَا بِيَدِه ، لِيُوَسِّعَ به مُلْكَهُ ، وإِنْ اسْتَنْجَدَ بالعَدُوِّ ، وارْتَمَى فِى أَحْضَانِه ، ورَضِىَ بأَنْ يُقَدِّمَ لَهُ ما يَطْلُبُ مِنَ المالِ ، وما يَفْرِضُ مِنَ الفُروضِ ، أَجْرًا لِمُساعَدَته عَلَى أَهْله وذَويه .

وبَيْنَ هذا الهَوْلِ الشَّديد ، انْتَفَضَ الشَّعْبُ ثائرًا فَائرًا ، واجْتَمعَ النَّاسُ فِى الدُّورِ والمَساجد ، ورَنَّت الخُطَبُ تَهُزُّ القُلوبَ وتُبْكِى العُيونَ ، وهِىَ تَعْرِضُ النَّكْبَةَ الفَظيعَةَ الَّتِى نَزَلَتْ بالبِلاد ، وتُنادِى بِالنُّهوضِ لِدَفْعِ المُعْتَدِينَ ، وبَذْلِ الأَرْواحِ والأَمْوالِ فِى سَبِيلِ الوَطَنِ العَزِيزِ .

ولَمْ يَزَلْ أُولئكَ الأَحْرارُ ، يَنْفُخونَ فِى الصُّدورِ ، مِنْ أَنْفاسِ الحُرِّيَّةِ والتَّضْحيَةِ والإِباءِ ، حَتَّى خَرَجَ النَّاسُ مِنْ دِمَشْقَ وغَيْرِها ، مُسْرِعينَ إِلَى بَغْدادَ ، يَقْصِدُون الخَليفَةَ العَبَّاسِىَّ ، صَارخينَ مُسْتَغيثِينَ . وهُناكَ قَطَعُوا شُعورَهُم ، وبَكَوْا ، وتَحَدَّثُوا بِقُلوبٍ مُنْفَطِرَةٍ ، عَمَّا حَلَّ بِبِلادِ

الإسْلام ، مِنْ قَتْلِ الرِّجالِ ، وسَبْى النِّساءِ وخطفِ الأطْفالِ ، ونَهْبِ الأَمْوالِ ، وتَحْطيمِ المَعابِدِ ، وإحْراقِ الآثارِ ، وإشاعةِ الفَسادِ ، وما يُلاقى النَّاسُ مِنَ الفرنْجِ مِنْ أقْبحِ الأفْعالِ .

ولَمْ يَكُنْ للْخَليفَةِ العَبَّاسىِّ حَوْلٌ ولا قُوَّةٌ ، فبكَى مِثْلَهُم بُكاءً حارًّا ، وكُلُّ ما اسْتَطاعَ عَمَلَه ، أَنْ بَعَثَ إلَى الأُمَراءِ المُتنازعين ، يُذَكِّرُهُم بالخَطَرِ ، ويَتَوسَّلُ إلَيْهم أَنْ يُنْهُوا ما بَيْنَهُم مِنْ خلافٍ ، ويَتَّحِدُوا ، ويُلاقُوا العَدُوَّ صَفًّا واحدًا قوىَّ البُنْيان .

فَلَمْ تَجِدْ هذه الصَّرْخَةُ بَيْنَ الأُمَراءِ آذانًا مُصْغيةً ، واسْتَمرَّ أُولئكَ المُتَنازعون فى تَفَرُّقِهِم وتَقاتُلِهِمْ ، وتَركوا الفرِنْجَ يُؤسِّسُون لَهم فى البِلادِ مُلْكاً ، يُحاوِلُون أَنْ يُوَسِّعُوه يَوْمًا فيَوْمًا ، حَتَّى يَلْتَهِمُوا الشَّرْقَ كُلَّه ، ولاَ يُبْقُوا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مِنَ الْعَرَبِ أَحَدًا .

ولَمَّا لَمْ يَجِدْ أَهْلُ الشَّامِ ، عِنْدَ الخَليفَةِ العَبَّاسىِّ شَيْئًا يُفيدُهُم ، اتَّجَهُوا إلَى مِصْرَ ، وذَهَبَ وَفْدٌ كَبيرٌ مِنْهُم إلَى وَزيرِها الأَفْضَلِ ، وتَحَدَّثُوا ، وبَكَوْا ، وصَرَخُوا ، عَلَّهُم يَجِدُونَ عِنْدَه أَمَلاً فى النَّجْدَةِ ، ثُمَّ كادُوا يَنْفَجِرُونَ ، وهُوَ يَقولُ لَهُم فِى غَيْرِ اهْتِمام :

- وما لَنا ولِلشَّامِ ؟ ! ذلكَ عَمَلُ السَّلاجِقَةِ ، الَّذِينَ يَحْكُمونَ مُعْظَمَ بلادِه ، ولَيْسَ مِنْ واجِبِى الدِّفاعُ عَنْ أَرْضٍ ، مِنْ واجِبِ غَيْرِى أَنْ يَهُبَّ للدِّفاعِ عَنْها! .

- لكِنَّ السَّيْلَ الجارِفَ المُدَمِّرَ ، مُنْحَدِرٌ مِنَ الشَّامِ إلَى مِصْرَ ، أَيُّها الوَزيرُ العاقِلُ ، البَعيدُ النَّظَرِ ! .

فَأَجابَ ساخِرًا : وحَتَّى يَأْتِىَ السَّيْلُ إلَينا ، نَنْهَضُ إلَى لِقائه ورَدِّهِ .

قالُوا وقُلوبُهم تتقطَّعُ : ولِمَ لاَ تتوحَّدُ صُفوفُ مِصرَ والشَّامِ أيُّها الوزيرُ ؟ ! .

نجتمعُ ولاَ نُعطِي العَدُوَّ المُشتَرَكَ فرصَةً يأكُلُ فيها بَعْضًا مِنَّا ، ثُمَّ يَفْرُغُ إِلَى غيْرِه! .

الوَحْدَةُ اليَوْمَ أيُّها الوَزيرُ لاَزِمَةٌ لَنا جَميعًا ، ومِنْ قَديمٍ ومِصْرُ والشَّامُ سَيْفٌ واحدٌ يَضْرِبُ بِيَدٍ واحِدَةٍ ، وعِنْدَما كُنَّا مُتَّحِدِينَ ، كُنَّا أكْبَرَ قُوَّةً وأكْثَرَ هَيْبَةً وأَشَدَّ بَأْسًا .

فَهلاَّ أَعَدْنا إِلَى هَذَا السَّيفِ رَوْنَقَهُ وجَلالَه وقُوَّتَه ، فَخَلَّصَنا مِنْ أُولئِكَ الَّذِينَ أطْمَعَهُم فِينا تَفرُّقُنا وتنازُعُنا ! ! .

فَلَمْ يُفِدْ هذا الكَلامُ وأَمْثالُه شَيْئًا ، فِي دَفْعِ الأَفْضَلِ إِلَى نَجْدَةِ الشَّامِ بِقُوَّةِ مِصْرَ الهائِلَة ، فَقَدْ كانَ العَداءُ شَديدًا بَيْنَه وبَيْنَ السَّلاجِقَة .

وأمَامَ ذلكَ التَّفرُّقِ الَّذى اسْتَمَرَّ بَيْنَ الأُمَراءِ ، سَهُلَ عَلَى الفِرنْجِ أَنْ يُوسِّعوا رُقْعَةَ أَمْلاكِهِم ، ويَزِيدُوا فِى إِعانَةِ بَعْضِ المُتنازِعِينَ عَلَى بَعْضٍ ، ويَزْرَعوا الأَرْضَ بالقِلاعِ والحُصونِ ، ويَقْتُلوا ويَنْهَبوا ، غَيْرَ حاسِبِينَ لِمَا يَصْنَعونَ حِسابًا ولاَ خائِفِينَ عِقابًا .

ثَمانِيَةٌ وعِشْرُونَ عامًا بَعْدَ القُدْسِ ، والْعَرَبُ فِى الشَّامِ يَعيشُونَ فِى تِلْكَ الفُرْقَةِ القاتِلَة ، والنَّاسُ يُصْبِحُونَ ويُمْسُونَ باكِينَ صارِخِينَ ، يَتَطَلَّعونَ إِلَى السَّماءِ ، ويَرْفَعُونَ أَكُفَّهُم بالدُّعاءِ ، يَرْجُونَ رَبَّهم أَنْ يَرْحَمَهُم ويَصْرِفَ الكَرْبَ عَنْهُم ، ويُرْسِلَ إِلَيْهِم بَطَلاً يَهَبُ نَفْسَه لله والْوَطَنِ ، ويَنْهَضُ لإِنْقاذِ البِلادِ مِنَ المَوْتِ ، الَّذى يُسْرِعُ إِلَيْها بأَوْسَعِ الخُطَى .

مَظْلُومُونَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِقُلوب خالِصَة ، يَعْلَمُونَ أَنَّه قَرِيبٌ مُجِيبٌ ، فَلَم يُخَيِّبْ رَجاءَهُم واسْتَجابَ لَهُم ، وبَعَثَ إِلَيْهِم عِمادَ الدِّينِ زَنْكِيّ كَبِيرَ أُمَراء السَّلاجِقَة ، فَهَبَّ بِقُوَّة وإِيمان ، لِقِتالِ الفرنْج وطَرْدِهِم مِنَ القُدْسِ الشَّرِيفِ الَّذِي دَنَّسُوه .

كانَ أَمِيرًا لِلْمَوْصِلِ والعِراق ، ووَجَدَ قُوَّةَ جُنْده وَحْدَهُم ، لا تَقْدِرُ عَلَى تَحْقِيقِ الأَمَلِ ، وأَنَّ الطَّرِيقَ الوَحِيدَ القَوِيَّ ، هُوَ الوَحْدَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الجُيوشَ والقُلُوبَ ، وتَنْدَفِعُ بِشَجاعَة إِلَى تَحْقِيقِ النَّصْرِ عَلَى المُعْتَدِينَ .

وجَعَلَ يُفَكِّرُ فِي الأُمَراءِ الَّذِينَ سَيَقِفُونَ أَمامَه ، ولَنْ يُفَرِّطُوا فِي مُدُنِهِم الَّتِي يَحْكُمُونَها وَحْدَهُم ، ويُسَمُّونَها مَمالِكَ ، وإِنْ كانَ كَثِيرٌ مِنْهُم يَخْضَعُونَ لِلْفِرِنْجِ ويَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِم ، ويُؤَدُّون لَهُم الضَّرائِبَ الثَّقِيلَةَ لِيَسْكُتوا عَنْهُم .

وبَيْنَما هُوَ يَتَرَقَّبُ ، شَدِيدَ الأَلَمِ لِما يَرَى مِنَ الفُرْقَة والتَّنازُع ، ومَا يَفْرِضُ الفِرِنْجُ عَلَى أُولئِكَ المُتَخاصِمِينَ المُتَباعِدِينَ ، مِنَ المَذَلَّة والمَهانَة ، إِذَا بالأَمَلِ يَدُقُّ أَبْوابَه ، والفُرْصَةُ تَسْنَحُ لَه ، فَتَبْعَثُ إِلَيه «حَلَبُ» وَ «حَماةُ» و «دِمَشْقُ» تَسْتَنْجِدُ بِه ، وتَرْجُوه أَنْ يُسْرِعَ إِلَيها ويُنْقِذَها مِنَ الفِرِنْجِ وبَغْيِهِم .

اللَّهُ ! اللَّهُ !

أَوَّلُ اللَّبِناتِ فِي صَرْحِ الوَحْدَةِ الشَّامِلَة! وَأَوَّلُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْهَمِرُ! .

هَيَّا يا عِمادَ الدِّين ، فَقَدْ دَعاكَ النَّصْرُ! هَيَّا إِلَى الجِهادِ ، وتَنْظِيفِ الأَرْضِ الطَّاهِرَةِ مِنَ الفَسادِ .

وأسْرعَ إلَى الشَّام ، وضَمَّ إلَيْه «حَلَبَ» وغَيْرَها ، ثُمَّ هاجَمَ مَدينةَ «الرُّها» واسْتَوْلَى عَلَيْهـا ، وآمالُ الوَحْـدَة الشّـاملَة تُغَنّى فِى سَمْعه ، وتَدْفَعُه إلَى إتْمام حَلَقاتِها .

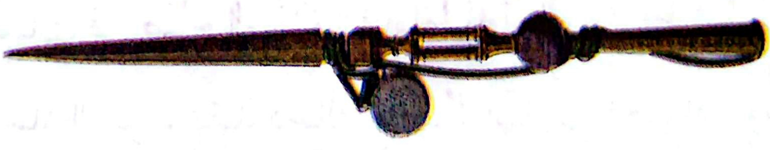
وجَعَلَ يَجْمَعُ فِى يَده أقْطارَ سُوريًّا والجَزيرَة ، ويَسْتَرْجِعُ ما سَلَبَ الفِرنْجُ شِبْرًا شِبْرًا ، وأنْسامُ الحُرِّيَّة تَهُبُّ عَلَى البِلادِ ، فَتَزيدُها أمَلاً فِى إزاحَةِ الكابُوسِ الثَّقيلِ ، الذِى انْحَطَّ عَلَى صَدْرِها .

والفِرنْجُ فِى فَـزَع شَـديد مِنْ هذا البَطَلِ ، الذِى أنْبَتَتْـه الأرْضُ العَرَبيةُ ، مَبْعوثًا مِنْ قِبَلِ العِنَايَةِ الإلهِيَّةِ ، لتَحْريرِ البِلادِ ، وإنْقاذِها مِنْ أيْديهِمْ المُلَوَّثَةِ بالدِّماءِ والأقْذارِ .

لكِنَّ الفَرْحَةَ لَمْ تَتِمَّ ، وفَزَعَ الفِرنْجِ لَمْ يَسْتَمِرَّ ، فإذا بِالبَطَلِ يَتْرُكُ المَيْدانَ ، ويَخْلَعُ بِمَوتِه القُلوبَ الَّتِى انْتَعَشَتْ ، ودَبَّتْ فِيها الحَياةُ .

وعادَ النَّـاسُ إلَى البُكاءِ والعَويلِ ، ورَجَعَ الفِرنْجُ إلَى التَّخريبِ والتَّدْميرِ والإفْساد ، شَديدِى الخَوْفِ مِنْ هذهِ الأرْضِ ، الَّتِى لا تُبْقِى عَلَى ظَهْرِها دَخيلاً .

أفَيَضِنُّ الفَرعُ مِنْ أنْ يُنْبِتَ بَطَلاً آخَرَ ؟ يُكْمِلُ المَسيرَةَ ، ويُلْقِى بِهِمْ خارِجَ البِلادِ ، أوْ يَدْفِنُهُم فِى جَوْفِها ، ويُهِيلُ عَلَيْهِمُ التُّرابَ .



مناقشة الفصل الثالث

١ «سنتان سوداوان كاملتان، وأفواه الوحوش الضارية تنهش لحوم البشر، ومعاول الهدم والتخريب، لاتبقى فى البلاد عامرا ولا تذر، تشق الطريق إلى القدس»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة ما بين الأقواس لمايلى :

- مفرد «أفواه» : (فم ، فاه - فُوَّة - فُوَّهة)

- المقصود بـ «معاول الهدم» : (سيوف الأعداء - الفؤوس التى يقطعون بها الأشجار - المعدات الحربية - الجيوش الجرارة)

(ب) علام يدل وصف السنتين بالسوداوين ؟

(جـ) ما قيمة التعبير بقوله «تشق الطريق إلى القدس» بعد قوله «ومعاول الهدم والتخريب ، لا تبقى فى البلاد عامرا ولا تذر» ؟

٢ «تمت المأساة الفاجرة، وأبيد سكان القدس وأصحابها، ومن أقبلوا حجاجا، كانوا سيغادرونها بعد الحج، ومن نووا الإقامة الدائمة بها مجاورين لبيت الله، تقربا إلى ربهم وطمعا فى ثوابه»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف «ثوابه» : (حسناته - جزائه - مغفرته)

- ذِكْرُ «تقربا إلى ربهم» بعد «مجاورين لبيت الله» :

(نتيجة - تعليل - تأكيد)

(ب) ماذا فعل الأعداء بسكان القدس ؟ وعلام يدل ذلك ؟

(جـ) للقدس مكانة دينية عظيمة وضح ذلك .

(د) ما قيمة وصف المأساة بالفاجرة ، وعطف الأصحاب على السكان ؟

٣ «لكن السيل الجارف المدمر، منحدر من الشام إلى مصر، أيها الوزير العاقل، البعيد النظر. فأجاب ساخرا: وحتى يأتي السيل إلينا، ننهض إلى لقائه ورده، قالوا وقلوبهم تتقطع: ولِمَ لا تتوحد صفوف مصر والشام أيها الوزير ؟!»

(ا) ضع مرادف «الجارف» ، ومضاد «المدمر» فى جملتين مفيدتين .

(ب) ورد النداء فى الفقرة مرتين . فما الغرض البلاغى من كل منهما؟

(جـ) علام يدل وصف الوزير بالعاقل ، البعيد النظر ؟

(د) فى «لكن السيل الجارف المدمر» صورة خيالية . وضحها ، ثم اذكر أثرها فى المعنى .

(هـ) لماذا اتجه أهل الشام إلى الأفضل وزير مصر ؟ وما موقفه من قضيتهم ؟



الفصل الرابع

بشائر النصر

(١)



فَرِحَ الفِرِنْجُ أَشَدَّ الفَرَحِ بِمَوْتِ عِمادِ الدِّينِ ، وظَنُّوا أَنَّ مَوْتَه سَيَدْفَعُ عَنْهُم مَا يُلاقُونَ مِنِ انْدِفاعِ الْعَرَبِ إِلَيْهِم ، وزادَ هذا الفَرَحَ ما يَرَوْنَه مِنَ الفُرْقَةِ الَّتِى دَبَّتْ عَقارِبُها بَعْدَه بَيْنَ الأُمَراءِ ، وعادَتْ كَما كانَتْ .

لكِنَّ بُذورَ الثَّوْرَةِ الَّتِى أُلْقِيَتْ فِى أَرْضِ الْعَرَبِ ، قَدْ سُقِيَتْ بِمِياهِ الحُرِّيَّةِ ، والشَّجاعَةِ ، والشَّهامَةِ ، والكَرامَةِ ، فَجَعَلَتْ تَهْتَزُّ ثُمَّ تَهْتَزُّ ، حَتَّى أَنْبَتَتْ بَطَلاً جَديدًا قَوِيًّا سارَ عَلَى الدَّرْبِ ، جاعِلاً هَمَّه طَرْدَ الغاصِبِينَ ، وتَخْلِيصَ القُدْسِ مِنْ دَنَسِهِم ، باذِلاً نَفْسَهُ لِلّه ، مُتَّخِذًا وَسيلَتَه سِلاحَ الوَحْدَةِ القاطِعَ .

سَمِعَ ذلِكَ البَطَلُ المُسْتَتِرُ فِى الأَرْضِ الطَّاهِرَةِ ، أَنِينَ الجَماهِيرِ المَطْحُونَةِ ، وزَفَراتِهِمُ المُحْتَرِقَةَ ، فَشَقَّ الأَرْضَ وخَرَجَ مِنْها ، شاهِرًا سَيْفَه ، حادًّا رُمْحَه ، لِيُتِمَّ رِسالَةَ أَبِيه ، الَّذِى مَضَى وأَخْلَى العَرِينَ(١) ، مَحْزونًا عَلَى أَنَّه لَمْ يُتِمَّها .

(١) العرين : مأوى الأسد ، والجمع عُرُن .

فَلَمْ يَشْعُرِ الفِرَنْجُ إلاَّ بِجَوادٍ قَوِىٍّ ، وفارسٍ مِقْدام ، حَوْلَه خُيُولٌ صاهِلَةٌ ، وأَسِنَّةٌ بارِقَةٌ ، فِى أَيْدِى فُرْسانٍ أَشِدَّاء ، مُمْتَلِئِى الصدورِ بالإِيمانِ ، يَصيحُونَ مِنْ أَعْماقِ قُلُوبِهم فِى حَماسٍ مُتَّقِد :

- لَبَّيْكَ ياعِمادَ الدِّينِ ، لَبَّيْكَ . نَحْنُ فِى أَثَرِكَ ، خَلْفَ ابْنِكَ نُورِ الدِّينِ ، عازِمِينَ عَلَى تَحْقِيقِ أَهْدافِكَ . القُدْسُ غايَتُنا ، وطرد الفِرَنْجِ مَطْلَبُنا ، واللهُ مَعَنا .

وعادَ أُولئك الغاصِبُونَ فَزِعِينَ ، يُفكِّرون فِى المَصيرِ المُظْلِم ، وأَشْباحِهِ المُخيفَة ، الَّتِى تَتَراقَصُ أمامَ أَعْيُنِهِم ، شَدِيدِى الخَوْفِ ، مُشَتَّتِى العُقُولِ .

فَبَعْدَما اطْمَأَنَّ نُورُ الدِّينِ إِلَى قُوَّتِه ، نَهَضَ مُسْرِعًا لِتَحْقِيقِ رِسالَتِه ، وفَتْحِ الطَّرِيقِ إِلَى القُدْسِ ، وبُلوغِه فِى أَقْصَرِ وَقْت . وكانَ الفِرَنْجُ قَدْ اسْتَرَدُّوا مَدِينَةَ «الرُّها» وحَصَّنُوها تَحْصِينًا مُحْكَمًا ، وجَعَلُوها مَدِينَةً مُقَدَّسَةً يَحُجُّونَ إِلَيْها .

فَبَدَأَ بِها ، وحاصَرَها ، وسَلَّطَ عَلَيْها المَجانِيقَ الباطِشَةَ ، فَلَمْ تَصْمُدْ طَوِيلاً أَمامَها ، وانْهارَ دِفاعُها ، رَغْمَ الإِمْداداتِ الفِرَنْجِيَّةِ الكَثِيرةِ الَّتِى انْهالَتْ عَلَيْها ، وسَقَطَتْ فِى أَيْدِى جُنْدِ الله ، فَدَخَلُوها وطَرَدُوا الفِرَنْجَ مِنْها ، وانْتَقَمُوا مِنَ الخَوَنَة ، الَّذِينَ باعُوا ضَمائِرَهُم لِلعَدُوِّ ووَقَفُوا بِجانِبِه .

كانَ لِسُقُوطِ هذه المَدِينَةِ دَوِىٌّ شَدِيدٌ فِى أَسْماعِ الفِرَنْجِ ، خَلَعَ قُلُوبَهُم ، فَأَسْرَعوا يَجْتَمِعونَ ويَتَشاوَرُونَ ، لِيَرُدُّوا عَنْهُم هذِهِ القُوَّةَ الكاسِحَةَ ، الَّتِى تَنْدفِعُ إِلَيْهِم فِى سُرْعَةٍ وشِدَّةٍ .

قالَ بَعْضُهُم فِى غُرُور :

- وما هؤُلاءِ العَرَبُ ؟ ! ولِمَ تَخافُونَ مِنْهُم ؟ ! أَلَم نَهْزِمْهُم مِنْ قَبْلُ ونَسْتَوْلِ عَلَى بِلادِهِم ؟ ! وكَيْفَ نَيْأَسُ مِنْ لِقائِهِم ورَدِّهِم ، وجُموعُنا هائِلَةٌ ، وأَسْلِحَتُنا كَبِيرَةٌ ؟ !

فَلْنجمعْ قُوّاتنا كُلّها ، ونَنْهضْ إلى نُور الدّين ، مُسْتخدمينَ كُلّ سلاح نَعْرِفُه ، ولا نَرْجعْ حَتّى نَهْزِمَه ونَقْتُلَه ، فيَذْهَبَ كما ذَهَبَ أَبوه ! .

قالَ مَلِكُ القُدْسِ فى أَلَمٍ شَديد :

- نَحْنُ أيُّها الأَميرُ ، قَدْ أَغْرَقْنا أَنْفُسَنا فى بَحْرٍ عَرَبِىٍّ عَميق ، بَعيدِ الشّاطِئَيْن ، لَمْ نَحْسُبْ حِسابَ عَواصِفِه وأَمْواجِه . مِنْ حَوْلِنا المُسْلِمُونَ يُحيطُونَ بِنا مِنْ كُلِّ جانِب ، وكُلَّما نَزَحْنا بَعْضًا مِنْ ماءِ ذلكَ البَحْرِ ، غَذَّتْه مِياهٌ غَيْرُها وأَشَدُّ غَزارَةً مِنْها ، وقَدْ عَقَدوا عَزْمَهُم عَلَى قِتالِنا ، ولَنْ يَسْكُتوا حَتَّى يُريقُوا دِماءَنا ويَقْضُوا عَلَيْنا ! .

ولا تَنْسَ أَيُّها الأَميرُ أَنَّ بَعْضَنا قَدْ تَعِبَ مِنَ الحَرْبِ ، الَّتى لا تَنْقَطِعُ بَيْنَنا وبَيْنَهُم ، ويَئِسَ مِنَ النَّصْرِ الحاسِمِ عَلَيْهِم ، ورَأَى أَنَّه لَمْ يُحَقِّقْ الأَمَلَ الَّذى جِئْنا مِنْ أَجْلِه ، ولَه الحَقُّ فى يَأْسِه ، فَقَدْ جِئْنا إلى الشَّرْقِ لِنَعيشَ فى جَنّاتِه ، لا لِنُرَوِّىَ أَرْضَه بِدِمائِنا ونَخْلِطَ تُرابَها بِأَجْسادِنا ، فَتُنْبِتَ لَهُم أَبْطالاً صَناديدَ كما نَرَى!

- والرَّأْىُ أَيُّها المَلِكُ العَظِيمُ ؟ .

- لَقَدْ وَقَعْنا يا أَميرُ ، ولا مَفَرَّ لَنا مِنَ الحَرْبِ ، لكِنَّا لَنْ نَكْسِبَها بِأَيْدينا وَحْدَها .

- أَتَرَى أَيُّها المَلِكُ ، أَنْ نَسْتَعينَ بِإِخْوانِنا الأُورُبِّيِّينَ ، لِيَنْهَضُوا إِلَيْنا ويُنْقِذُونا ؟ !

- لَيْس هُناكَ مِنْ حَلٍّ يا أَميرُ سِوَى هذا ! لابُدَّ مِنْ نَجْدَتِهم ، وبِغَيْرِها سَيَدْفِنُنا الْعَرَبُ فى أَرْضِهِم ، كَما صَنَعوا بِغَيْرِنا مِمَّنْ جَرَّبوا حَظَّهُم مَعَ هذه البِلادِ السّاحِرَةِ الماكِرَة .

أَلا تَرَى يَا أَميرُ ما يَصْنَعونَ الْيَوْمَ ؟ !

إنهم يحاربوننا بالجيوش المنظمة ، وبالعصابات التي تقف لنا ، وتقطع الطرق على رجالنا ، وتصطادهم أينما حلوا وأينما رحلوا ، قد انتفضوا يحرقون زرعنا ، ويقتلون ماشيتنا ، ويخربون بساتيننا ، ويأتون بكل ما يقلق راحتنا ! .

حتى النواعير التي تخرج الماء وتسقي الزرع ، أطلقوا أصواتها عالية تفزعنا ، وبعدما كانت تغني ، جعلت تبكي وتندب ، وتذكرهم بما غصبنا من أرضهم ، وما قتلنا منهم ! ! .

ألا تسمعون الفستق ، وهو يتشقق طول الليل ، ويفرقع بأصوات مزعجة ، كأنه قذائف موجهة إلى صدورنا ، ولم تكن له تلك الأصوات المخيفة من قبل ؟ ! .

وإذا بقينا على حالنا هذه ، متنا خوفًا وجوعًا ، إن لم نمت بحدود السيوف المندفعة بقوة إلينا ! .

وطارت الرسل والكتب إلى أوربا ، صارخة نادبة ، تطلب الإسراع إليهم ، وتذكرهم بالقرابة والرحم ، وتصور لهم نور الدين وجيشه بأبشع الصور ، وتصف لهم أعمال المسلمين بأوصاف كاذبة ، بعيدة عن الحق ، فأهاجت الشعور ، ودفعت الناس إلى النهوض لإنقاذ القدس ، وإنقاذ إخوانهم الذين يحمونه كما يقال لهم .

وبسرعة ، تجمعت حملة ضخمة من المقاطعات كلها ، وسارت مسرعة ، تحت لوائها «لويس» السابع ملك فرنسا ، و «كونراد» الثالث ملك ألبانيا ، وشهد البر والبحر سيولاً من الفرنج ، منحدرة إلى الشرق ، مهددة متوعدة .

(٢)

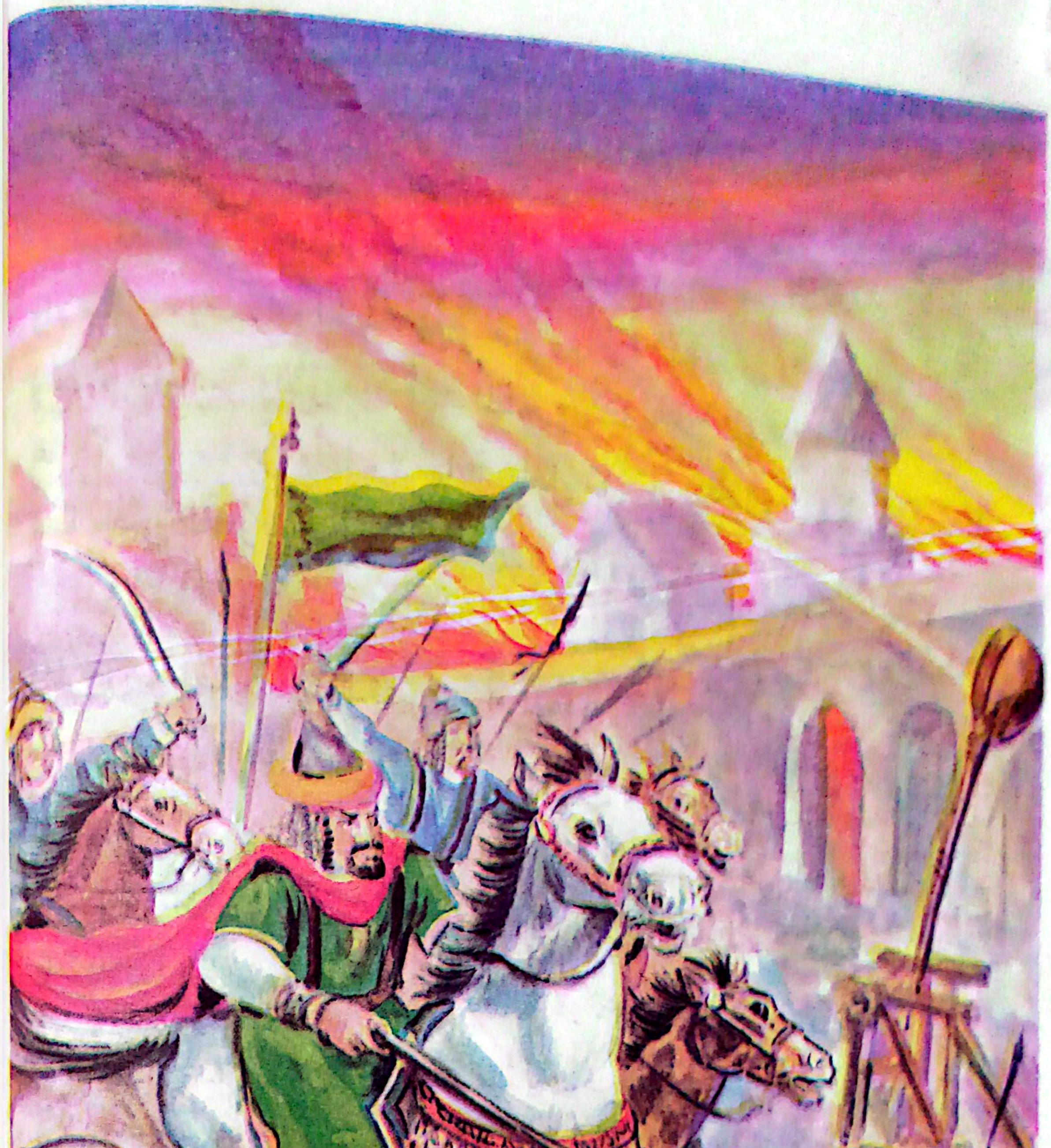
انْدَفَعَتْ هذه الحَمْلَةُ الضَّخْمَةُ إلَى الشَّرْق ، بحَمَاسِ الأَحْلام والأَمَانِى ، وضَرَاوَة الحِقْدِ والحَسَدِ ، وفَوْرَة التَّوَحُّشِ والعُدْوَانِ ، والعَامُ السَّادِسُ والأَرْبَعون بَعْدَ المائَة والأَلْفِ منَ الميلاد ، يُطلُّ علَيْها ، عاجِبًا لَها ، ساخِرًا منْها ، لأَنَّها تتجاهَل مَا حَلَّ بإِخْوانِها ، ولا تُقدِّرُ شيْئًا ممَّا يُخبِّئُ القَدَرُ للْمُعْتَدِينَ الظَّالمينَ .

فَلَمْ تَكَدْ تَقْتَرِبُ مِنْ بِلادِ العَرَبِ ، حَتَّى أَصابَها الجُوعُ والعَطَشُ والمَرَضُ ، وقُضِيَ علَى الكَثِير مِنْ أَفْرادِها .

ولَمْ يَتَّعِظ الباقُون الَّذين نَجَوْا مِنَ المَوْتِ ، ويَعُودُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا ، بَلْ واصَلُوا سَيْرَهُم ، حَتَّى دَخَلُوا البِلادَ ، وانْضَمُّوا إِلَى إخْوانِهِم فِرِنْج الشَّرْق ، وانْطَلَقُوا مَعَهم إِلَى دِمَشْقَ لِيَسْتَوْلُوا عَلَيها ، ويُبْعِدُوا المُسْلمين باحْتِلالِها عَنْ طَرِيقِ القُدْسِ ، الَّذِى عَزَموا علَى بُلُوغه .

ونُورُ الدِّينِ فِى «حَلَبَ» يَسْتَعِدُّ لخَوضِ مَعارِكَ طاحِنَة مَعَ الفِرِنْج ، يَرْقُبُ ما سَيَصْنَعُ مَعَهم مُعِينُ الدِّينِ أَنَرُ السَّلْجوقِيُّ الَّذِى يَحْكُمُها ، حَتَّى بَلَغوا أَسْوارَها ، ووَقَفُوا أَمامَها يَسْتَعِدُّونَ لاقْتِحامِها .

ولَمْ يَكُنْ لِمُعِينِ الدِّين قُدْرَةٌ ، علَى مُواجَهَة السَّيْلِ الجارِفِ ، الَّذِى الْتَفَّ حَوْلَ المَدِينَة ، فَطارَتْ رُسُلُه إِلَى «حَلَبَ» تَسْتَنْجِدُ بنورِ الدِّين ، وكانَ نُور الدِّينِ يَتَمَنَّى هَذه الدَّعْوَةَ ، لِيَضُمَّ دِمَشْقَ إلى الوحْدَة ، فَأَسْرَعَ إلى هَؤُلاء الغُزَاة بِجَيشه الجَرَّار ، عازِمًا على سَحْقِهِم ، فَلَمَّا رَأَوْه فَزِعوا وأَسْرَعوا بالهَرَبِ ، قَبْلَ أَنْ يُطَوِّقَهُم ويَقْضِى علَيْهم .



ولَمْ يَدَعْهُم يَنْجُونَ بِأَنْفُسِهِم ، ولاحَقَهُم واشْتَبَكَ مَعَهم فى مَعْرَكَة طاحِنَة . هُزِمُوا فيها هَزِيمَةً ماحِقَةً ، وحُمِلَ قائدُهُم «ريمونْد» إِلَى «حَلَب» أَسِيرًا ، ذَلِيلاً ، باكِيًا ، مَعَ غَيْرِه مِنَ الأَسْرَى الكَثيرين ، ومَعَ الغَنائِم الهائلَة .

وبَعْدَما أُقِيمَت الأَفْراحُ ، ورَنَّت الخُطَبُ والقَصائدُ بالتَّهْنِئَة ، وانْتَهى تَوْزيعُ الأَسْلابِ عَلَى الجُنودِ ، وإِطْعامُ النَّاسِ مِمَّا أَعْطَى الله ، أَخَذَ يَسْتَعِدُّ لاسْتِرْدادِ القُدْسِ ، والقَضاءِ عَلَى الفِرِنْجِ الَّذِينَ غَصَبُوه .

وجَعَلَ هَمَّهُ إِلَى مَقْصِده ، تَقْلِيمَ أَظْفارِ الفِرِنْج ، وقَصَّ أَجْنِحَتِهم قَبْلَ أَنْ يَبْدأَ هُجومَه الشَّامِلَ عَلَيْهِم ، فَعَقَدَ مَعَ الدَّوْلَةِ البِيزَنْطِيَّة هُدْنَةً ، يَتَفَرَّغُ فِيهَا لأُولئِكَ الفِرِنْج ، فَكانَتْ صَدْمَةً قَوِيَّةً لَهُم ، لَمْ يَجِدُوا أَمامَها إلاَّ أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ البَطَلِ هُدْنَةً مُماثِلَةً لَها ، فَوافَقَ عَلَى عَقْدِ هُدْنَةٍ قَصِيرَةٍ مَعَهُم ، وبَعْدَها يَحْكُمُ السَّيْفُ فِى قَضِيَّتِهِم .

شَمَّرَ البَطَلُ مُنْتَهِزًا هاتَيْنِ الهُدْنَتَيْن ، يَعْمَلُ بِجِدٍّ مِنْ أَجْلِ مَعْرَكَة القُدْسِ ، يُدَرِّبُ الجُنودَ عَلى القِتال ، ويَضَعُ الخُطَطَ الكَفِيلَةَ بِالنَّصْر ، عَلَى ضَوْءِ تَجارِبِه ، ويَمْلأُ أَفْئِدَةَ جُنْدِه عَزْمًا وإِيمانًا ، ويَمْلأُ قُلوبَ النَّاسِ مَحَبَّةً وتَضامُنًا .

يَزِيدُ اقْتِناعًا كُلَّ يَوْم ، بِأَنَّ الوَحْدَةَ الشَّامِلَةَ هِىَ السِّلاحُ القاطِعُ ، وأَنَّ ضَمَّ مِصْرَ والشَّام مَعًا ، يَصْنَعُ مِنْهُما كَمَّاشَةً قَوِيَّةَ الفَكَّيْنِ ، تُطْبِقُهُما عَلى الفِرِنْج مِنَ الشَّمالِ والجَنوبِ ، وتَطْحَنُهم بَيْنَهما طَحْنًا .

يُتابِعُ باهْتِمام ، ما فِى مِصْرَ مِنَ النِّزاع عَلَى الحُكْم بَيْنَ الوُزَراء ، وسَلْبِهِم السُّلْطَةَ مِنْ يَد الخَلِيفَةِ الفاطِمِىِّ الصَّغِير ، واتِّخاذِهِم إِيَّاه لُعْبَةً يَتَسَلَّوْنَ بِها ، مِمَّا أَطْمَعَ الفِرِنْجَ ، وجَعَلَهم يَمُدُّون أَعْيُنَهم إِلَى تِلْكَ البِلاد لِيَحْكُمُوها ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَفْتَحَها بَطَلُ الشَّام ويَضُمَّها إِلَيْه ، ويَكْسِبَ بِها

قُوَّةً شَدِيدَةَ الوَطْءِ عَلَيْهِم ، ولِيَزِيدُوا باسْتِيلائِهِم عليه قُوَّةً ، تُعِينُهم على أنْ يَمُدُّوا أرْجُلَهُم إلى ما بَعْدَها ، وتَجعَلَ إخْراجَهُم مِنَ الشَّرْقِ عَسِيرًا ، شَدِيدَ الصُّعوبَةِ .

وبَيْنَما هُوَ يُدَبِّرُ ويُفكِّرُ ، إذا بشَاوِرٍ وزيرِ مِصْرَ يَسْتَأْذِنُ عليه ، شَدِيدَ القَلَقِ ، يَطْلُبُ مِنْهُ مُساعَدَتَه على خَصْمِه ضِرْغام ، الَّذِى عَدا عَلَيْه وسَلَبَ مِنْه الوِزارَةَ ، ويَرْجُوه أنْ يُعينَه عليه ، ويُعيدَه إلى مَكَانِه الَّذِى أبْعَدَه عنه .

قالَ والدُّموعُ تَمْلأُ عَيْنَيْه :

- مِصْرُ يا مَوْلاىَ ، تُوشِكُ أنْ تَقعَ فِى أيْدِى الفِرِنْجِ ، إنْ لَمْ يُسْرِعْ مَوْلاىَ بإِنْقاذِها ! .

- وكَيْفَ يا شاوِرُ ؟ ! .

- ضِرْغامٌ يا مَوْلاىَ ! ثارَ عَلَيَّ وأَبْعَدَنِى عَنِ الوِزارَةِ ، ولِيَضْمَنَ بَقاءَه بها ، اتَّصَلَ بالفِرِنْجِ ، وطَلَبَ نَجْدَتَهُم ، وقَدَّمَ لَهُم كُلَّ ما طَلَبُوا مِنَ المالِ والأَرْضِ وغَيْرِهِما ، لا يَهُمُّه سِوَى العَوْدَةِ إلَى المَنْصِبِ ، الَّذِى نَهَبَ بِه كُنوزَ مِصْرَ وخَيْراتِها .

- أَحَقًّا ما تَقولُ يا شاوِرُ ؟ ! أحَقًّا أنَّه اتَّصَلَ بالفِرِنْجِ ودَعاهُم إلَيْه ؟ ! .

- نَعَمْ يا مَوْلاىَ ، وهُمْ على الطَّرِيقِ بِحَمْلَةٍ ضَخْمَةٍ ، تَحْتَلُّ مِصْرَ وتُقيمُ بِها ، وتَمْنَعُ الوَحْدَةَ الَّتِى يَعْمَلُ لَها مَوْلاىَ ، ويَراها طَرِيقَ الخَلاصِ .

ويَكونُ يَوْمًا سَعِيدًا ، لَوْ سَبَقَ مَوْلاىَ ، وشَرَّفَ مِصْرَ بِامْتِلاكِها ، وأَبْعَدَ عَنْها أُولئِكَ المُفْسِدِينَ أعْداءَ الدِّينِ ، وأَراحَ القُلوبَ الَّتِى تَكادُ تَقْفِزُ مِن صُدورِها ، فَزَعًا مِنْ أُولَئِكَ الذِّئابِ .

وإذا أَرادَ مَوْلاىَ أنْ يُتِمَّ فَضْلَه ، أعادَنِى إلَى الوِزارَةِ ، لأَعْمَلَ مَعَه بِما يُرْضِى اللهَ ، ويَدْفَعُ الشَّرَّ عَنِ البِلادِ .

(٣)

لَمْ يُجِبْ نُورُ الدِّينِ بِشَىْءٍ ، وظَلَّ صامتًا يُفكِّرُ ، ويَنْظُرُ إِلَى وزيره أَسَدِ الدِّينِ شيركُوه ، الأَيُّوبِىِّ ، الَّذِى كانَ يُفكِّرُ مِثْلَه فِيما يَسْمَعُ .

ولَمَّا رَأَى شاوِرُ مِنْ نُورِ الدِّينِ هذا السُّكوتَ ، قالَ ووَجْهُهُ مَكْسُوٌّ بِما يُؤَكِّدُ صِدْقَه وإِخْلاصَه ومَحَبَّتَه :

- إِنَّها صَفْقَةٌ رابِحَةٌ يا مَوْلاىَ ، تَعودُ بِالخَيْرِ علَى الإِسْلامِ والمُسْلِمينَ ، تُبْقِى المَساجِدَ مُفَتَّحَةَ الأَبْوابِ ، تُقامُ فِيها الشَّعائِرُ ، وتَدَعُ المآذِنَ عالِيَةً يُجَلْجِلُ مِنْ فَوْقِها اسْمُ اللهِ ، تَدْعُو إِلَى الصَّلاةِ والفَلاحِ .

وبِها يا مَوْلاىَ يَغْدُو الشَّامُ ومِصْرُ يَدًا واحِدَةً ، تَسيرُ إِلَى الفِرَنْجِ وتَضْرِبُهُم ضَرْبَةً قاصِمَةً ، وتُخَلِّصُ القُدْسَ مِنْ قَبْضَتِهِم ، وتَفْتَحُ أَبْوابَه لِعِبادِ اللهِ المُتَلَهِّفينَ علَى زِيارَتِه ، الباكِينَ بِالدُّموعِ الدَّامِيَةِ لإِقْصائِهِم عَنْه ، وتَأْخُذُ يامَوْلاىَ بِثَأْرِ مَنْ قُتِلُوا ظُلْمًا ، لا لِشَىْءٍ إِلَّا أَنَّهُم مُسْلِمونَ يَقولُونَ : رَبُّنا اللهُ .

وَإِذا كانَ مَوْلاىَ يُفَكِّرُ فِى المالِ الَّذِى يُعِينُ علَى الجِهادِ ، فَإِنْ رَجَعْتُ بِإِذْنِ اللهِ إِلَى الوِزارَةِ ، قَدَّمْتُ لِمَوْلاىَ مِنْ خَيْرِ مِصْرَ جَميعَ ما يَلْزَمُ مِنَ المالِ الكَثيرِ ، الَّذِى يَكْفِى الجَيْشَ ، ويُغَطِّى جانِبًا كَبيرًا مِنْ نَفَقاتِ الجِهادِ بِالشَّامِ :

ثُلُثُ إِيرادِ مِصْرَ لِمَوْلاىَ وَحْدَه ، وثُلُثٌ آخَرُ لِجُنْدِه ، ونَفَقاتِ جَيْشِه طُولَ إِقامَتِه بِمِصْرَ ، يُؤَدَّى كُلُّ ذلك علَى خَيْرِ وَجْه .

التَفَتَ نُورُ الدِّينِ إِلَى وَزِيرِه أَسَدِ الدِّينِ ، فَأَسْرَعَ الوَزِيرُ يَعْرِضُ عَلَيْه رَأْيَهُ ، ويَقولُ فِى حَماس :

- نَعَمْ يا مَوْلاىَ ، مِصْرُ صَفْقَةٌ رابِحَةٌ لِلإِسْلامِ والمُسْلِمينَ ، بِها تَتَوَحَّدُ القُوَى ، ويُحْصَرُ الفِرَنْجُ بَيْنَ نارَيْنِ ، فَإِذا وافَقَ مَوْلاىَ علَى المَسيرِ إِلَيْها ، كانَ خَيْرًا وبَرَكَةً ، وتَوْفِيقًا مِنَ اللهِ ، الحافِظِ لِدِينِه بِأَيْدِى عِبادِه المُخْلِصينَ .

ومـا دامَ شاورُ يَعْرِضُ هذا العَرْضَ ، مُتَحمِّسًا للمُشارَكَةِ فِى الجِهادِ ، فلَيْسَ هُناكَ ما يَمْنَعُ من أنْ نُبادِرَ بالسَّيْرِ إلَى مِصْرَ ، ونُعاوِنَ هذا الرَّجُلَ الَّذى الْتَجأَ إلَيْنا ، ونَنْصُرَه على أُولئكَ الخَوَنَةِ الَّذينَ باعُوا دِينَهُم ووطَنَهُم ، وفَضَّلُوا جانِبَ أَعْداءِ اللهِ ، وارْتَمَوْا فِى أَحْضانِهِم .

كـانَ نُورُ الدِّينِ خـائِفًـا على جُنْدِ الشَّامِ ، مِنْ خَطَرِ الطَّرِيقِ ، فَـأُولئِكَ الفرنْجُ يَتوسَّطُونَ بَيْنَ القُطْرَيْنِ الشَّقِـيقَـيْنِ ، ويَفْـصِلونَهُـمـا ، وقَدْ مَدُّوا سُلْطانَهُم علَى كَثيرٍ مِنَ البِقاعِ ، الَّتِى تُهَدِّدُ مَنْ يَسيرُونَ مِنَ الشَّامِ إلَى مِصْرَ ، ومَنْ يَسيرُونَ مِنْ مِصْرَ إلَى الشَّامِ ، فَظَلَّ صامِتًا ولَمْ يُعقِّبْ بِشَىْءٍ ، فَعادَ أَسَدُ الدِّينِ يُحَبِّبُه فِى المَسيرِ ، ويُهَوِّنُ الأَمْرَ عَلَيْه ، قائلاً فِى جِدٍّ :

- أمَّا أنَّ الفرنْجَ يا مَوْلاىَ ، فِى وَسَطِ البِلادِ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ، فَلَنْ يَعْدَمَ القائدُ الماهِرُ ، أنْ يَجِدَ حَلاًّ لِكُلِّ مُشْكِلَةٍ تَعْتَرِضُ سَبيلَهُ إلَى النَّصرِ ، ولَنْ يَعْجِزَ عَنْ أَنْ يُجَنِّبَ جَيْشَه خَطَرَ الفرنْجِ ، بِالبُعْدِ عَنِ الحُصونِ الَّتِى زَرَعوها علَى الطَّرِيقِ ، أَوْ يُنازِلَهُم ويَهْزِمَهُم ، بِقُوَّةِ اللهِ ، وقُوَّةِ الحَقِّ الَّذِى يَمْشِى علَى هُداه .

وأَرَى يا مَـوْلاىَ فَـوْقَ مـا يَعْـرِضُ شـاوِرُ مِنَ المالِ والعَـوْنِ ، أَنْ يَنْزِلَ لِمَوْلاىَ عَنْ بَعْضِ أَطْرافِ مِصْرَ ، ويَعْـتَرِفَ بِسُلْطانِ مَوْلاىَ علَى مِصْرَ كُلِّها ، فَجِهادُ مَوْلاىَ مُوَجَّهٌ إلَى الفرنْجِ ، وطَرْدِهِم أَوْ القَضاءِ علَيْـهِم ، وثُبوتُ قَدَمِه يُعينُه علَى أَنْ يُطْبِقَ الشَّرَكَ علَى الصَّيْدِ ، ويُتِمَّ بِهِ النَّصْرَ .

فاسْتَحْسَنَ نُورُ الدِّينِ هذا الرَّأْىَ ، وأَسْرَعَ شاوِرٌ يَقولُ مُوافِقًا :

- رَضِيتُ بِكلِّ ما يَفْرِضُ مَوْلاىَ ، فَالقُلوبُ مُتَّفِقَةٌ علَى الهَدَفِ ، والهَوَى واحِدٌ ، ولَوْ عَجَّلَ مَوْلاىَ وسَبَقَ الفرنْجَ ، لَكانَ أَفْضَلَ وأَكْثَرَ خَيْرًا .

قالَ نُورُ الدِّينِ وهُوَ يَتأَمَّلُ شاوِرًا ، ويُحاوِلُ أَنْ يَصِلَ إلَى ما فِى قَلْبِه :

- الصِّدْقُ يا شاوِرُ أكْبَرُ مُعِينٍ على الفَوْزِ ، والخِداعُ وَخيمُ العَواقِبِ ، وعَهْدُ اللهِ بَيْنَنا وبَيْنَكَ ، عَلَى الإخْلاصِ والوَفاءِ بِكُلِّ ما اتَّفَقْنا عليهِ .

- وعَهْدُ اللهِ يا مَوْلاىَ .

- ويَمِينُ اللهِ ياشاوِرُ .

- ويَمِينُ اللهِ يا مَوْلاىَ . أُقْسِمُ بِاللهِ العَظِيمِ أَنْ أَفِىَ بِوَعْدِى ، واللهُ على ما أقولُ وَكِيلٌ .

فالْتَفَتَ نُورُ الدِّينِ إِلَى أَسَدِ الدِّينِ ، وأَمَرَه بِإعْدادِ الجَيْشِ ، والإسْراعِ به إِلَى مِصْرَ ، وإعادَةِ شاوِرٍ إِلَى الوِزارَةِ ، والإقامَةِ هُناكَ بَعْضَ الوَقْتِ ، لِيَقْطَعَ الطَّرِيقَ على الفِرِنْجِ ، الَّذِينَ اسْتَعَدُّوا لِيَسْبِقُوه .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى شَابٍّ جالِسٍ مَعَهُم ، شَدِيدِ الإنْصاتِ إِلَى الحَدِيثِ ، فِى نَحْوِ السَّابِعَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِه ، تَبْدُو عَلَيْه مَخايِلُ الذَّكاءِ والشَّجاعَةِ والعَزْمِ ، ويَنْطِقُ وَجْهُهُ بالشَّوْقِ الشَّدِيدِ إلى الجِهادِ ، وتَأَمَّلَه طَوِيلاً ، ثُمَّ أَرْجَعَ البَصَرَ إِلَى أَسَدِ الدِّينِ ، وقالَ فى اهْتِمامٍ :

- وهذا ابْنُ أَخِيكَ يُوسُفُ يا شِيرَكُوه ، قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَ الفُرْسانِ الشُّجْعانِ ، تَرَبَّى فِى مَدْرَسَتِنا ، ووَعَى الكَثِيرَ مِنْ مَبادِئِنا وفُنونِ قِتالِنا ، وقامَ بِقِيادَةِ الشُّرْطَةِ فى دِمَشْقَ على خَيْرِ ما يُرْجَى ، فَخُذْه مَعَكَ إِلَى مِصْرَ ، لِيُتِمَّ هُناكَ تَعْلِيمَه وتَدْرِيبَه ، ويَعْرِفَ أَسالِيبَ حَرْبِكَ وفُنونَها ، فَإِحْساسِى كَبِيرٌ ، بِأَنَّ لَه دَوْرًا عَظِيماً فِى المَعْرَكَةِ الفاصِلَةِ إِنْ شاءَ اللهُ .

١ «سمع ذلك البطل المستتر فى الأرض الطاهرة، أنين الجماهير المطحونة، وزفراتهم المحترقة. فشق الأرض وخرج منها، شاهرا سيفه، حادا رمحه، ليتم رسالة أبيه، الذى مضى وأخلى العرين، محزونا على أنه لم يتمها»

(أ) تخير الإجابة الصحيحة، مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (أنين) : (بكاء - توجع - شكوى)
- مفرد : (زفرات) : (زفير - زفرة - زُفَرُ)
- (وأخلى العرين) «العرين» هو :

(مأوى الفيل - مأوى الأسد - مأوى الصقر)

(ب) من الأب الذى مضى ؟ وما رسالته ؟

(جـ) ما موقف الفرنج من هذا البطل ؟

٢ «كان لسقوط مدينة الرها دوى شديد فى أسماع الفرنج، خلع قلوبهم، فأسرعوا يجتمعون ويتشاورون، ليردوا عنهم هذه القوة الكاسحة، التى تندفع إليهم فى سرعة وشدة»

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

= معنى : (الكاسحة) : (الشديدة - المزيلة - السريعة)
= مضاد : (تندفع) : (تمتنع - تتراجع - تتوقف)

(ب) من الذى فتح مدينة الرها ؟ ولماذا بدأ بها ؟

(جـ) كان لسقوط مدينة الرها دوى شديد فى أسماع الفرنج . وضح ذلك .

٣ «ولا تنس أيها الأمير أن بعضنا قد تعب من الحرب، التى لا تنقطع بيننا وبينهم، ويئس من النصر الحاسم عليهم، ورأى أنه لم يحقق الأمل الذى جئنا من أجله وله الحق فى يأسه، فقد جئنا إلى الشرق لنعيش فى جناته، لا لنروى أرضه بدمائنا، ونخلط ترابها بأجسادنا، فتنبت لهم أبطالا صناديد كما نرى!»

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايلى :

- معنى : (الحاسم) : (الفاصل - القاطع - الشديد)

- مضاد : (تنقطع) : (تتجاور - تتصل - تلتصق)

(ب) لماذا يئس البعض من النصر الحاسم ؟

(جـ) تكشف العبارة عن السبب الحقيقى وراء مجىء الفرنج إلى الشرق . وضح ذلك .

٤ «اندفعت هذه الحملة الضخمة إلى الشرق، بحماس الأحلام والأمانى، وضراوة الحقد والحسد، وفورة التوحش والعدوان، والعام السادس والأربعون بعد المائة والألف من الميلاد، يطل عليها، عاجبا لها، ساخرا منها؛ لأنها تتجاهل ما حل بإخوانها، ولا تقدر شيئا مما يخبئ القدر للمعتدين الظالمين»

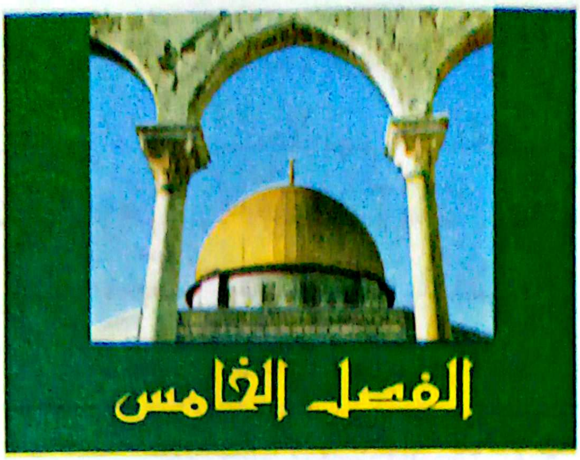
(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لمايأتى :

- مفرد : (الأمانى) : (الْمُنْيَة - الأمنية - الْمَنِيَّة)

- مضاد : (يخبئ) : (يعلن - يظهر - يوضح)

(ب) لماذا اندفعت الحملة إلى الشرق ؟ وماذا كان مصيرها ؟

(جـ) «كان القدر ساخرا من اندفاعها» بم توحى هذه العبارة ؟



وحدة مصر والشام

(١)



انْطَلَقَ أَسَدُ الدِّينِ بجَيْشِه ، يَطْوِى الطَّرِيقَ مُسرِعاً إِلَى مصْرَ ، حتَّى لاَ يَسْبقَه الفرنجِ إِلَيْها ، ومَعَه ابْنُ أَخيه صلاحُ الدِّين ، وتَغَلَّبَ علَى ضرْغام ، وقتلَه ، وأعادَ شاورًا إلَى الوِزارَة .

لكنَّ النُّفوسَ الخَبيثَةَ الغادرَةَ ، لا تَفى بعَهْد ، ولا تَرتَبطُ بوَعد ، فما كادَ شاورٌ يَسْتَقرُّ فى مَنْصبه ، ويَضْمَنُ حياتَه بمَوْت ضرْغام ، حتَّى أخْلفَ وَعْدَه ونَقَضَ عَهْدَه ، ولَمْ يُنفِّذ شيْئًا ممَّا اتَّفقَ علَيه ، بَلْ زادَ فى نقضه للْعَهْد ، وبَعَثَ إِلَى أَسَد الدِّينِ يَطلُب منه مغادَرَة البلاد ، والعَوْدَةَ منْ حيْثُ أَتَى ، فَغَضبَ شيرَكُوه غَضَبًا شديدًا ، ورَفَضَ أنْ يعودَ ، خوْفًا منْ أنْ يُقْبلَ الفِرَنْجُ ، ويُسَلِّمَهُم هذا الغادرُ البلادَ ، وعَزَمَ علَى أَنْ يُرْغمَه علَى الوَفاءِ بالعهْد .

فَلمَّا رأى شاورُ أنه جادٌّ فى تَهْديده ، جَعَلَ يُفكِّرُ فى إِبعاده بالقُوَّة ، ولكنْ أيَّةُ قُوَّة لدَيْه ، قادرَةُ علَى أَسَد الدِّينِ وجَيْشه؟!

ولَمْ يَطُلْ بِه التَّفْكيرُ ، وانْتَفضَ صَائِحًا يَقُولُ فى فَرَحٍ :

– لَيْسَ هُنَاكَ سِوَى الفرنج ، أَلْجأُ إِلَيْهِمْ وأَرْتَمِى فى أحْضَانِهِم .

ولَمْ يَتَمَهَّلْ ، وأسْرَعَ يسْتَنْجِدُ بهم ، ويُقَدِّمُ لهُمُ الوُعُودَ السَّخيَّةَ ، ويُمَنِّيهِم بمِصْرَ وخَيْراتها ، ويُؤكِّدُ لَهُمْ أنَّ احْتلالَها سَيكونُ ضَرْبَةً قوِيةً لنور الدِّينِ ، تجْعَلُهُ يفْقدُ آماله فى القُدْسِ وانْتزاعه منْهُم .

وما بَلَغَ الفرنْجَ اسْتنْجاده بهم ، حَتَّى طارُوا فرَحًا ، ورَقَصُوا طَرَبًا لهذه الفُرْصَةِ الثَّمينة الَّتى سَعَتْ إِلَيْهم ، ولَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعونَها ، وهَبُّوا مُسْرِعينَ يَسْتعدُّونَ لِلسَّيْرِ إِلَى تِلْكَ الجنَّاتِ ، الَّتى كانُوا يَتَلَهَّفونَ عليها ، والقُوَّةِ الكَبيرَةِ الَّتى كانوا يَحْلُمُونَ بِضَمِّهَا .

وأَسْرَعَ مَلِكُ القُدْسِ إِلَى المَلِكَةِ الخائفَةِ مِنَ الأيَّامِ ، يُطَمْئِنُها ، ويَقولُ لَها فى سُرورٍ :

– أبشرى يا عَزيزَتى ، فَقَدْ أقْبَلَ الحَظُّ السَّعيدُ يَطرُقُ أبوابَنا ، وآنَ لَنا أَنْ نَثِبَ عَلَى العَرَبِ ، ونطْرُدَهُم مِنْ هَذِهِ الدِّيَارِ ، ونُثَبِّتَ أقْدامَنا فيها ونَتفَرَّغَ لِحَيَاتنا ومُتَعنا .

قالَتْ ، ولاَ يَزالُ الهَمُّ يَعْصِرُ فُؤادَها :

– وماذا جَرَى أيُّها المَلِكُ ؟! . كَيْفَ تَغَيَّرَ الحالُ وجاءَتِ الرِّيحُ فى جانبنا ، وكانَتْ دائمًا عَلَيْنا؟! .

قالَ بِوَجْهٍ مَبْسوطٍ وعَيْنَيْنِ ضاحِكَتَيْنِ :

– مِصْرُ يا عَزيزَتى ! مِصْرُ! .

أقْبلَتْ بِنَفْسِها تَدْعُونا وتَسْتَنْجِدُ بنا ، وَسَوْفَ نُسْرِعُ إِلَيْها ونَمْلكُها ، وبجيُوشِها وجُيُوشِنَا ، وأَساطيلِها وأَساطيلِنَا ، سنَمْلِكُ الشَّامَ كُلَّهُ ، ولاَ نُبْقِى فيه عَرَبيًا واحدًا ، ثُمَّ نَنْطَلِقُ بَعْدَه إِلَى الدُّنيا الواسعَةِ! .

افْرَحِى يا مَلِكَتِى ، واطْرُدِى الخَوْفَ الَّذِى يُعَكِّرُ صَفْوَكِ ، فطالَما قُلْتُ

لك : لاَ تيْأَسِى ، فَلاَ بُدَّ للجَوِّ مِنْ أنْ يَعْتَدِلَ ، وتَصْفُوَ السَّمَاءُ ، وتُشْرِقَ الشَّمْسُ ويَضِىءَ القَمَرُ .

وتحرَّكَت الحَمْلَةُ الإفرنْجيَّةُ إِلَى مِصْرَ ، كَبيرَةَ الأَمَلِ فِى النَّصْرِ ، قَدْ أَقْنَعها عَمُورى مَلِكُ القُدْس ، بِأنَّها لَنْ تَجِدَ هُناكَ مُقاوَمَةً مادَامَ شاوِرُ مَعَها .

جَيْشٌ جرَّارٌ ، مُزوَّدٌ بالعُدَدِ والعَتادِ والرِّجالِ الأَشِدَّاءِ ، كَبيرُ الأَطْماعِ ، بَلَغَ مِصْرَ واشْتَبَكَ مَعَ أَسَدِ الدِّينِ فِى مَعَارِكَ طاحِنَة ، ومِنْ خَلْفِه شاوِرٌ يُساعِدُه بِمَكْرِه وخُبْثِه ، يَتَجَسَّسُ لَه ، ويُثِيرُ النُّفوسَ علَى شِيركُوه ، ويُذِيعُ الأَخْبارَ الكاذِبَةَ عَنْه ، يَتَرَقَّبُ هَزِيمَتَه يوْمًا بَعْدَ يَوْم .

وما بَلَغتْ نُورَ الدِّينِ أَخْبارُ هذه الحَرْبِ ، حَتَّى نَهَضَ مُسْرِعًا لِيُعِينَ قائِدَه ، ويَمْنَعَ مصْرَ مِنَ السُّقوطِ فى أيْدِى الفِرِنْج .

ولَمْ يُفكِّرْ طَوِيلاً ، فِى الجُيوشِ الكَبِيرَةِ الَّتى يَجْمَعُها ، فَقُلُوبُ المُسْلِمِين فائِرَةٌ ، يَوَدُّ كُلٌّ مِنْهُم أَنْ يَطِيرَ إِلَى المَعْرَكَةِ ، ويَلْقَى اللَّهَ شَهِيدًا ، قَدْ شارَكَ فِى تَخْلِيصِ القُدْسِ .

الشَّعْبُ كُلُّه فِى حَماسٍ شَدِيد للتَّخَلُّصِ مِنَ الفِرِنْج ، وكَثِيرٌ مِنَ الأُمَراءِ المُتَنَازِعِينَ ، قَدْ صَحَوْا ، وتَنَبَّهُوا لِلخَطَرِ الكَبِيرِ المُحِيطِ بِهم ، وتَقارَبُوا ، واتَّفَقُوا علَى السَّيرِ مَعًا إِلَى الجِهادِ فى سَبِيلِ اللهِ .

وأَسْرَعَ نُورُ الدِّينِ ، وبَعَثَ إِلَى أَخِيه قُطْبِ الدِّينِ صاحِبِ المَوْصِلِ ، وإِلَي أُمَراءِ المُسْلمينَ بالجَزِيرَة ، يَدْعُوهُم إِلَى الحَرْبِ ، فَاسْتَجابُوا لَه ، وأَقْبَلُوا بِجُيوشٍ كَثِيرَةٍ ، تَجمَّعَ مِنها جَيْشٌ ضَخْمٌ ، شَدِيدُ الشَّوْقِ إِلَى لِقاءِ الفِرِنْجِ والقَضاءِ علَيْهِم ، واسْتَعَدَّ يَنْتَظِرُ الأَمْرَ .



لكنَّ الطَّرِيقَ إلَى مِصْرَ طَوِيلٌ ، وحَتَّى يَبْلُغوها ، يكونُ ما يَخْشَوْنَ قَدْ حَدَثَ ، فَما العَمَلُ ؟!

انْتَفَضَ نُورُ الدِّينِ يَقُولُ فى عَزْمٍ وثِقَةٍ : فَلْيَكُنِ اللِّقاءُ هنا ، فى الشَّامِ لاَ فى مِصْرَ .

- وكَيْفَ أيُّها القائدُ العَظِيمُ ؟! . كَيْفَ يَكونُ اللِّقاءُ هُنا لا هُناكَ ، وحَتَّى يَعودُوا يَكونُ السَّامِرُ قَد انفضَّ ؟!

- نَضْرِبُ بَعْضَ بِلادِهم هُنا ضَرْبًا قاتلاً ، تَطِيرُ له قُلوبُ مَنْ هُناكَ ، فَيَتْرُكونَ المَعْرَكَةَ ، ويَعودُونَ مُسْرِعينَ لِيُخَلِّصُوا هَذه البِلادَ الصَّارِخَةَ مِنْ أيْدِينا ، ويَنْجُو أسَدُ الدِّينِ وجَيْشُه مِنْهم .

وجَعَلَ يُفَكِّرُ فى مَكانِ الضَّرْبَةِ النَّافِذَةِ ، الَّتِى لا تَدَعُ لِلْفِرِنْجِ فِى مِصْرَ فُرْصَةً للتَّأخُّرِ ، وقالَ فى حماسٍ وثِقَةٍ :

- «حَارِمُ» أيُّها الأبْطالُ ، أقْوَى مُدُنِهم وأمْنَعُها ، ذَاتُ مَنْزِلَةٍ كَبِيرَةٍ لَدَيْهِم ، يُقَدِّسونَها كَما تَعْلَمون ، ويُفَدُّونَها بِأرْواحِهِم ، فَإلَيْها لِنَدُكَّها دَكًّا .

ولا تَنْسَوْا أنَّ الفِرِنْجَ هُنا ، سَيُسْرِعُون إلَيْكُم بِجُموعِهِم ، لِيُدافِعوا عَنْها ، ويُؤَخِّروا اقْتِحامَنا إيَّاها ، حَتَّى يَعودَ عَمُورِى وجَيْشُه مِنْ مِصْرَ ، ويَشْتَبِكَ مَعَنا ويَرُدَّنا كَما يَتَخَيَّلُونَ .

(٢)

صَدَقَ ما تَوَقَّعَ نُورُ الدِّينِ ، فَلَمْ يَكَدْ فِرِنْجُ الشَّامِ يَعْلَمُون بِحصارِ «حارِمَ» حَتَّى انْخَلَعَتْ قُلوبُهم ، وجَمَّعُوا جُموعَهُم لِلدِّفاعِ عَنْها ، وجَنَّدوا كُلَّ مَنْ يَرَوْنَه يَصْلُحُ لِلْقِتالِ ، مِنَ المُحارِبِينَ الَّذِين وَجَدُوهم ، ومِنْ غَيْرِ المُحارِبِينَ ، الَّذِين

لا يعرفون شيئًا عن المعارك ، وأسرعوا إلى «حارم» ، رجالاً ونساء ، كبارًا وصغارًا ، مُشاةً ورُكبانًا . . ، يقودهم صاحب «أنطاكية» وصاحب «طرابلس» وغيرهما من الأمراء الذين أفزعهم الحصار ، يصيحون بالويل للعرب ، والفناء للإسلام والمسلمين .

ونور الدين يُشجّع جنوده ، ويُطمئنهم ، ويقول لهم : لا تخافوا أيها الأبطال ، فالثقة بالله والخطة المحكمة ، تهدّ الجبال الرواسي ، وقد وفّقني ربّي إلى الخطة الحكيمة ، فاسمعوا وعوا :

سيبدأ الفرنج عند اللقاء بالحملة على ميمنتنا ، وبها جنود «حلب» فإذا اشتد القتال ، تُظهر هذه الميمنة أنها زُلزلت[1] ، ولم تعد تطيق البقاء ، وتولّى الأدبار .

أنتم معي؟

حينذاك يشتد فرح الفرنج ، ويتبعون المنهزمين بفرسانهم ، فيستمر الفارّون في انهزامهم ، ويُبعدون في فرارهم ، ويُبعد الفرسان الفرنج خلفهم ، أملاً في إدراكهم ، فينكشف مُشاتهم ، ويُصبحون وحدهم بغير غطاء من الخيل وأصحابها يحميهم .

واضح ؟

عندئذ يميل من بقي منّا على مُشاتهم ، ويخلعون رقابهم ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، الذين لم يُدركوهم ، لم يجدوا من مُشاتهم من يلجئون إليهم ، وهنا تكون النهاية .

في هذا الوقت ، يرجع المنهزمون منّا ، خلف فرسانهم العائدين بالخزي ، وتحصدهم سيوفهم ، ولا تُبقي منهم باقية .

---

(١) زلزلت : اضطربت .

فَلَمَّا الْتَقَى الْجَمْعَانِ، وحَمِىَ القتالُ، نَفَّذَ المُسْلمون الخطَّةَ الَّتى اتَّفقوا، عَلَيْها بِدِقَّةٍ ومَهارةٍ، وانْطَلَت الخُدْعَةُ على الفِرِنْجِ وطَحَنَتْهُم.

وكانَتْ هذه المَوْقِعَةُ شَرَّ ما نَزَلَ بالفِرِنْجِ، مُنْذُ وَطِئَتْ أقْدامُهم الأرْضَ الطَّاهِرَةَ ودَنَّسَتْها.

فَمعَ الألوفِ المُؤَلَّفَةِ، الَّتى التَهَمَتْهُم أشْداقُ المَعْرَكَةِ مِنَ الفِرِنْجِ، أَسَرَ المُسْلِمُونَ جَميعَ قُوَّادِهم وأُمَرائِهِمْ، ودَخَلُوا «حارِمَ» واسْتَوْلَوْا عَلَيْها، وتَمَّ بهذا النَّصرِ ما أرادَ نُورُ الدِّين، مِنْ إنْقاذِ قائِدِه أسَدِ الدِّينِ وجَيْشِه.

فَمَا كادَ الفِرِنْجُ في مِصْرَ يَسْمَعُونَ بحِصارِ هذه المَدِينَةِ حَتَّى طارَ صَوابُهُم، وَحَزَمُوا أَمْتِعَتَهُم، وبَعَثُوا إلى أَسَدِ الدِّينِ مُتَوَسِّلِينَ، يَطْلُبونَ الصُّلْحَ، وإنْهاءَ القِتالِ على ما يُحِبُّ أنْ يَكونَ، وأَسْرَعُوا عائِدِينَ إلى الشَّامِ، لِيُنْقِذُوا المَدِينَةَ المُقَدَّسَةَ، مِنَ السُّقوطِ في أَيْدِى المُسْلِمِينَ.

لكِنَّ الأوانَ كانَ قَدْ فاتَ، فَما بَلَغُوا الشَّامَ حَتَّى وَجَدُوا المَدِينَةَ قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ أيْدِيهم، ووجَدُوا البَشائِرَ تَطِيرُ بنَصْرِ جُنْدِ الله، وتُرَفْرِفُ بأجْنِحَتِها الخُضْرِ في جَوِّ السَّماءِ، تَمِيلُ وتَعْتَدِلُ، وتَرْقُصُ وتُغَنِّى، فَصُعِقُوا، وسارُوا يَجُرُّونَ أَرْجُلَهُم، يَبْتَعِدُونَ بِها، حَتَّى لا يَلْحَقَهم ما لَحِقَ إخْوانَهُم مِنَ الدَّمارِ.

ونُورُ الدِّينِ جَالِسٌ فِي مَهابَتِه، يَتَقَبَّلُ التَّهانِىَ، ويَسْتَمِعُ إلى الخُطَباءِ الَّذِينَ رَقَّتْ كَلِماتُهُم، وامْتَزَجَتْ بِدُمُوعِهِم، فَزادَتْ عِباراتِهم تأْثِيرًا، وزادَتْ القُلوبَ حَماسَةً وعَزْمًا.

ثُمَّ يُنْصِتُ إلى الشُّعراءِ، الَّذِينَ غَنَّتْ قَصائِدُهم بِلَحْنِ الجِهادِ، تَقْطُرُ أبْياتُها شَجاعَةً وإقْدامًا، وتَدْفَعُ الأَيْدِىَ فَتُصَفِّقُ، والأَجْسادَ فَتَتَمايَلُ، يَزْدادُ طَرَبُ المسْلِمِينَ بِها، وهِىَ تُبَشِّرُ بِيَوْمِ القُدْسِ الَّذى اقْتَرَبَ، وما سَيُلاقِى الفِرِنْجُ فِيه مِنْ هَوْلٍ أَشَدَّ مِنْ «حارِمَ».

ثُمَّ الْتفتَ إلى وَزِيرِه الْمُمتلِئ العَيْنَيْنِ بِدُمُوعِ التَّأثرِ، وقَالَ لَهُ فِي سُرور:

- الْحَمْدُ لله، اقْترَبْنا مِنَ القُدْسِ، وسَوْفَ نَدْخُلُه إنْ شَاءَ اللهُ قريبًا آمين، نُقِيمُ فِيه الصَّلاةَ الجامعَةَ.

وصَمَتَ لَحْظَةً، ثُمَّ عادَ يقولُ فِي تأثرٍ شديدٍ:

- لكنَّهم حَطَّمُوا المنَابرَ، فِيمَا حَطَّمُوا مِنْ مَعالِمِ الإسْلام، فَلْنَسْتَعِدَّ بِمِنْبرٍ عَظيمٍ، يَليقُ بذلكَ اليَوْمِ العَظِيمِ، يَصْعَدُ فِيه الخَطِيبُ ويُحَيِّى يَوْمَ النَّصْرِ، ويَهُزُّ الجُدْرانَ كَما يَهُزُّ القُلوبَ.

وأعادَ النَّظَرَ إلَى الجَمْعِ الضَّخْمِ المُلْتَفِّ حَوْلَه، ثُمَّ قالَ فِي ثِقَة:

- أمَلِي كَبِيرٌ فِي عَوْنِ اللهِ أيُّها الأَحِبَّاءُ، والنَّصْرُ أمامِي يُحادِثُنِي ويَبْتَسِمُ لِي، ويُؤكِّدُ أنَّه اقْتَرَبَ مِنِّي، فَأحْضِروا لِي حَمِيدَ الدِّينِ بْنَ ظَافِرٍ الحَلَبِيَّ، وسُلَيْمانَ بْنَ مَعَالِي، عاجِلاً.

فَلما حَضَرا، هَشَّ لَهُما وبَشَّ، وحَيَّاهُما أحْسَنَ تَحِيَّةٍ، وقرَّبَهُما مِنْه، ثُمَّ قالَ باسِمًا:

- أتَعْرِفانِ أيُّها المُهَنْدِسانِ المَاهِرانِ لِمَ دَعَوْتُكُما؟

ولَمْ يَنْتَظِرْ إجابَتَهُما، وقالَ فِي سُرورٍ:

- أُرِيدُ مِنْكُما مِنبرًا فخمًا، مُرَصَّعًا بالجَواهِرِ والدُّرَرِ، لَمْ يُصْنَعْ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ، أضَعُه فِي بَيْتِ المَقْدِسِ يَوْمَ النَّصْرِ، فَهَلْ يُمْكِنُ لكُما إتْمامُه فِي أسْرَعِ وقْتٍ، علَى أكْمَلِ صُورَةٍ؟

ولَمَّا رَأى العُيونَ تَتَحادَثُ، وقرأَ فيها أنَّها تَقولُ فِي عَجَبٍ: وأيْنَ بَيْتُ المَقْدِسِ اليَوْمَ مِنَّا؟! قالَ ودُموعُ الثِّقةِ تَتأرْجَحُ فِي عَيْنَيْهِ:

- إنه آتٍ قريبًا بعَوْنِ اللَّه ، ندْخُلُه إنْ شاءَ اللَّهُ مُهلِّلين ، مُكَبِّرين ، مُلَبِّين ، نُصلِّى فيه صَلاةَ الشُّكْرِ للّه على ما أعْطانَا من فضْله ، ونستمعُ إلى الخطيبِ البَليغ ، وهُوَ يُرطِّبُ بكَلامِه قلوبَنا ، ولابُدَّ من أنْ يُلقى خُطْبَته العَظيمَةَ فى ذلكَ اليَوْمِ العَظيم من فَوْقِ منْبرٍ عَظيم اقْتربَ الوَعْدُ الحَقُّ أيُّها المُؤمنُونَ ، ولِقاءٌ مثْلُ لقاء «حارم» يُنْهى كُلَّ شىْءٍ بإذْنِ اللَّه .

ثُمَّ الْتفتَ إلى المهنْدسيْن ، وقالَ فى أمَلٍ كَبير :

- أُريدُ ذلكَ المِنْبَرَ تُحْفَةً تَليقُ بجَلالِ الفَتْحِ المُبين ، يَتلألأُ بجَواهِره ودُرَرِه ، وغالى خَشَبِه ، ودقَّةِ صُنْعِه ، فى وَسَطِ المَسْجِدِ الأقْصى ، وتنْعَكِسُ علَى أصْوائِه كَلِماتُ الخَطيبِ المُتَدفِّقَةُ ، فيُشَعْشِعُ القُلوبَ ويَسْمُو بها إلَى السَّماءِ العاليَة .

ثُمَّ الْتفتَ إلَى القُوَّادِ وقالَ فى عَزْمٍ :

- هيَّا أيُّها الأبْطالُ ، لِنَضعَ هذا المِنْبَرَ سَريعًا فى مَكانه ، الَّذى قُدِّرَ لَه أنْ يُوضعَ فيه ، فقَدْ آنَ الأوانُ لاسْتِرْدادِ الحَقِّ المَغْصُوبِ ، وإعادَةِ القُدْسِ المَسْلُوبِ .

(٣)

عَرَفَ نُورُ الدِّينِ قَدْرَ مِصْرَ ، وقيمَتَها فى تَحْقيقِ الوَحْدَةِ الإسْلاميَّةِ الشَّامِلَة ، فَجَرَّدَ إلَيْها حَمَلاتٍ ثَلاثًا قَويَّةً ، قادَها وَزيرُه أسَدُ الدِّين شيرَكُوه ، ومَعَه ابْنُ أخيه ، الشَّابُّ الشَّديدُ النَّشاط والذَّكاء ، يُوسُفُ صَلاحُ الدِّينِ الأيُّوبىُّ ، يَدًا يُمْنَى ، ومُشيرًا مُخْلصًا ، ومُحارِبًا باطِشًا ، حَتَّى تَمَّ لِشيرَكُوه النَّصْرُ ، ووَضَعَ يَدَه عَلَيْها .

ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنَ الصُّعُوبَاتِ الَّتِى وَقَفَتْ فِى طَرِيقِه ، مِنْ أَلاَعِيبِ الفِرِنْجِ الَّذِينَ لَمْ يَهْدَأُوا ، وَمِنْ أَتْبَاعِ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ جُرِّدُوا مِمَّا كَانُوا يَمْرَحُونَ فِيه ، مِنْ أَرَاضِى الدَّوْلَةِ الوَاسِعَةِ وَأَمْلاَكِهَا وَأَمْوَالِهَا ، فَأَلْقَى إِلَيْهِ الخَلِيفَةُ الفَاطِمِىُّ زِمَامَ الأُمُورِ ، وَجَعَلَه سُلْطَانًا لِمِصْرَ ، بِيَدِه الأَمْرُ وَالنَّهْىُ ، وَالحَلُّ وَالرَّبْطُ .

فَنَهَضَ مُشَمِّرًا ، يَعْمَلُ بِجِدٍّ فِى سَبِيلِ الإِصْلاَحِ ، وَتَرْسِيخِ أَقْدَامِه فِى البِلاَدِ ، وَيُجَاهِدُ الفِرِنْجَ ، وَيَهْزِمُهُم كُلَّمَا حَاوَلُوا أَنْ يَعُودُوا ، وَيَتَعَقَّبُ بَقَايَاهُم الَّذِينَ فَرُّوا أَوْ اخْتَفَوْا .

وَنُورُ الدِّينِ بِالشَّامِ مُشْتَبِكٌ مَعَ أُولَئِكَ الفِرِنْجِ فِى مَعَارِكَ طَاحِنَة ، يَفْتَحُ بِهَا الطَّرِيقَ إِلَى القُدْسِ ، وَفِى مَعَارِكَ أُخْرَى حَامِيَةٍ مَعَ الأُمَرَاءِ المُسْلِمِينَ الحَاقِدِينَ ، وَالخَائِفِينَ عَلَى سُلْطَانِهِمُ الفَرْدِىِّ ، مِنَ الوَحْدَةِ الَّتِى يَنْظِمُ حَلَقَاتِها ، شَدِيدَ السُّرُورِ بِنَجَاحِ أَسَدِ الدِّينِ فِى مِصْرَ ، يَزِيدُه ذَلِكَ النَّجَاحُ أَمَلاً فِى التَّعْجِيلِ بِفَتْحِ القُدْسِ .

وَكَانَ كُلَّمَا خَرَجَ مِنْ نَصْرٍ ، صَلَّى لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى تَوْفِيقِه وَعَوْنِه وَأَعْطَى العَطَايَا ، وَمَنَحَ المِنَحَ ، وَوَزَّعَ المَغَانِمَ ، وَجَلَسَ إِلَى العُلَمَاءِ ، وَالخُطَبَاءِ ، وَالشُّعَرَاءِ ، وَرِجَالِ الدِّينِ ، يَقُولُونَ وَيَسْمَعُ ، وَيَقُولُ وَيَسْمَعُونَ ، مُتَبَسِّطًا مَعَ النَّاسِ ، يُؤَكِّدُ نَصْرَ اللَّهِ الَّذِى يُعِينُ أَنْصَارَه وَيَهْزِمُ أَعْدَاءَهُ .

وَلاَ يَنْسَى أَنْ يَدْعُوَ المُهَنْدِسَيْنِ ، اللَّذَيْنِ كَلَّفَهُمَا بِصُنْعِ المِنْبَرِ ، وَتَعْجِيلِه ، وَيَقِفُ مِنْهُما عَلَى مَا تَمَّ فِيه ، وَيَحُثُّهُمَا عَلَى الإِسْرَاعِ بِالاِنْتِهَاءِ مِنْه ، وَالجَمِيعُ فَرِحُونَ بِه ، يَشْكُرُونَه ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُم أَنْ يُبْقِيه ، حَتَّى يَرَى بِعَيْنَيْهِ يَوْمَ القُدْسِ العَظِيمَ .

وفى هذا المَجْلِس ، كانَ الجميعُ صامتِينَ مَحْزونِينَ ، وهُوَ مُتغيِّرُ اللَّوْنِ ، مَمْلوءُ العَيْنَيْنِ بالدُّموعِ ، فقَدْ وردت الأَنْباءُ مِنْ مِصْرَ بموْتِ أَسَدِ الدِّينِ ، عقِبَ قفْزَةٍ عاليَةٍ مِنْ جَوادِه أَلْقَتْه على الأَرْضِ .

ثُمَّ جعَلَ يَنْظُرُ فِى الكِتابِ الَّذى أَنْهى إليه الخَبَرَ ، ويُعيدُ النَّظَرَ فيه مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ ، والنَّاسُ يرَوْنَ أَثَرَ الفَجيعَةِ فِى وَجْهِه ، مُتَألِّمينَ لأَلَمِه ، ثُمَّ دُهِشُوا ووَجْهُهُ يَنْبَسِطُ شَيْئًا فشيئا ، وهُوَ يقولُ راضِيًا :

- أَحْسَنُوا وَاللَّهِ كُلَّ الإِحْسانِ لَيْسَ غَيْرُه يَحِلُّ مَحَلَّ أَسَدِ الدِّينِ! . صَلاحُ الدِّينِ خَيْرُ مَنْ يَتَوَلَّى مِصْرَ بَعْدَ عَمِّهِ ، ويَنْهَضُ مَعى لِفَتْحِ القُدْسِ .

وجَعَلَتِ الأَنْباءُ تَرِدُ إِلَيْه تِباعًا ، بِما يَقومُ به صَلاحُ الدِّينِ مِنَ العَمَلِ الجادِّ المُتَواصِلِ فِى إِصْلاحِ البِلادِ ، وزِيادَةِ أَقْدامِه تَثْبيتًا فِيها ، والإِعْدادِ لِلمَعْرَكَةِ الفاصِلَةِ .

نَصْرٌ يُحَقِّقُه صَلاحُ الدِّينِ فِى مِصْرَ ، ونَصْرٌ يُحَقِّقُهُ نُورُ الدِّينِ فِى الشَّامِ ، ويُعِدَّانِ بِه فَكَّيِ الكَمَّاشَةِ ، لِتَنْطَبِقا علَى الفِرِنْجِ ، وتَطْحَنَهُم ، وتَنْزِعَ القُدْسَ مِنْ أَيْدِيهِم . والفِرِنْجُ فِى فَزَعٍ ، والعَرَبُ فِى فَرَحٍ ، والخُطَباءُ والشُّعَراءُ والعُلَماءُ ، يَدْعُونَ إِلَى الجِهادِ المُقَدَّسِ ، والمَساجِدُ مَمْلُوءَةٌ بالمُصَلِّينَ ، يَرْفَعُونَ أَصْواتَهُم بالدَّعَواتِ الخالِصَةِ لِرَبِّهِم ، أَنْ يَنْصُرَ الإِسْلامَ والمُسْلِمينَ ، ويُعيدَ إِلَيْهِمُ القُدْسَ الشَّرِيفَ .

وبَيْنَما هُمْ فى هذا الفَرَحِ بِاقْتِرابِ النَّصْرِ الكَبيرِ ، والاسْتِعْداداتِ الهائِلَةِ لِخَوْضِ المَعْرَكَةِ الفاصِلَةِ ، إذا بِمَجْلِسِ البَطَلِ يَخْلُو مِنْه ، والنَّاسُ

يتساءلون في عجب، عن السبب في تخلفه عنه، فتأتيهم الإجابة المتقطعة مع الأنفاس المحترقة، تقول من بين الدموع المنهمرة:

- المرض اللعين!.

البطل في الفراش لا يقدر على النهوض!.

وقد أسرع مهرة الأطباء، يقدمون إلى البطل كل ما في طبهم من علاج.

ونهض الأتقياء والصالحون يتوسلون إلى ربهم أن يمن عليه بعاجل الشفاء.

ووقف الناس أمام القصر صامتين، لا يتكلمون إلا بالدموع، لا يقطعون الأمل في عطف ربهم ورحمته.

لكن رسالة البطل كانت قد انتهت، ليلقي السيف إلى بطل غيره يكمل الدور، فلم يغادر الفراش، ولفظ آخر الأنفاس، وهو يردد في صوت خافت:

- المنبر أيها الرفاق.

أسرعوا بإتمامه على أحسن صورة، وضعوه في مكانه من المسجد الأقصى.

ولا تنسوا نور الدين، وأنتم تنظرون إلى ذلك المنبر الجميل الجليل، وتسمعون الخطيب من فوقه، وهو يبكي بدموع الفرح لإنقاذ القدس، وتطهيره من دنس (١) الفرنج.

ثم أطبق أجفانه، وخلى العرش لصاحب الدور، الذي قدر له أن يتم الرواية، ويبلغ الغاية.

---

(١) دنس: وسخ، والجمع: أدناس.

مناقشة الفصل الخامس

١ «جيش جرار مزود بالعدد والعتاد والرجال الأشداء كبير الأطماع، بلغ مصر واشتبك مع أسد الدين فى معارك طاحنة، ومن خلفه شاور يساعده بمكره وخبثه، يتجسس له، ويثير النفوس على شيركوه، ويذيع الأخبار الكاذبة عنه، يترقب هزيمته يوما بعد يوم»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يأتى :

- مرادف يذيع (يقول - ينشر - يكشف)

- مضاد الطمع (التقبل - التسليم - القناعة)

(ب) ما الجيش الذى تتحدث عنه العبارة السابقة ؟ وما غرضه من الذهاب إلى مصر ؟ .

(جـ) لماذا كان شاور يساعد هذا الجيش ؟ وما رأيك فى ذلك ؟

(د) ما موقف نور الدين من هذه الحملة ؟ وكيف تعامل معها ؟

(هـ) بين ما توحى به كل عبارة من العبارتين الآتيتين :

(يثير النفوس عليه - يترقب هزيمته)

٢ «فلما التقى الجمعان، وحمى القتال نفذ المسلمون الخطة التى اتفقوا عليها بدقة ومهارة، وانطلت الخدعة على الفرنج وطحنتهم، وكانت هذه الموقعة شر ما نزل بالفرنج، منذ وطئت أقدامهم الأرض الطاهرة ودنستها»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لما يأتى :

- (حمى القتال) مرادف «حمى» :(كثر - اشتد - وضح)

- يقصد بـ «طحنتهم» (هزمتهم - أضعفتهم - أهلكتهم)

- مضاد الطاهرة (الخبيثة - الدنسة - الرديئة)

(ب) ما الخطة التى اتفق عليها المسلمون؟ وكيف نفذوها ؟

(جـ) لماذا كانت هذه الموقعة شر ما نزل بالفرنج ؟

(د) «نفذت الخطة بدقة ومهارة - انطلت الخدعة على الفرنج»

وضح الجمال فى العبارتين السابقتين ، واذكر سر الجمال .

٣ **«لكن الأوان قد فات، فما بلغوا الشام حتى وجدوا المدينة قد أفلتت من أيديهم، ووجدوا البشائر تطير بنصر جند الله، وترفرف بأجنحتها الخضر فى جو السماء، تميل وتعتدل، وترقص وتغنى، فصعقوا، وساروا يجرون أرجلهم يبتعدون بها، حتى لا يلحقهم ما لحق بإخوانهم من الدمار»**

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يأتى :

- مفرد البشائر : (البَشَرة - البِشارة - البُشرى)

- مضاد الدمار : (الإصلاح - البناء - التدعيم)

(ب) ما المدينة التى تتحدث عنها العبارة ؟ وماذا حدث لها ؟

(جـ) ما أثر سقوط هذه المدينة فى نفوس كل من العرب والفرنج ؟

(د) وضح المقصود بـ (أفلتت من أيديهم)

(هـ) فى «ترفرف أجنحتها» جمال . وضحه ، ثم اذكر سر جماله .





الفصل السادس

مؤامرات فاشلة

(١)



فَرِحَ الفِرِنْجُ فَرَحًا شَدِيدًا بِمَوْتِ نُورِ الدِّينِ ، وظَنُّوا أَنَّهُم أَصْبَحُوا قـادرِينَ على تحْطِيم مـا عَـمِلَ ، مِنْ أَجْلِ الوَحْـدَةِ الشّـامِلَةِ ، واجْـتَمعُوا يَتَشاوَرُون فِي أَقْصَرِ الطُّرُقِ إِلَى كَتْمِ أَنْفاسِ العَرَبِ .

قالَ بَعْضُهُم ، مُنْدَفِعًا بِحَمَاسِ الخَوْفِ والطَّمَعِ :

- أَقْصَرُ الطُّرُقِ أَنْ نَتَشَجَّعَ ونُهاجِمَهُم ، ونَضْرِبَهُم ضَرْبَةً تُطِيرُ مِنْ رُءُوسِهِم الأَحْلامَ ، الَّتِي عَقَدُوها على اتِّحادِهِم .

فَرَدَّ عَلَيْه كَبِيرُهُم فِي عَجَبٍ وأَلَمٍ قائِلاً :

- وهَلْ تَظُنُّ أَيُّها الأَخُ ما تَرَى أَقْصَرَ الطُّرُقِ إِلَى الهَدَفِ؟!

لاَ ، لَنْ نَصِلَ سَرِيعًا بِهذا العَمَلِ إِلَى قَصْدِنا ، فَقَدْ أَضْعَفَتْ حُرُوبُ العَرَبِ قُوانا ، وهَدَّتْ عَزائِمَ الكَثِيرِينَ مِنَّا .

ولَوْ رَأَيْتَ الدُّمُوعَ المُنْهَمِرَةَ على الخُدُودِ ، خَوْفًا مِنَ القَتْلِ ، ونَدَمًا على المَجِيءِ إِلَى هُنا ، ما قُلْتَ هذا الكَلامَ أَبَدًا .

وينبغي للعاقل ، أن يحسب حساب عدُوِّه قبلَ أنْ يُنازله ، وألاَّ يَنْدَفعَ إليه بغَيْرِ تدبُّرٍ ، فيذوقَ جزاءَ تسرُّعِه خزيًا ومهانةً ، إنْ لمْ يَدْفعْ ثمنَه من دم
قُوَّةُ العَربِ أيُّها القَوْمُ ، أصْبَحَتْ حقيقةً واضحةً ، لا يُنكرُها إلاَّ الأعْمَى ومَنْ يَدْفِنُ رأسَه في الرِّمالِ مِثْلَ النَّعامَةِ ويَعْتَقِدُ أنَّ الصيَّادَ لاَ يَراهُ ، ما دامَ هُوَ لاَ يُبصِرُه .

- وما الرَّأىُ أيُّها السيِّدُ الكَبيرُ؟ .

- أنْ نُعيدَ حسابنا ، ونَنْظُرَ بعيْنِ الهُدُوءِ والحِكْمَةِ ، منْ غَيْرِ تهوُّرٍ ، ونَبْحثَ عَنْ طَريقٍ غيْرِ الحَرْبِ ، الَّتى لم نَعُدْ نُطيقُها ، ونَلْجأَ إلَى السِّلاحِ الَّذى نُجيدُ اسْتِخْدامَه ، سِلاحِ المَكْرِ والدَّهاءِ ، والاسْتِهانَةِ بكُلِّ الفَضائلِ .

نُوجِّهُ هذا السِّلاحَ إلى الأُمَراءِ العَرَبِ أَنْفُسِهِم ، وإلَى اتِّحادهم الَّذى شَدَّ سَواعِدَهم وقوَّى قُلوبَهُم ، ونكْسِرُه بِحَدٍّ غَيْرِ حَدِّ السَّيْفِ الَّذى ثَقُلَ علَى أَيْدِينا ، نُفَرِّقُ به جَمْعَهُم ، ونُعيدُهُم إلَى مَا كَانُوا عَلَيْه مِنَ التَّشتُّتِ ، الَّذى مَكَّننا منْ رِقابِهِم وبلادِهِم .

- وكَيْفَ نُفرِّقُهُم أيُّها الأخُ الرَّشيدُ وقَدْ ذاقُوا حَلاَوَةَ الاتِّحادِ ، وامْتَلأَتْ قُلوبُهُم بحُبِّ الجِهادِ ، والإسْراعِ إلَى انْتِزاعِ القُدْسِ مِنَّا ، وطَرْدِنا مِنَ البِلادِ ، أَوْ دَفْنِنا فيها ، تَقَرُّبًا إلى رَبِّهِم وفوزًا بِجَنَّاتِه؟!

مَدَّ الرَّجُلُ بَصَره أَمامَه طَويلاً ، ثُمَّ أرْجَعَه إلَى السَّائِلِ ، وقالَ فِى هُدُوءٍ :

- أرَأَيْتُمُ النَّارَ المُتَوهِّجَةَ أيُّها السَّادَةُ ؟ . ذلك التَّوَهُّجُ يَسْتمِرُّ بما يُلْقَى إليْها مِنْ غذاءٍ ، فإن لَمْ تَجِدْه خَمَدَتْ وانْطَفَأَتْ ، وقَدْ كانَ منْ حَظِّنا السَّعيدِ ، أَنْ تَمُوتَ اليَدُ الَّتي كَانَتْ تُغذِّى نارَ الجِهادِ فِى صُدورِ الْعَرَبِ ، وأنَّ قُلوبَ مُعْظَمِ أُمَرائِهم ، بَدَأَتْ تَمْتَلئُ بِحُبِّ الانْفِصالِ والانْفِرادِ بالسُّلْطانِ .

فَلْنُبادِرْ بإشْعالِ هذه الرَّغْبَةِ الانْفِصاليَّةِ فيهِم ، أَكْثَرَ وأَكْثَرَ ، ونُسلِّطْ

بَعْضَهُم علَى بَعْض ، ونُعِنْ بَعْضَهُم علَى بَعْض ، كَما كُنَّا نفْعَلُ من قَبْلُ ، وسَوْفَ نُحَقِّقُ بهذه الأَسْلحَة الّتى جَرَّبْناها ، وحَمِدْنا نتائِجَها ، ما لَمْ نُحقِّقْهُ بالسَّيْف ، بَعْدَما تَغيَّرت الأحْوالُ .

صادَفَ هذا الكَلامُ هوًى فى نُفُوسِ الفِرنْج ، لأنّه بَعيدٌ عن الدِّماء الّتى تُفْزِعُهُم ، وأَسْرَعُوا إلَى الأُمَراء العَرَب ، يَدُسُّونَ[1] بَيْنَهُم ويحَبِّبونَهُم فى الفُرْقَة والخُروج عَن الجماعَة ، وينْقُلونَ إلَى بَعْضهم أَخْبارًا كاذبةً عَنْ بَعْض ، حَتَّى انْخَدَعَ الكَثيرُون منْهُم ، ورَفَعُوا السُّيوفَ فى وُجوه إخْوانِهِمْ ، وانْفصَلُوا عَن الوَحْدَة ، وعادُوا إلَى التَّنازُع والتَّقاتُل .

وجَعَل الشَّامُ يَتمزَّقُ ، كُلُّ أَمير منَ الأُمَراء يُهاجِمُ أَخاهُ ، وينْتَزِعُ ما فى يَده منَ البلاد بالقُوَّة ، مُعْتَمدًا علَى الفِرنْج ، مُسْتَعينًا بِهِم ، باذلاً لَهُم كُلَّ ما يطْلُبونَ ، ثَمَنًا للنَّصْر الكاذب علَى إخْوته ، غافلاً عَنْ خَطَر ما يَصْنَعُ ، ناسيًا فَضْلَ الجَماعَة ، وما بَعَثَ منْ قُوَّة ، رَدَّتْ أَيْدىَ الفِرنْج عَنْهُم ، وقَرَّبَت المُجاهِدينَ من الهَدَف الَّذى كانَ بَعيدَ المَنال .

ولَمْ تَقْتصرْ تلْك الأَيْدى الخَبيثَةُ علَى الشَّام وَحْدَه وامْتَدَّتْ بشَرِّها إلَى مصْرَ ، وخَلَقَتْ لصَلاح الدِّين فيها مَتاعبَ كَثيرَةً أَوْشَكَتْ أَنْ تُزَلْزِلَ أَرْكانَ دَوْلَته ، لكنَّه كانَ ساهرًا ، مُفَتَّحَ العَيْنَيْن والقَلْب ، فقَضَى علَى المُؤامَرات الَّتى دُبِّرَتْ لقَتْله ، ونجَا منْها ونَجّى البلادَ منْ أذاها .

لكنَّ أُولئكَ الأَشْرارَ لَمْ يَسْكتُوا ، واتَّفَقُوا علَى دَعْوَة الفِرنْج إلَى مصْرَ ، وأَنْ يُقَدِّمُوا لَهُم كُلَّ ما يَفْرضُونَ ثَمَنًا لمُساعَدَتهم ، واتَّصَلُوا بعَمورى مَلك القُدْس ، وتَوَسَّلُوا إلَيْه أَنْ يُسْرِعَ إليهم بجُنوده ، ويُخَلِّصَهُم منْ صَلاح الدِّين ، ويُعيدَهم إلَى مَناصبهم ، وقَدَّمُوا لَه المالَ ، ومَنَّوْه الأَمانِىَّ الواسِعَةَ ، وأَقْسَموا لهُ علَى الوَفاء بِما اتَّفَقُوا علَيه وأَكْثَرَ منْه .

(١) يدسون : يُوقِعُون ، من الدسّ : وهو النميمة والوشاية والوقيعة بين الناس .



ولَمْ يَقْتَصِرُوا على فِرنج الشَّام ، واتَّصَلُوا بِملك صقلِّيَّة ، ورجَوْه أنْ يُسْرِعَ إلَيْهِم بِأسْطُوله ، ويُهاجِمَ الإسْكَنْدرِيَّة ، في الوقْت الَّذى يُهاجِمُ فِيه عَمورى مِصْرَ من الشَّرْق ، فَينْطَبِقُ الشَّرَكُ على صَلاحِ الدِّين ، ولاَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُفْلِت منه .

(٢)

رقَصَت الأَحْلامُ في صُدور أُولئكَ الأَشْرار ، وبَدَت الخُطَّةُ أمامَهم واضِحَةً سَهْلَةَ التَّحْقيق ، فأعَدُّوا كُلَّ شَيْءٍ لِيكُونَ جاهزًا عِنْدَ الإشارة .

رَتَّبُوا الحُكَّام الَّذينَ سَيَتَوَلَّوْنَ المَناصِبَ بَعْدَ الانْقلابِ وعَيَّنوهُم بِأسْمائِهم ، كمَا عَيَّنوا الخَلِيفَةَ الَّذى سيَتَوَلَّى الخِلاَفَةَ ، والوَزِيرَ الَّذى سَيُديرُ البِلادَ ، ووَزَّعُوا عَلَيْهِمُ الدُّورَ والقُصورَ ، والمَزارِعَ ، والمَصانِعَ ، وانْتَظَرُوا مَجِيءَ الفِرِنْج والصِّقِلِّيِّين .

ولَمَّا بَلَغَ عَمُورى الدَّعْوَةُ ، اهْتَزَّ طَرَبًا ، ودَمعتْ عَيْناه مِنْ شِدَّةِ الفرح ، ونظر إلى مَنْ حَوْلَه وقال مُنْبَسِطَ الوَجْه :

- اطْمَأنَّ قَلْبى أيُّها الصِّحَابُ ، فَسَوْفَ تَقْضى هذه المُؤامَرَةُ علَى صَلاح الدِّين ، وتُزيحُهُ مِنْ أَمامِنا ، وتَقتُلُ الوَحْدَةَ الَّتى يَعْمَلُ لهَا ، فَنأْمَنُ على القُدْسِ وعلَى دِمائِنا .

ثُمَّ جَعَلَ يرْقصُ طَرَبًا ، ويَقُولُ مُتَثَنِّيًا :

- يا لَكَ يا عَمُورى مِنْ مَلِك مَحْظوظ ! . ثَبَتَتْ أَقْدامُك المُخَلْخَلَةُ ، وبَقِيَتْ لَكَ القُدْسُ ، ولَيْسَ بَعْدَ اليَوْم أحْزانٌ ولا هُمُومٌ ! .

وَرفَعَ رَأْسَهُ ومَدَّ بَصَرَه بَعيدًا ، وجَعَل يُصَفِّرُ ثُمَّ صاحَ في نَشْوَة قائلاً :

- أَيْنَ أَنْتَ يا صَلاحَ الدِّين ؟! وأَيْنَ الوَحْدَةُ الَّتى تُخِيفُنا بِها ؟! أَيْنَ أُولَئِكَ الَّذينَ سَيَغْلِبونَنا ويَطْرُدونَنا؟! .

أحلامٌ طارت يابن أيوب؟!.

هذه البلادُ كلُّها لنا، ولن ينتزعها أحدٌ من قبضتنا القويّة، وكما ذهب نورُ الدين ستذهبُ أنتَ، ولن تقوم بعدُ للعرب قائمة!.

ثمّ أسرعَ يضربُ بسلاح المكر، الّذى اتفقوا عليه، فدعا أحد أتباعه المقرّبين إليه، ليُرسله رسولاً إلى صلاح الدين، يخدعه، ويُطمئنه من جهته، فينام حتّى تتمّ المؤامرة، وقال له وهو يودّعه:

- إنّى اخترتُكَ أيُّها الوزيرُ لأمرٍ عظيم، وعلمى بك أنّك قادرٌ على كتْم الأسرار، والتّخلّص من المضايقِ الحرجة، وقد أُعطيت حلاوة اللّسان، والمهارة فى إلْباسِ وجهكَ غطاء الخداعِ المُحْكَم، فاسْمعْ ما أقولُ لكَ، ونفّذه حرْفًا حرفًا.

ستذهبُ إلى القاهرة، وتستأذنُ على صلاحِ الدّين، وتدخُلُ عليه حاملاً أرقّ تحيّاتى، وأحرَّ أشواقى، وأسْمَى تقديرى واحْترامى، والهدايا الغاليةَ الّتى أعْددْناها لَه، وتمنّياتى أنْ نُصبح صديقيْنِ مُتحابّيْنِ، يسودُ بيْننا السّلامُ والودُّ، ونكْسرَ السّيوفَ والرّماحَ، ونعيشَ معًا فى هُدوءٍ وراحةٍ واطْمئْنانٍ.

أعطنى سمْعكَ وقلْبكَ أيُّها الوزيرُ الكبيرُ، وشديدَ انْتباهكَ.

هذا الّذى سمعْتَه كلامٌ فى الظّاهرِ، أمّا فى الحقيقة، فقدْ بعثْتُكَ لِتطّلعَ على كُلِّ شىْءٍ هُناكَ، جاسوسًا، مُفتّحَ العيْنيْنِ، واعيًا، لا تفُوتُه صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلاَّ عرفها، يكْشفُ الأغْطيةَ السّميكةَ عنِ المسْتُورِ، ويعْرفُه منْ غيْرِ أنْ يشْعُرَ به أحدٌ.

تتّصلُ سرّاً بالمُتآمرينَ هُناكَ علَى صلاحِ الدّينِ وتُطمْئنُهُم بأنّنا منْ ورائِهم، وتضعُ معهُم التّرْتيبات الأخيرةَ للْمُؤامرَة، لِكيْلا يقعَ أقلُّ خطإٍ يُفْسدُها، ويعْصفُ بِنا وبآمالنا كُلِّها.

الحذَرَ ثُمَّ الحذرَ أيُّها الوزيرُ ، فَصَلاحُ الدِّينِ مِثْلُ الذِّئبِ ، لا يَغْفُلُ ولاَ ينامُ ، يَقْرأُ ما فِى الصُّدورِ ويَعْرِفُ البَواطِنَ .

فَلا يَظْهَرْ مِنْكَ شَىْءٌ ، يُعينُه عَلى أنْ يَصِلَ مِنْكَ إلى شَىْءٍ ، أوْ يَشُكَّ فِى أمْرِكَ ، وإنِّى عَلى ثِقةٍ كَبيرةٍ مِنْ أنَّكَ سَتُوفَّقُ وتَبْلُغُ كُلَّ ما نُريدُ .

وانْطَلَقَ هذا الرَّسُولُ مُسرِعًا إلى مِصْرَ ، يَنْهَبُ الطَّريقَ فِى حَذَرٍ شَديدٍ ، ويُقلِّبُ فِى رَأسِه ما يَعْمَلُ ، لِيَضْمَنَ النَّجاحَ فِى مُهِمَّتِه ، ويُعيدُ تَذكُّرَ أَسْماءِ المُتآمِرينَ وأَماكِنِهم ، ويُمَرِّنُ لِسانَه على أرقِّ الكَلامِ الَّذى سَيُخاطِبُ به السُّلْطانَ .

وكُلَّما اقْتَرَبَ زادَ نَفْسَه تَشْجيعًا ، حتّى لا يُخْفِقَ ، فَيَطيرَ رأْسُه ، إنْ لَمْ يَكُنْ بِيَدِ صَلاحِ الدِّينِ فِى القاهِرَةِ ، فَبِيَدِ عَمُّورِى فِى القُدْسِ .

وكانَ مَلِكُ صِقِلِّيَّةَ قَدِ اسْتَجابَ هُوَ الآخَرُ لِلدَّعْوَةِ ، وأَسْرَعَ بإعْدادِ أُسْطولٍ ضَخْمٍ ، مُكوَّنٍ مِنْ سِتِّمائةِ سَفينَةٍ حَرْبِيَّةٍ ، تَحْمِلُ نَحْوًا مِنْ ثَلاثينَ أَلْفًا مِنَ المُقاتِلينَ الأَشِدَّاءِ ، المُزَوَّدينَ بأَقْوى السِّلاحِ .

والأَشْرارُ ماضُونَ فى مُؤامَرَتِهِم ، يُحْكِمُونَ خُيوطَها مُتأكِّدينَ مِنْ نَجاحِها ، يَنْتَظِرُونَ السَّاعَةَ الَّتى يَقْبِضُونَ فِيها على صَلاحِ الدِّينِ ، ويَخْلَعُونَ رَأسَه ، لا يَخْطُرُ ببالِهِم أَنَّه يَعْرِفُ شَيئًا عَنْهُم ، وهُوَ عَلى عِلْمٍ كامِلٍ بما يُدبِّرونَ ، تَصِلُ أخْبارُهُم إلَيْه أَوَّلاً بأَوَّلٍ .

فَقَدْ دَسَّ الفَقيهَ الواعِظَ زَيْنَ الدِّينِ بْنَ نَجا ، فَانْضَمَّ إلَيْهِم ، مُظْهِرًا سُخْطَه على السُّلْطانِ ، مُبدِيًا الحَماسَةَ الشَّديدَةَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْه ، حتَّى انْطَلَى عَلَيْهِم أَمْرُه ووَثِقُوا به ، وأَشْرَكُوه فى كُلِّ ما يَعْمَلُونَ ، لا يَعْرِفونَ أنَّه يَنْقُلُ إلَى صَلاحِ الدِّينِ ، كُلَّ ما يَقُولُونَ وما يَفْعَلونَ ، وقَدْ عَيَّنوا لَه مَنْصِبًا مِنَ المَناصِبِ الكَبيرَةِ الَّتى وزَّعُوها عَلَيهِم ، يَتَربَّعُ فِيه بَعْدَ ما تَتِمُّ المُؤامَرَةُ .

ولمَّا وَصَل مَبْعوثُ عَمُورى إلَى القَاهِرَة ، اسْتَقبلَه السُّلطانُ بحفاوة واحتِرام ، وتبادَلَ مَعَهَ عباراتِ الوُدِّ والمحبَّة ، وأَظْهَر لَهُ شَدِيدَ السُّرور بما يُكِنُّه عَمورى مِنَ الإخلاص ، وما أبْدَى مِنَ الرَّغْبة في السَّلام وعقْد الصُّلح بَيْنهُما ، وقالَ له وهُوَ يُحادثُه في انْبساط :

- كُنْتُ أَوَدُّ هذا مُنْذُ بَعيد ! فماذا نَجْنى مِنَ التَّخاصُم والتَّقاتُلِ ؟! وما رَأى المَلِكُ عَيْنُ الصَّوابِ ، وإنِّى شَديدُ السُّرورِ بِه ، موافقٌ عليه .

ولَمْ يَدْرِ ذلكَ الرَّسولُ ، أنَّ السُّلْطانَ يَعْرِفُ مَقْصِدَه الَّذِى أقْبلَ مِنْ أَجْلِه ، وانْخَدَعَ بِما سَمِعَ ، ورَقَصَ فَرَحًا ، لاعْتِقادِهِ في نَجاحِ مُهِمَّته .

وقَبْلَ أنْ يَتَحرَّكَ المُتَآمِرُونَ لِتَنْفيذِ مُؤامَرتِهِم ، قَبَضَ صَلاحُ الدِّينِ عَلَيْهم وقتلهم ، وقتل مَعَهُم ذلك الرَّسُولَ ، وأَراحَ نَفْسَه مِنْ شَرِّهِمْ .

وما عَلِمَ عَمُورى بِانْكشافِ المُؤامَرَة وفَشَلِها ، وما حَلَّ بِرَسوله حتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عليه ، وحُمِلَ سَقيمًا ، يَتفزَّعُ ويَهْذِى بِكَلامٍ عَجيب ، ولَمْ يَعِشْ طَويلاً وقَتَلَتْهُ الصَّدْمَةُ الشَّديدَةُ ، وتَعطَّلَ جَناحُ الكَمَّاشَةِ الشَّرْقِىُّ ، ووَقَفَ مَكانَه هُناكَ مَشْلُولاً لا يَسْتَطِيعُ حِراكًا .

أمَّا الجَناحُ الآخرُ ، فقد أقبل مَلِك صقلية مسرعا مِنْ صِقِلِّيَّةَ بِأُسطُوله الضَّخْم ، حَتَّى بَلَغَ الإسْكَنْدَرِيَّةَ ، ولَمْ يَكَدْ يُلْقى بِهَا مَراسِيَه ، حتَّى أُصيبَ بِصَدْمة أشَدَّ مِنْ صَدْمَة عَمُورى ، فقَدْ بَلَغَه خَبرُ المُؤامرَةِ وفَشَلِها ، ومَوْت مَلِكِ القُدْسِ ، فَطارَ صَوابُه ، وهَمَّ بِالفِرار .

ثمَّ وَجَدَ نَفْسَه بَيْنَ حِبالِ شَرَكٍ مُحْكَم عَلَيه ، فَحاوَلَ التَّخلُّصَ مِنْه وهاجَمَ الإسْكَنْدَرِيَّةَ ، والْتَحَمَ بِالجَيْشِ المِصْرِىِّ الباسِلِ ، في اندفاع انْتِحارِىٍّ لَمْ يُفِدْه ومُزِّقَ شَرَّ مُمَزَّق ، وغَدا رِجالُه بَيْنَ قَتيلٍ وأَسيرٍ وغَريقٍ ، وبِشِقِّ النَّفْسِ اسْتَطاعَ الفِرارَ بِرأْسِه ، هُوَ والقَليلُ الَّذِى قُدِّر له البَقاءُ .

حَمدَ صَلاحُ الدِّينِ رَبَّه على هذا النَّصْرِ ، ووزَّعَ الغَنائمَ الكَثيرةَ على الجُنْد ، وجَلَسَ للنَّاس ، وأعْطَى ، واسْتَمعَ إلَى المُهنِّئين الَّذين أقْبلُوا مِنْ جَميعِ النَّواحِي ، يَهْتفون بحَياته ، ويَطْلبُونَ منه أنْ يُسْرِعَ بفَتْح القُدْس .

وفِي كَرْمَة وَزيرِه القاضِي الفاضِلِ ، الَّتِي مَدَّها على الشَّاطئ الشَّرْقيِّ للنِّيل بأرْضِ اللَّوْق ، جَلَسَ مَعَ الْوَزِيرِ المُخْلِص ، يَنْظُران إلَى عَناقيد العنَب الكَبيرَة الحَبَّات ، المُتَدلِّيَة مِنْ عَرائشها ، كأنَّها الثُّرَيَّاتُ المُتلألئَةُ ، ويَمُدُّ بَصَرَه فِي مياه النِّيلِ المُتدَفِّقَة مِنَ الجَنوبِ إلَى الشَّمال ، تُرَقِّصُ مَراكبَها فَوْقَ ظَهْرِها ، مُظْهِرَةً فَرْحَتَها بالنَّصْرِ العَظِيم ، ثُمَّ الْتَفتَ الَى القاضِي الفاضِلِ وقالَ فِي سُرُور :

- نَسْتَطيعُ الآنَ يا عَبْدَ الرَّحيم البيسانيَّ أنْ نَقولَ : إنَّنا انْتَهَيْنا مِنْ مَشاكلنا فِي مِصْرَ ، وبَقِيَ أنْ نُوَجِّه الجُهودَ كُلَّها إلَى الشَّامِ ، ونُحَقِّقَ آمالَ المُسْلِمين فِي القُدْسِ .

قالَ الوَزيرُ فِي بَشاشَةٍ وحبُور :

- بارَكَ اللهُ فِي مَوْلاىَ ، وأَتمَّ عَلَيْه نعْمَتَهُ ظاهِرَةً وباطنَةً ، ومَدَّ تَوْفيقَه ونَصْرَه ، وأثابَه بما عَمِلَ ، وما عَزَمَ عَلَيْه مِنْ تَحْريرِ القُدْسِ وتَطْهيرِه ، وتَجْفيف دُموعِ المُسْلمينَ المُنْهمِرَةِ مِنْ أجْلِه .

قالَ السُّلْطانُ ، وهُوَ يَمُدُّ بَصَرَه فِي المِياهِ الجارِيَة ، والأَفْكارُ تَتَدافَعُ إلَى رَأسه مِثْلَ تَدافُعها بَيْنَ الشَّاطِئَيْن :

- لكنَّ الْوَحْدَةَ الشَّامِلَةَ ياعَبْدَ الرَّحيم ، هِي السَّبيلُ الَّذى لاَ يَضلُّ ، والسَّيْفُ الَّذى لا يَصْدَأُ ولا يَكلُّ ، فَكَيْفَ لَنا الْيَوْمَ بِها ، وقَد ارْتَدَّت الشَّامُ سُيوفًا مُتَضارِبَةً بَعْدَ مَوْتِ نُورِ الدِّينِ ، تَتَقاتَلُ عَلَى مِيراثه ، وابْنُه لُعْبَةٌ فِي أيْدى

الْمُتصارِعِينَ ، لاَ يَدْرِى مِنْ الأَمْرِ شَيْئًا ، جَعَلُوه سُلَّمًا يَصْعَدُ كُلٌّ مِنْهم فِي إِلَى أَطْماعِه ، ويَدَّعى أَنَّه أَوْلَى بِتَرْبِيَةِ الصَّغِيرِ ورِعايَتِه ؟ ! .

هِيْه[1] يا عَبْدَ الرَّحِيم ! ! .

انْتَقَضَتْ حِبالُ دَوْلَةِ نُورِ الدِّينِ الَّتى فَتَلَها بِدَمِه ، وغدا لِكُلِّ قَلْ أَمِيرٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِه ، وهَبَّ الفِرَنْجُ يَزْرَعُون القِلاعَ بِأَرْضِ الشَّام ، يُخِيفُ بها الْعَرَبَ ، وعَدا بَعْضُهُم على كِبارِ رِجالِ الدَّوْلَة ، وسَجَنُوهم ، ووَضَعُ أَيْدِيَهُم عَلَى أَمْوالِهِم وأَمْلاكِهِم ، وكُلُّ واحِدٍ مِنَ الأُمَراءِ يُسْرِعُ إِلَيْهِ ويَسْتَغِيثُ بِهِم ، ويَتَّخِذُهُم سَنَدًا يَحْمِيه مِنْ أَخِيه ! .

عادَ الظَّلامُ يُخَيِّمُ عَلَى الشَّام يا عَبْدَ الرَّحِيم ، فَما العَمَلُ؟ ! . كَيْفَ نَذْهَبُ إِلَيْه ونَسْعَى إِلَى وَحْدَته؟ ! وسَيَرْفُضُ أُولَئِكَ الأُمَراءُ الضَّالُّونَ ، أَنْ يَنْضَمُّوا إِلَى الجَماعَة ، وسَوْفَ يَرْمُونَنا بِالتَّدَخُّلِ فِى شُئُونِهِم ، ويَهُبُّونَ لِقِتالِنا ، ويَسْتَعِينُونَ بِالْفِرِنْجِ عَلَيْنا ؟ !

وبَيْنَما هُوَ يُفَكِّرُ فِى حَلٍّ لِهذِه العُقْدَةِ الصَّعْبَة ، إِذَا بِكِتابٍ مِنْ أُمَراءِ دِمَشْقَ مُسْرِعٍ إِلَيْه ، فتَناوَلَه الوَزِيرُ ، وفَضَّه ، ونَظَرَ فِيه مُتَهَلِّلاً ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى السُّلْطانِ وقالَ فِى سُرُور :

– أَتَتْ وَحْدَها يا مَوْلاىَ ! فَضْلُ اللهِ كَبِيرٌ ورَحْمَتُه واسِعَةٌ ! .

– وماذَا يا عَبْدَ الرَّحِيم ؟ ! .

– يَطْلُبُ أُمَراءُ دِمَشْقَ مِنْ مَوْلاىَ أَنْ يُسْرِعَ إِلَيْهِم ، ويُنْقِذَهُم مِنَ الفِرَنْجِ

فَتَهَلَّلَ صَلاحُ الدِّين ، وتَناوَلَ الكِتابَ ، ونَظَرَ فِيه باسِمًا ، ثُمَّ أَرْجَعَ البَصَرَ إِلَى وَزِيره ، وقالَ فِى بَشاشَة :

– كُنْتُ أَتَمَنَّى هذِه الدَّعْوَةَ يا عَبْدَ الرَّحِيم ، لِتَكُونَ مُبَرِّرًا لِدُخُولِ الشَّامِ ،

(١) هِيهِ : كلمة لطلب الزيادة من الكلام . وهى اسم فعل أمر بمعنى : زِدْ .

وإخضاع الخارجِينَ ، وردِّهم إلَى الجماعَةِ ، والوُصول باجْتماعِهم إلَى الهدَف ، الَّذى نذرْنا أنْفسنَا لبُلوغه . فهيّا يا عبْد الرَّحيم ، فقدْ أراد الله أنْ يُعجِّلَ بنهايَةِ الغاصبِينَ ، ويُتمَّ نعْمَته على المُسْلمِينَ .

ولَمْ يَتمَهَّلْ ، وعبَّأَ جَيْشَه وأَسْرَعَ به إلَى الشَّام حتى دَخل «بُصْرَى» ، ثُمَّ سارَ منْها إلَى «دمَشْق» ، مُخْترقًا الصَّحْراء ، غَيْرَ مُهْتمٍّ بالفرنج الَّذين يَتحكَّمونَ فِى الطَّرِيقِ ، مُعْتمِدًا علَى قُوَّته وثِقَته بنَفْسه وربِّه ، فبلَغها آخِرَ ربِيع الأوَّل ، مِنَ العام الخامسِ والسَّبْعِين والخَمْسمَائة من الهجْرَة .

ودَخلَ دارَ أَبِيه ، ومكَثَ بِها حتَّى سلِّمَت القَلْعَةُ ، فذَهبَ إلَيْها ، ووضَعَ يَدَه على ما بِها مِنَ الأمْوالِ والكُنُوز ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ودَعاهُم إلَيْه ، فأَسْرَعوا فَرِحِينَ به ، فاسْتقْبَلَهُم باحْترام ، وفرَّقَ علَيْهم أمْوالَ القَلْعَة كُلَّها ، لَمْ يُبْقِ منْها شَيْئًا لِنَفْسِه ، وأفْواهُهم تهْتفُ بحَياته وعَطْفه ، مُسْتَبْشِرةً به ، يَقولُ بَعْضُها لبَعْض : هكَذا يَكُونُ الكُرَماء! هكَذا كانَ أَبُوه وعَمُّه مِنْ قَبْلُ ، فطالَما أكْرمانا ، وقدَّما إلَيْنا أجَلَّ الخَدَماتِ ، والشَّىْءُ مِنْ مَعْدنه لا يُسْتَغْربُ .

كانَ اسْتقْبالاً حافلاً ، أُلْقِيَتْ فيه الخُطَبُ البَلِيغَةُ ، والقَصائدُ الرَّنَّانَةُ ، كُلُّها تَفيضُ بمَدْحِ السُّلْطانِ ، وتُثْنِى علَى شَجاعَته ، وعَزْمه ، وعَطْفه ، وكَرَمِه ، وتَقْواهُ ، وتُنادِى بالوَحْدَةِ الشَّامِلَة ، وتَصِيحُ بأَصْواتٍ عالِيَةٍ : المَسْجِدُ الأقْصَى ! قُبَّةُ الصَّخْرَة . .

وهوَ مَسْرُورٌ بهم ، يَتَبسَّطُ معَهُم ، ويُطَمْئنُهم ، ويُكرِّرُ لَهم أنَّه ما جاءَ إلاَّ لجَمْع كَلِمَةِ المُسْلمِينَ ، وإعادَةِ الصَّفِّ القَوِيِّ ، والمَسِيرِ بالبُنْيانِ المَرْصُوصِ ، إلَى الأمَلِ الَّذى يَضْطَرِبُ فِى كُلِّ الصُّدُور .

وَبَعْدَمَا رَتَّبَ الأُمورَ فى دِمَشْقَ ، سَلَّمَهَا إِلَى أَخِيهِ سَيْفِ الإِسْلامِ «طُغْتُكِينَ» ، وانْطَلَقَ إِلَى الأُمَراءِ المُتَفَرِّقِينَ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَماعَةِ ، ويُعِيدُ عَلَى أَسْمَاعِهِم خَطَرَ التَّفَرُّقِ ، فَمَنِ اسْتَجابَ لِدَعْوَتِه ضَمَّهُ إِلَيْه شاكِرًا ، وَمَنْ أَبَى حارَبَه ، واسْتَوْلَى عَلَى ما بِيَدِه مِنَ البِلادِ .

فَفِى العاشِرِ مِنْ شَهْرِ دِيسَمْبَرَ ، عامَ أَلْفٍ ومائَةٍ وأَرْبَعَةٍ وسَبْعِينَ مِنَ المِيلادِ ، كانَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ «حِمْصَ» ، فَحاصَرَها ، وانْتَزَعَها مِنْ يَدِ أَمِيرِها المُنْشَقِّ ، الَّذِى رَفَضَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الصَّفِّ .

وفِى الثَّانِى والعِشْرِينَ مِنْ هذا الشَّهْرِ ، ضَمَّ إِلَيْه مَدِينَةَ «حَماةَ» ، بَعْدَما أَبَى أَمِيرُها أَنْ يَضَعَ يَدَه فِى يَدِهِ ، ويَضُمَّ سَيْفَهُ إِلَى سَيْفِه .

ولَمْ يَنْقَضِ الشَّهْرُ ، حَتَّى كانَ يُحاصِرُ مَدِينَةَ «حَلَبَ» ويُشَدِّدُ عليها قَبْضَتَه ، لكِنَّها لَمْ تَسْقُطْ فِى يَدِه ، وعَزَمَتْ عَلَى الصُّمودِ ، واسْتَعانَتْ عَلَيْه بِطائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ مُنْعَزِلَةٍ ، مُنْفَصِلَةٍ عَنْ كُلِّ جَماعَةٍ سِواها ، تُسَمَّى الباطِنِيَّةَ ، تَسْكُنُ الجَبَلَ ، وتُرْهِبُ خَلْقَ اللهِ ، وتُسْتَأْجَرُ لِلْفَتْكِ بِهِمْ . ولَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَيْهِم ، وارْتَمَوْا فِى أَحْضانِ الفِرِنْجِ ، وطَلَبُوا نَجْدَتَهُم .

أَمَّا الباطِنِيَّةُ الَّذِينَ بَعَثُوا إِلَى صَلاحِ الدِّينِ مَنْ يَغْتالُه ، فَقَدْ كَشَفَ اللهُ سِتْرَهُم ، ونَجَّاه مِنْ كَيْدِهِمْ .

وأَمَّا الفِرِنْجُ ، فَقَدْ خافَ «رِيمُونْدُ» الوَصِيُّ عَلَى عَرْشِ القُدْسِ مِنْ لِقاءِ صَلاحِ الدِّينِ ، ورَأَى أَلَّا يُقابِلَه وَجْهًا لِوَجْهٍ ، وأَنْ يُساعِدَ الحَلَبِيِّينَ مِنْ بَعِيدٍ ، فَيُهاجِمَ مَدِينَةَ «حِمْصَ» الَّتِى اسْتَوْلَى صَلاحُ الدِّينِ قَرِيبًا عَلَيْها ، فَيَفُكَّ السُّلْطانُ حِصارَ «حَلَبَ» ويُسْرِعَ إِلَيْها ، وبِذلكَ يُحَقِّقُ «رِيمُونْدُ» رَغْبَةَ أَهْلِ «حَلَبَ» ، ويَأْخُذُ مِنْهم ما اتَّفَقُوا عَلَيْه مِنْ أَجْرٍ عَلَى مُساعَدَتِهِم ، ويَنْجُو هُوَ مِنْ صَلاحِ الدِّينِ وبَطْشِه .

وحَدَثَ ما توَقَّعَ «ريموندُ» فَلَمْ يَكَدْ صَلاحُ الدِّينِ يَعْلَمُ بحصارِ «حمْص» ، حَتَّى أَسْرَعَ بفكِّ الحصارِ عَنْ «حَلَب» ، وسارَ إلى الفرنْج عازمًا على سَحْقِهِم ، لكنَّهُم لَمْ يَلْقَوْه ، وفرُّوا إلَى حصْنِ الأكْراد ، قَبْلَ أَنْ تحْصُدَهم سُيوفُه ، وأَسْرَعوا إلَى الحَلَبِيِّينَ يَطْلُبونَ الثَّمَنَ الَّذِى اتَّفقوا عليْه .

وكانَ سُرُورُ الحَلَبِيِّينَ عَظيمًا بفكِّ الحصار ، فَلَمْ يَتَأَخَّرُوا عَنْ دَفْع الثَّمَنِ ، وبَعَثُوا إلَى «ريمونْدَ» يَشْكُرونَه ، ويُقَدِّمونَ له المالَ الكَثير والهَدايا الثَّمينَةَ ، وعَبَّرَ أَميرُ «حَلَبَ» عَنِ اعْترافِهِم بالجَميل ، وأَطْلَقَ جَميعَ أَسْرَى الفرنْج الَّذين كانُوا فى الحُبوس ، ومِنْ بَيْنِهِم الفارِسُ اللِّصُّ المُغامِرُ «رينُو دى شاتيُون» الَّذِى يُسَمَّى «إرْناط» ، والَّذى كانَ إطْلاقُهُ ، شَرًّا مُسْتَطِيرًا وخطرًا بالِغًا .

(٤)

زادَتْ قُلوبُ الفرنْج خَوْفًا منَ الوَحْدَة ، الَّتى يَجِدُّ صَلاحُ الدِّينِ فى تَكْوينِها ، ومَعَ أَنَّ أَحْوالَهُم ساءَتْ ، فَقَدْ دَفَعَهُم ذلكَ الخَوْفُ إلَى أَنْ يَعْمَلُوا علَى مَنْع هذه الوَحْدَة مِنْ أَنْ تَتمَّ ، فَهِيَ أَكْبَرُ مُصيبَةٍ تُصيبُهم ، وإذا تَمَّتْ فَلا أَمَلَ لَهُمْ فِى البَقاءِ بالشَّرْق .

ولَجَئُوا إلى السِّلاح ، وقَذَفَ كُلَّ ما فِى جُعْبَتِهم منَ السِّهام ، عَلَّها تُصيبُ الرَّأْسَ المُفكِّرَ ، وجَمَعوا جُموعَهُم ودَرَّبوها ، ونَفَخوا فِى صُدورِها ما أَشْعَلَها حَماسَةً ، والْتَقَوْا مَعَ البَطَلِ فِى مَعارِكَ كَثيرَةٍ طاحِنَة ، كانَ النَّصْرُ فيها حَليفَه .

ولَمْ يَكُنْ ورَثَةُ نُورِ الدِّينِ الَّذين ظَلُّوا علَى انْشقاقِهِم ، بأَقَلَّ منَ الفرنْج فَزَعًا مِنْ صَلاحِ الدِّين ، فأَجْمَعوا أَمْرَهُم علَى لِقاءِ البَطَلِ بكُلِّ قُوَّتِهِم ، وهَزيمَتِه وطَرْدِه منَ الشَّام ، وحَشَدوا حَشْدًا هائلاً ، منَ الحَلَبِيِّين ، والمَواصلَة ، وأُمَراءِ الجَزيرَةِ وديارِ بَكْر ، وزَحَفوا علَى دِمَشْقَ بالنَّارِ المُتَّقِدَةِ فِى قُلُوبِهِم ، والخَوْفِ الشَّديدِ المُضْطَرِبِ فى صُدورِهِم .

فَاسْتَعَدَّ صَلاحُ الدِّينِ لِلقائِهِم ، بِمَنْ مَعَه مِنَ الجُنود ، وأَقْبلَتْ جُيوشُ مِصْرَ فِى حَماسَة ، وانْضَمَّتْ إِلَيْه زائِرة ، مُنادِيَةً بِسَحْقِ المُنْشَقِّين ، وفَناء الفِرَنْج .

وعِنْدَ «تَلِّ القاضِى» على الطَّريق بَيْنَ «حَلَب» و«حَماة» كانَتْ أَواخِرُ إِبْريلَ مِنَ العامِ السَّادِسِ والسَّبْعينَ بَعْدَ المائَة والأَلْفِ مِنَ المِيلاد ، تَشْهَدُ اللِّقاءَ بَيْنَ الجَمْعَيْن ، ورُءُوسُ العادِينَ تَطيرُ مِنْ فَوْقِ الأَكْتافِ بالأَعْناق ، وأَجْسادُهُم تَهْوى تَحْتَ سَنابِكِ الخَيْلِ ، تَفْريها(١) وتَخْلِطُها بالرِّمال ، ثُمَّ تَشْهَدُ الهَزيمَةَ الماحِقَةَ الَّتى حَلَّتْ بِجُنْدِ الشَّيْطان .

قُتِلَ الكَثيرُ وجُرِحَ الكَثيرُ ، وأُسِرَ الكَثيرُ ، وفَرَّ الباقُون يَطلُبُون النَّجاةَ ، مَذْعُورينَ ، لا يُصَدِّقونَ أَنَّهم بِقَيْدِ الحَياة ، والمُنْتَصِرُونَ مُتَحَفِّزُونَ ، يَطْلُبون مِنَ السُّلْطانِ أَنْ يَسْمَحَ بِتَعَقُّبِهِم ، لِيَذوقوا ماذاقَ سِواهُم مِنَ المَوْتِ الزُّؤام(٢) ، فقَالَ لَهم فِى بَشاشَةِ الفَرْحَةِ بالنَّصْرِ العَظيم :

- دَعُوهم ولا تَتْبَعوهُم ، ولا تُتْعِبُوا أَنْفُسَكُم بِمُلاحَقَتِهِم ، فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ !

إِنْ كانُوا قَدْ فَرُّوا ، فَهُمْ فِى القُيودِ المُحْكَمَة ، لا يَقْدِرُون على التَّخَلُّصِ مِنْها حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنْهُم ، وسَنُدْرِكُهم سَريعًا ، فَإِمَّا عادُوا إِلَى الجَماعَة ، وانْتَظَموا فِى سِلْكِها ، وإِمَّا حَقَّتْ عَلَيهم كَلِمَةُ اللهِ ، وأُلْحِقوا بِتِلْكَ الرِّمَمِ المُعفَّرَةِ بالتُّراب .

وماذا بَعْدُ ؟ .

أَمَلى كَبيرٌ فِى أَنْ نَسيرَ إِلَى القُدْس ، ولكِنَّ أَشْواكًا أُخْرَى بَقِيَتْ فِى الطَّريق .

وأَرَى أَنْ نَعُودَ إِلَى مِصْرَ ، لِنُعِدَّها إِعْدادًا كافِيًا لِلْمَعْرَكَةِ الفاصِلَة ، ونَطْمَئِنَّ عَلَيْها بَعْدَما نُغادِرُها ، مِنَ الفِرَنْج ، ومِنَ الأَيْدى الخَفِيَّة الَّتى تَعْمَلُ فى الظَّلام ، فَنُلاقِىَ الفِرَنْجَ هُنا ، وبالُنا مُسْتَريحٌ ، وقُوَّتُنا كُلُّها مُوَجَّهَةٌ إِلَيْهِمْ ، ونُنْهِىَ المَعْرَكَةَ الَّتى طالَتْ بِها الأَيَّامُ .

---

(١) تفريها : تقطعها . (٢) الزؤام : السريع .

مناقشة الفصل السادس

١ «الرأى أن نعيد حسابنا، وننظر بعين الهدوء والحكمة بغير تهور، ونبحث عن طريق غير الحرب التى لم نعد نطيقها، ونلجأ إلى السلاح الذى نُجِيدُ استخدامه، سلاح المكر والدهاء، والاستهانة بكل الفضائل»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- جمع «حكمة» : (أحكام - حكومات - حِكَم)
- المقصود «بالتهور» : (الشجاعة - التعجل - الاندفاع)
- مرادف «نطيق» : (نقبل - نتحمل - نحب)

(ب) من قائل العبارة السابقة ؟ وما المناسبة ؟

(جـ) مالسلاح المقصود ؟ وما الهدف من استخدامه ؟

(د) وضح من الأحداث مدى نجاح استخدام هذا السلاح .

٢ «ولم تقتصر تلك الأيدى الخبيثة على الشام وحده، وامتدت بشرِّها إلى مصر، وَخَلَقَتْ لصلاح الدين فيها متاعب كثيرة أوشكت أن تزلزل أركان دولته، لكنه كان ساهرا، مفتح العينين والقلب»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- معنى «تُزلزل» : (تُهدِّم - تهز - تُهْلِك)
- مضاد الخبيثة (الطيبة - الرائعة - الحسنة)

(ب) ما المقصود بالأيدى الخبيثة ؟ ولماذا امتدت بشرها إلى مصر ؟

(جـ) ما موقف صلاح الدين من المؤامرات التى حدثت بمصر ؟

(د) هل توقفت تلك المؤامرات بعد ذلك ؟

٣ قال ملك القدس للرسول الذى بعثه إلى صلاح الدين:

«إنى اخترتك أيها الوزير لأمر عظيم، وعلمى بك أنك قادر على كتم الأسرار، والتخلص من المضايق الحرجة، وقد أعطيت حلاوة اللسان، والمهارة فى إلباس وجهك غطاء الخداع المحكم، فاسمع ما أقول لك، ونفذه حرفا حرفا».

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- مرادف «الحرجة» (الضَّيقَة - المُتْعِبة - المؤلمة)
- مفرد «مضايق» (ضِيق - مضيق - ضائق)
- مضاد «قادر» (فاشل - عاجز - فاسد)

(ب) ما الأمر العظيم الذى اختير له هذا الوزير ؟ وما الذى رشحه له ؟

(جـ) حذر الملك وزيره من صلاح الدين . فلماذا ؟

(د) (المهارة فى إلباس وجهك غطاء الخداع المحكم) - وضح الجمال فى العبارة .

---

٤ «وماعلم عمورى بانكشاف المؤامرة وفشلها، وما حل برسوله، حتى خر مغشيا عليه، وحُمِل سقيما، يَتَفَزّعُ ويهذى بكلام عجيب، ولم يعش طويلا وقتلته الصدمة الشديدة، وتعطل جناح الكماشة الشرقى، ووقف مكانه هناك مشلولا لا يستطيع حراكا».

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لمايأتى :

- مرادف «خر» (نزل - سقط - جلس)
- جمع «جناح» (جوانح - جُنَح - أجنحة)
- مضاد «سقيما» (سليما - جيدا - قويا)

(ب) وضح كيف انكشفت المؤامرة ، وبين من له الفضل فى ذلك .

(جـ) ما أثر فشل الخطة على كل من الملك وصلاح الدين ؟

(د) «تعطل جناح الكماشة الشرقى» - وضح المقصود بالعبارة مبينا موقف الجناح الآخر .



الفصل السابع

من أجل القدس

(١)



وَقَفَ الفرنْجُ مُرْتَعدِينَ ، يَرَوْنَ اقْتِرابَ نِهايَتِهم ، بَعْدَما أَفْلَحَت الجُهودُ فِى ضَمِّ الصُّفوفِ ، وَإِقامَةِ الوَحْدَةِ الإِسْلامِيَّةِ الشَّامِلَة ، وعَقَدُوا الاجْتِماعاتِ الكَثيرَةَ ، وتَحَدَّثُوا عَنْ خَطَرِ هذه الوَحْدَةِ وكَيْفَ يَدْفَعونَه ، واتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَسْتَنْجِدوا بِأُورُبَّا ، واثِقِينَ مِنْ أَنَّها سَتَهُبُّ إِلَى نَجْدَتِهِم بِجُموعٍ أَقْوَى وأَشَدَّ بَأْسًا .

وكانَ صَلاحُ الدِّينِ عَلى عِلْمٍ بِما يُدَبِّرُونَ ، خائفًا عَلى مِصْرَ مِنْ حَمْلَةٍ تَأْتِى مِنْ تِلْكَ البِلادِ ، أَوْ تَجِيءُ مِنَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، فَعَزَمَ عَلَى تَحْصِينِ مِصْرَ ، قَبْلَ نُشوبِ المَعْرَكَةِ الفاصِلَةِ ، تَحْصِينًا مُحْكَمًا ، يَرُدُّ عَنْها كُلَّ مَا يُفاجِئُها مِنَ البَحْرِ ، لِتُؤَدِّىَ دَوْرَها كامِلاً .

واتَّفَقَ هُوَ وقُوَّادُه عَلى إِقامَةِ قَلْعَةٍ ضَخْمَةٍ ، فَوْقَ جَبَلِ المُقَطَّمِ ، عَلَى قِمَّةِ أَعْلَى صُخُورِه ، فِى مَوْقِعٍ يَتَحَكَّمُ فِى العاصِمَةِ ، ويُمَكِّنُها مِنْ رَدِّ كُلِّ عُدْوانٍ عَلَيْها ، مِنَ الدَّاخِلِ أَوْ مِنَ الخارِجِ ، وأَنْ يُنْقَرَ فِى الصَّخْرِ بِداخِلِها بِئْرٌ عَمِيقَةٌ ، تُغَذِّيها بِالمَاءِ العَذْبِ ، الَّذِى يُغْنِيها فِى كُلِّ الأَوْقاتِ . ويُنْقَرُ

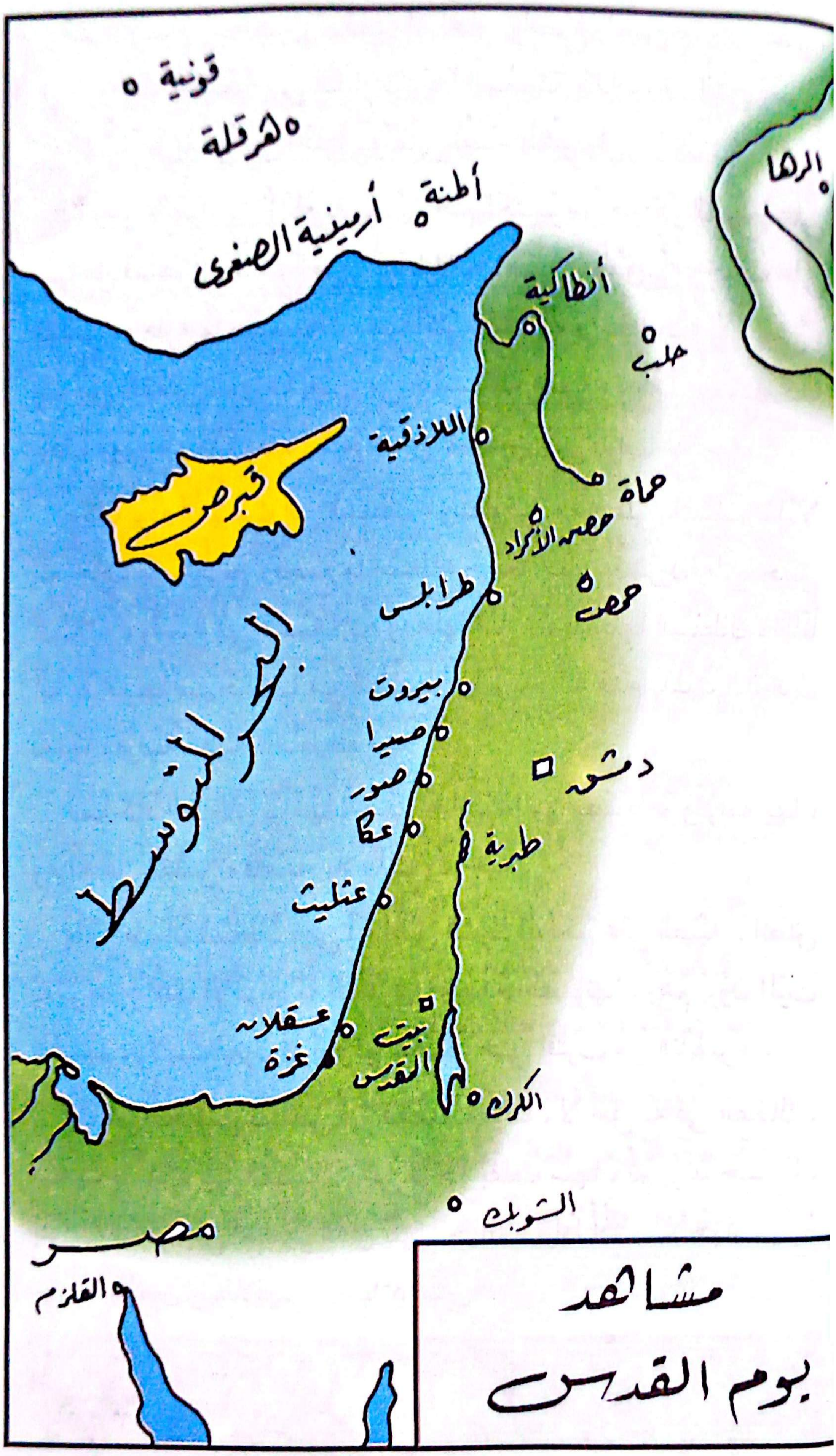
حَوْلَها خَنْدَقٌ عَميقٌ يُحيطُ بِها مِنْ جَميعِ جَوانِبِها ، وأَنْ يُقامَ سُورٌ ضَخْمٌ حَوْلَ القاهِرَةِ ومِصْرَ ، كَما يُبْنَى حائِطٌ كَبيرٌ خارِجَ القاهِرَةِ عَلَى طَريقِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، يَرُدُّ كُلَّ هُجومٍ مِنْ ذلِكَ الجانِبِ .

وبَدأَ العَمَلُ بِهِمَّةٍ ونَشاطٍ . ولَمَّا اطمَأَنَّ السُّلْطانُ إِلَى سُرْعَتِه ودِقَّتِه ، تَرَكَه لأَعْوانِه يُتِمُّونَه ، وذَهَبَ إِلَى الثُّغورِ الَّتى يَتَوَقَّعُ أَنْ يُهاجِمَها الفِرَنْجُ واطْمَأَنَّ عَلَيْها ، وأَمَرَ قُوَّادَها بِاليَقَظَةِ ، وأَنْ يَكونُوا عَلَى اسْتِعْدادٍ لِلْخَطَرِ .

ولَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَليلٍ ، وأَقْبَلَتِ الأَنْباءُ إِلَيْه ، بِأَنَّ فِرَنْجَ الْغَرْبِ قَدْ أَسْرَعوا إِلَى نَجْدَةِ القُدْسِ ، وبَعَثوا حَمْلَةً ضَخْمَةً يَقودُها «فيليبُ الأَلْزاسِيُّ» «وكُونْتُ فَلانْدَرْز» ، كَما بَعَثَ الإِمْبِراطورُ البيزَنْطِيُّ إِلَى مَلِكِ القُدْسِ ، يَعْرِضُ عَلَيه القِيامَ بِحَمْلَةٍ مُشْتَرَكَةٍ لِغَزْوِ مِصْرَ ، وفَصْلِها عَنِ الوَحْدَةِ الشَّامِلَةِ ، وتَحْطيمِ جَناحِها القَوِيِّ ذى البَأْسِ الشَّديدِ . ولِيُثْبِتَ صِدْقَه فى هذا العَرْضِ ، بَعَثَ إِلَى «عَكَّا» بِأُسْطولٍ ضَخْمٍ ، مُكَوَّنٍ مِنْ سَبْعينَ سَفينَةً حَرْبِيَّةً ، بِها قُوَّةٌ هائِلَةٌ مِنَ المُحارِبينَ الأَشِدَّاءِ ، اسْتِعْداداً لِذلِكَ الغَزْوِ .

وكانَ عَوْنُ اللهِ أَقْوَى مِمَّا يُدَبِّرونَ ، فَأَفْشَلَ حَمْلَةَ «فيليبَ» ، ولَمْ تُحَقِّقْ أَمَلَها ، وأَفْشَلَ الحَمْلَةَ المُشْتَرَكَةَ الَّتى دَبَّرَها الإِمْبِراطورُ البيزَنْطِيُّ ، فَارْتاحَتْ نَفسُ صَلاحِ الدِّينِ ، وعادَ يُوَجِّهُ هَمَّه إِلَى تَحْصينِ مِصْرَ ، وإِعْدادِها لِتَكونَ جاهِزَةً ، لِخَوْضِ الْمَعْرَكَةِ الأَخيرَةِ الفاصِلَةِ .

وبَيْنَما هُوَ جادٌّ فِى الْعَمَلِ لِيَنْتَهِىَ مِنْه سَريعًا ، إِذا بِالأَخْبارِ تُقْبِلُ إِلَيْه بِأَنَّ «فيليبَ» الأَلْزاسِيَّ ، لَمْ يَعُدْ إِلَى بِلادِه بَعْدَ فَشَلِ حَمْلَتِه ، واتَّجَهَ بِمَنْ مَعَه إِلَى «حَماةَ» و «حارِمٍ» وهَجَمَ عَلَيْهِما ، وأَنَّ مَلِكَ القُدْسِ أَسْرَعَ إِلَيْه ، يُشارِكُه فِى هذا الهُجومِ عَلَى بِلادِ المُسْلِمينَ ، وأَرْسَلَ إِلَيْه جَيْشًا كَبيرًا .



قونية
هرقلة
أطنة
أرمينية الصغرى
الرها
أنطاكية
حلب
اللاذقية
قبرص
حماة
حصن الأكراد
طرابلس
حمص
البحر المتوسط
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
طبرية
عثليث
عسقلان
غزة
بيت المقدس
الكرك
الشوبك
مصر
القلزم
مشاهد
يوم القدس

فترك إتمام التحصين لبعض أتباعه، وأسرع بالخروج من مصر، وانطلق مشمرًا إلى الشام، ليبدأ المعركة الفاصلة، التى يعمل كل ما يعمل من أجلها، ويمنى نفسه بنشوبها.

ومن «العريش» اندفع بقوة، يهاجم الكثير من مراكز الفرنج على سواحل فلسطين، مقتربًا من «عسقلان»، ففزع «بلدوين» وخاف على القدس، وحار فيما يصنع، فقد ذهب أكثر جيشه ليعين «فيليب» الألزاسى، ولم يبق بالقدس سوى ما يقرب من خمسمائة فارس، وجعل يضرب كفًا بكف، ويروح ويغدو، فقد أصبح جيش المسلمين على أبواب القدس.

وكان بوده أن يبعث إلى السلطان، ويتفاوض معه على التسليم، لولا أنه خاف من الفرنج، فجمع ما استطاع جمعه ممن يقدرون على حمل السلاح، وأسرع إلى «عسقلان» ودخلها قبل أن يدخلها السلطان، ظانًا أنه بدخولها سيحميها من السقوط، ولم يدر أنه قدم بذلك الدخول لعدوه، فرصة ذهبية لاصطياده فيها.

فما كاد السلطان يبلغها، حتى حاصرها، وحصره هو وقواته بها، وعزله عن القدس، فأصبح بلا ملك ولا جيش.

ولما اطمأن السلطان، إلى أنه أطبق الشرك المحكم على الصيد. انطلق يغير على المدن الإفرنجية الأخرى، ويهدم حصونها، وهم يرون الموت بأعينهم، ولا يستطيعون أن يحركوا ساكنًا، حتى اقترب من «نابلس».

والطائر المحبوس ينتفض فى قفصه، فزعًا، لا أمل له فى الفكاك، يبحث بمنقاره بين القضبان، عن فرجة يفلت منها، ثم يرتد حسيرًا، يترقب الدعوة إلى المصير الذى ينهى حياته، مادًا أذنيه للأخبار، يتبع بهما المسلمين وانطلاقهم فى البلاد آمنين.

فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهم ابْتَعَدوا كَثيرًا عَنْ قَفَصِهِ ، وأَنَّهُم مَشْغولُونَ بالمَغانِم الهائِلَة ، مُسْتَهينُونَ بالفرنْج ، دَبَّرَ لِلْهُرُوبِ ، واسْتَطاعَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ بَيْنِ القُضْبان ، وفَرَّ إِلَى القُدْسِ ، يَتَحَسَّسُ رَأْسَه وجَسَدَه ، لا يُصَدِّقُ أَنَّه لايَزالُ حَيًّا ، يَتنفسُ ويَتحدَّثُ ويَسْمَعُ ويَرَى .

ولَمْ يَكَدْ يَسْتَريحُ ، حَتَّى حَرَّضَه المُتَهوِّرُونَ مِنْ قَوْمِه على القتال ، فَعَزَمَ عليه ، لكنْ بأيِّ جَيْشٍ يَلْقَى المُسْلمينَ ؟ ! وبأَيَّة عُدَّةٍ يُقابِلُهُم ؟ ! ومِنْ أَيْنَ لَهَ الجنُودُ الشُّجْعانُ الَّذِينَ يَقِفونَ لِصَلاحِ الدِّينِ ؟ ! .

وتَمَلَّكَهُ اليَأْسُ ، وكادَ يَعْدِلُ عَنْ عَزْمِه ، لكنَّ خَوْفَ الفِرِنْجِ الشَّديدَ ، دَفَعَهُم إِلَى التَّجَمُّعِ حَوْلَه ، مِنْ بَقايا الجَيْشِ ، ومِنْ حامِياتِ المُدُنِ الإِفْرِنْجِيَّةِ القَرِيبَة ، وجَعَلوا يَنْفُخونَ فِى صَدرِه ، ويَدْفَعونَه إِلَى الحَرْب ، ويَقولُون لَه : إِنَّهُ المَوْتُ ، وأَشْرَفُ لَنا أَنْ نَموتَ فِى ساحَةِ القِتالِ ، مِنْ أَنْ نُؤْخَذَ كَما تُؤْخَذُ العَصافِيرُ ، ونَفْقِدُ لَذَّةَ الحَياة .

فعادَ إِلَيْه شَىْءٌ مِنَ الحَماس ، وكَوَّنَ مِنْهُم جَيْشًا ، سارَ بِه إِلَى صَلاحِ الدِّينِ ، وأَخَذَه على حِينِ غَفْلَة ، فَتَمَكَّنَ مِنْ هَزِيمَتِهِ ، هَزِيمَةً كادَتْ تَقْضِى عليه ، وعادَ إِلَى مِصْرَ فِى حالٍ لاَ تَسُرُّ .

فَلَمَّا أَفاقَ مِنَ الصَّدْمَةِ ، جَعَلَ يُقَلِّبُ كَفَّيْه عَجَبًا ، ويَقولُ لِنَفْسِه فِى دَهْشَة : كَيْفَ حَدَثَ هذا ياصَلاحَ الدِّينِ ؟ !

اسْتَهَنْتَ بالعَدُوِّ الضَّعِيف ، فأَصابَتْكَ اسْتِهانَتُكَ بِشَرِّ ما تُصيبُ الغافِلِينَ ، وحَقِيقَةً ، لايَنْبَغِى لِلْعاقِلِ أَنْ يَسْتَهِينَ بِعَدُوِّهِ ، مَهْما كانَ صَغِيرًا أَوْ ضَعِيفًا .

وانْتَفَضَ يُقْسِمُ بالأَيْمانِ المُغَلَّظَة ، على أَلاَّ يَذوقَ طَعْمَ الرَّاحَةِ أَوْ يَحْلُو لَه وَقْتٌ ، حَتَّى يَكْسِرَ الفِرِنْجَ كَسْرًا لاَ جَبْرَ لَه ، ويُخَلِّصَ القُدْسَ سَرِيعًا مِنْ أَيْدِيهِمْ .

وبَيْنَما كانَ غارِقًا فى حُزْنِه ، شَديدَ الألَمِ لِهَزيمَتِه ، كانَ «بُلْدُوينُ» فائِضَ السُّرورِ ، يُوزِّعُ الغنائمَ علَى الجُنُودِ ، ويُهَنِّئُهُم بالنَّصْرِ الَّذى عادَ ، بَعْدَ طُولِ بُعادٍ ، ويَقولُ لَهُمْ وقَدِ ارْتَدَّ إلَيْهِ بَعْضُ الأمَلِ فِى الحَياة :

- إن النَّصْرُ حُلْوٌ ، والهَزيمَةُ مُرَّةٌ ، وما هِىَ إلا مَعْرَكَةٌ كهذِه ، وتَقْضُونَ على العرب ، وتُرِيحونَ أنْفُسَكُم مِنْ شَرِّهِم وأذاهُم .

(٢)

فِى نَشْوَةِ النَّصْرِ ، جَعَلَ «بُلْدُوينُ» يُطارِدُ بَقِيَّةَ القُوَّاتِ العَرَبِيَّةِ المُنْهَزِمَة ، حَتَّى بَلَغَ «عَسْقَلانَ» ، فَعادَ راجِعًا إلَى القُدْسِ .

وهُناكَ اسْتُقْبِلَ اسْتِقْبالَ الأبْطالِ العظام ، ودَخَلَ المَدِينَةَ تَحْتَ أقْواسِ النَّصْرِ العالِيَةِ المُزَخْرَفَة ، والأعْلامِ المُلَوَّنَةِ المُرَفْرِفَة ، والوُرُودِ المَنْثُورَة ، والتَّصْفيقِ والهُتاف ، والمُوسيقَى الصَّادِحَة ، كَما كانَ أباطِرَةُ الرُّومانِ يُسْتَقْبَلُونَ ، حِينَ يَعودُونَ مِنْ مَعارِكِهِم الطَّاحِنَة ، يُباهُونَ بالدِّماءِ الَّتى سَفَحوها ، والمُدُنِ الَّتى هَدَموها ، والمَزارِعِ الَّتى حَصَدوها ، والدُّورِ الَّتى أحْرَقوها ، وما يَسُوقُونَ مِنْ قِطاراتِ الأسْرَى ، الَّذينَ أوْقَعَهُم سُوءُ حَظِّهِم فِى قُيُودِهِم .

وفِى الحفَلاتِ الصَّاخِبَة ، الَّتى أُقِيمَتْ لِتَكْرِيمِه ، أقْسَمَ الفِرِنْجُ أمامَه عَلَى ألاَّ يَهْدَأُوا ، حَتَّى يَقْتُلوا العَرَبَ جَميعًا ، ويَمْلِكُوا بِلادَهُم كُلَّها .

ثُمَّ أسْرَعوا يُنَفِّذُونَ :

فَفِى شَمَالِ الشَّام ، هاجَمُوا إقْليمَ «حَمَاة» وغَيْرَها ، ونَهَبوا القُرَى وخَرَّبوها ، وأسَروا أهْلَهَا ، وقَتَلوا ، وأحْرَقوا ما اسْتَطاعوا .

وفى الجَنُوبِ ، نَشطَ «بُلْدُوين» يُحَصِّنُ مَمْلَكَتَه ، لِتكونَ قادرةً على دَفْعِ كُلِّ هُجوم عَلَيْها ، يَجِيءُ مِنْ «دِمَشْقَ» ، وشَرَعَ فِى بِناءِ قَلْعَة جَدِيدَة ضَخْمَة ، قَرِيبًا مِنْ «بانْيَاس» ، عِنْدَ بَيْت يَعْقُوب ، بِمَكان يُسَمَّى مَخاضَةَ الأَحْزانِ ، على الطَّرِيقِ بَيْنَ «طَبرِيَّةَ» و«دِمَشْقَ» .

وصَلاحُ الدِّينِ يَنْظُرُ إلى ما يَعْمَلُونَ ، ولا يُحَرِّكُ ساكنًا ، ومَنْ حَوْلَه يَعْجَبُونَ مِنْ صَمْتِه أمامَ ذلكَ الخَطَرِ الكَبِيرِ ، الَّذِى لا يَخْفَى عَلَيه . ولَمْ يُطِقْ بَعْضُهم صَبْرًا ، وقالَ لَهُ فى تَخَوُّف :

- كَيْفَ نَسْكُتُ يا مَوْلانا السُّلْطانَ على بِناءِ هذِه القَلْعَة ، وَهِىَ إنْ قامَتْ تَحَكَّمَتْ فِى الطَّرِيقِ وأَضْعَفَتِ القُوَى ؟ ! .

- وماذا تَرَوْنَ أَنْ نَصْنَعَ بِها ؟ .

- نُوقِفُ بِناءَها ، ونُحَطِّمُ كُلَّ شِبْرٍ يُقامُ فِيها ، ولا نَسْمَحُ بِأَنْ تَرْتَفِعَ لها قامَةٌ .

فَابْتَسَم ، وَقالَ فى غَيْرِ اهْتِمام : دَعُوهم يُنْفِقونَ الكَثِيرَ مِنْ أَمْوالِهِم ، ويَتَكَلَّفُون فِيها ما يُثْقِلُهُم ، فَهُم لا يُفكِّرون ، ولا يَحْسِبونَ حِسابًا ، ولا يَعْرِفُون أَنَّ بِناءَها سَيَهُدُّ قُواهُم ! .

ولَمْ يُهاجِمِ العَمَلَ الجارِىَ فِى بِناءِ هذا الحِصْنِ على قَدَم وساق ، وأَبْدَى عَدَمَ اهْتِمامِه به ، فَتَمَكَّنُوا مِنْ إقامَتِه كَما أَرادُوا ، وبَعْضُهم يَقولُ لِبَعْضٍ فى سُرورٍ :

- هذا رُمْحٌ نافِذٌ فِى قَلْبِ الطَّرِيقِ ، بَيْنَ شَطْرَى مَمْلَكَةِ صَلاحِ الدِّينِ فِى الشَّمالِ والجَنُوبِ ، سَيَنالُ مِنْه الكَثِيرَ ، ويُعْجِزُه عَنْ مُهاجَمَةِ القُدْسِ ، وسَيَكُونُ هذا البِناءُ حَقًّا بَيْتَ الأَحْزان ، لكِنَّها أَحْزانٌ مُسْتَمِرَّةٌ لأُولئِكَ العَرَبِ ، الَّذِينَ لا يَعْرِفُونَ ما سَوْفَ يُصِيبُهُم مِنْ خَطَرِه .

ثُمَّ عادُوا يَعْجَبُونَ مِنْ سُكوت صَلاح الدِّين عَنْه ، و «بُلْدُوين» يقولُ لَهُم فِى زَهْو : لا تَعْجَبوا ، فلَم يَعُدْ لِلْعَرَب قُوَّةٌ يُهاجِمونَنا بها ، بَعْدَ الْهَزِيمَةِ الَّتِى حَلَّتْ بِهم ، ولَوْ كانوا يَقْدِرون عَلَى شَىْءٍ ما تَأَخَّروا عَنْه .

قالَ بَعْضُهُم ، وقَلْبُه يَدُقُّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْف :

- لا تَسْتَهِينُوا أَيُّها القَوْمُ بِصَلاح الدِّين ، فَهُوَ واعٍ ، شَديدُ المَكْر ، ويَغْلِبُ عَلَى ظَنِّى أَنَّه لَمْ يَسْكُتْ إِلاَّ وهُوَ يُدَبِّرُ أَمْرًا خَطِيرًا ، وإِنْ كُنْتُ لا أَسْتَطِيعُ كَشْفَ غِطائِه ، فَلا تَغْفُلوا عَنْه ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى أَنَّكُم بَنَيْتُم قَلْعَةً حَصِينَةً فِى مَوْقعٍ خَطِيرٍ !

فَعادَ الْخَوْفُ يَدِبُّ فِى صَدْرِ المَلِك ، وقالَ وهُوَ يُحاوِلُ إِخْفاءَ ما أَحَسَّ بِه :

- دَعُونا مِنْ صَلاح الدِّينِ وجَيْشِه ومَكْرِه ، وتَعالَوْا بِنا نُتِمُّ التَّشاوُرَ فِى تَقْوِيَةِ هذا الحِصْنِ أَكْثَرَ وأَكْثَر ، لِيَكُونَ الخَنْجَرَ المَسْمُومَ فِى قُلوبِ الْعَرَبِ .

فَمَعَ أَنَّه مُحْكَمُ الْبِناء ، فَلاَ بُدَّ لَه مِنْ حامِيَةٍ شَرِسَةٍ ، شَدِيدَةِ البَطْش ، تُقِيمُ فِيه وتَحْمِيه ، فَكَمْ مِنْ حُصونٍ مِثْله وأَقْوَى مِنْه دَكَّها الْعَرَبُ ، وانْهارَتْ مُقاوَمَةُ حامِياتِها الضَّعِيفَة ، أَمَامَ صُمُودِهِمْ ، وأَسالِيبِهِم العَجِيبَةِ فِى التَّغَلُّب عَلَيها ، فَمَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَعْهَدَ إِلَيْهِم بِهذا الحِصْن ، لِنَضُمَّ إِلَيْه بِقُوَّتِهم وشَراسَتِهِم ، حِصْنًا آخَرَ يَزِيدُه صُمُودًا وبَطْشًا ، ويُعْجِزُ الْمُهاجِمِينَ عَنِ النَّفاذِ إِلَيْه ، مَهْما كانَتْ جُيوشُهُم وسُيُوفُهُم ومَكْرُهُم .

وانْتَهى الرَّأْىُ ، إِلَى أَنْ يَعْهَدُوا بِهذِه القَلْعَةِ إِلَى فُرْسانِ الدَّاوِيَّة ، لأَنَّهُم أَشَدُّ الفِرِنْج تَعَصُّبًا عَلَى الإِسْلام والْمُسْلِمِينَ ، وسَوْفَ يَقْطَعونَ الطَّرِيقَ عَلَى قَوافِلِهِم الذَّاهِبَةِ إِلَى الشَّام والآيِبَةِ مِنْه ، ويَنْهَبُونَها ويَسْلُبونَها ، ويَقْتُلُونَ أَصْحابَها ، ويَمْلأُونَ الخَزائِنَ بِالأَمْوال ، مِمَّا يَنْهَبونَه ، ومِنْ أَثْمانِ الأَسْرَى الَّذِينَ يَصْطادُونَهم .

ولم يكن صلاح الدين ساكتًا، راضيًا بما صنعوا، فبعدما اطمأن إلى قيام الحصن، رأى أن الوقت قد حان، ليضيع عليهم جهودهم وأموالهم، وبعث إليهم يطلب منهم أن يهدموه، ويبين لهم خطأ إقامته. فثار بعضهم وهدد بالقتال، وانتهوا إلى إجابة سفراء السلطان، بأنهم ليس لديهم مانع من هدمه، على شرط أن يدفع المسلمون كلّ ما أنفقوا في بنائه.

فلمّا عرض السلطانُ ستّين ألف دينارٍ، استقلّوها، فعاد يعرضُ عليهم مائةً، فرفضوا وقالوا للسفراء هازئين:

- كيفَ ظننتُمْ أنّنا سنبيعُ هذا الحِصْنَ ؟!! . ألم تعلَموا أنه رُوحُنا وحياتُنا؟!.

كيفَ خُيّلَ إليكم أننا نُفرّطُ فيه ؟! . ولوْ أُعطينا ملْءَ الأرْضِ ذهبًا ما فرّطْنا في حجَرٍ واحد منه. وإنّما كُنّا نُداعِبُكم ونَمْزحُ مَعكُم.

فعُودُوا إلى صاحبِكُم، وانقُلوا إليْه ماسمعْتُم، واعْلَمُوا أنّ سُيوفَنا قدْ شُحِذَتْ، ورماحَنا قدْ سُنّتْ، وأنّ سِهامَنا قدْ رِيشَتْ، ولَنْ يَقْدِرَ أحَدٌ عَلَيْنا بعْدَ اليَوْم.

فاشْتدّ غيْظُ صَلاح الدّينِ لِما قالُوا، وأقْسَمَ على الإسْراع بِفَتْح ذلكَ الحِصْنِ، أوْ هَدْمه على رُءوسِهِم، وجَعَلَ يَتَرَقّبُ الفُرصَةَ حَتّى سَنَحَتْ لَهُ، فهَبّ مُسْرعًا يقْتَنِصُها.

(٣)

كانَ شَهْرُ إبْريلَ، مِنَ السّنَةِ التّاسِعَةِ والثّمانينَ بَعْدَ المائَةِ والألْفِ مِنَ الميلادِ، قدْ كَسا الأرْضَ ثوْبًا سُنْدُسيًا، مِنَ العُشْبِ الأخْضَرِ النّضيرِ،

فخرجَ أهْلُ دمَشْقَ فى الصَّباح بماشيَتِهم ، إلَى المَراعى الواسعَة القَريبَة منْ «بانْياسَ» لتَرْعَى فى خَيْرِ اللهِ ونعْمَته ، فانْطَلَقَتْ تَجْرى وَتَقْفزُ ، وتأْكُلُ وتَشْرَبُ ، وتَقفُ لصغارها ، وتُقدِّمُ لها أطْباءَها[1] ، فتَمْتَصُّ لَبَنَها ، فرحَةً باليَوْم المُشْرق والخَيْر الوَفير .

فإذا بالفرنْج يُهاجمونَها ، ويَجْرُونَ وراءَها ويُمْسكُونَها ، ويُقَيِّدُونَها ، ويَقْتُلونَ رُعاتَها وأَصْحابَها ، لا يُفرِّقُونَ بَيْنَ شابٍّ وطفْلٍ ، ولا بَيْنَ رَجُلٍ وامْرَأة ، ولا يَرْحَمونَ عاجزًا ولا ضَعيفًا .

ولَمَّا طارَ الخَبَرُ إلَى «دمَشْقَ» ، هَبَّ أهْلُها مُسْرعينَ لنَجْدَة أهْلهم وأمْوالهم ، يَقودُهم «فَرُّوخْشاه» ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى «دمَشْقَ» ، وكانَ صَلاحُ الدِّين هُناكَ ، فَهَبَّ مَعَهم مُسْرعًا يَتعَجَّلُ تأديبَ المُعْتَدينَ .

وبَيْنَ المَراعى المُنْبَسطَة فى أرْضِ الله ، دارَت مَعْرَكَةٌ حاميَةٌ ، أتَى الفرنْجُ فيها بكُلِّ ما لَدَيْهم منْ قُوَّة وخداع ، فَلَمْ يُفدْ ذلكَ شَيْئًا أمامَ الإيمان العَميق والعَزْم الصَّادق ، وظَفرَ المُسْلمونَ بالعَدُوِّ ، ومَزَّقُوه شَرَّ مُمَزَّق ، وكادَ مَلكُ القُدْس يَلْقَى حَتْفَه ، ثُمَّ نَجا بشقِّ النَّفس ، بَعْدَما أُصيبَ إصابَات قاتلَةً ، ولَقى صاحبُ «بانْياسَ» منْ تلْكَ الإصابات ما عَجَّلَ بالقضاء بَعْدَ أيَّام قَليلَة .

ومَضَى السُّلْطانُ مُسْرعًا إلَى قَلْعَة بَيْت الأحْزان ، وحاصَرَها ليَدُكَّها ويَزيدَ الفرنْجَ أحْزانًا ، ثُمَّ رَأَى قَصْدًا آخَرَ أهَمَّ منْ هذا الحصار ، وبَعَثَ إلَى أخيه العادل فى مصرَ يَطْلُبُ منْه المَدَدَ .

وفى انْتظار هذا المَدَد ، نَهَضَ يَخْلَعُ أفْئدَةَ الفرنْج ، ويُلْقى الأشْواكَ فى مَضاجعهم ، فيَرْكَبُ كُلَّ يَوْم مَعَ جُنْده ، بحُجَّة الخُروج إلَى الصَّيْد والقَنْص ، ويَبْعَثُ هؤلاء الجُنودَ ومعَهُم قَبائلُ العَرَب ، إلَى «صَيْدا»

---

(١) أطباءها : الأطباء : جمع الطُّبى ، وهو حلمة الضرع فى غير الإنسان من الحيوان .

و«بَيْروت» فَيَحْصُدونَ غَلاَّتِ الفِرِنْجِ ، ويَسُوقُونَ ماشِيَتَهم ، ويَنْشُرونَ الذُّعْرَ فِى صُدورِهِم .

وانْتَفَضَتِ المُدُنُ الْعَرَبيَّةُ كُلُّها مَعَه ، تُعينُه عَلى إِقْلاقِ الفِرِنْجِ وتَحْطِيمِ أَعْصابِهِم ، تَحْصُدُ مَزارِعَهُم ، وتَقْتَلِعُ أَشْجارَهُم وتُخَرِّبُ مَصانِعَهُم ، وتُحْرِقُ دُورَهم وماشِيَتَهِم ، وتَقْتُلُ مَنْ تظْفَرُ بِه مِنْهم ، يَرْمونَهم بِالسِّهامِ ، والنِّبالِ ، والحِجارَةِ ، ويَشْتَبِكون مَعَهم بِالخَناجِرِ والأَيْدى . .

فَعَلا الصُّراخُ ، واشْتَدَّ الذُّعْرُ ، وأَسْرَعَ الفِرِنْجُ إِلى «بُلْدُوين» ، يَبْكونَ ويَتوَسَّلُون إِلَيه أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا ، فَجَمَعَ قُوَّاته كُلَّها وخَرَجَ بها لِمُنازَلَة صَلاحِ الدِّين ،لَعَلَّ الحَظَّ يُحالِفُه مَرَّةً أُخْرَى ، فَيُحَقِّق نَصْرًا يُقَوِّى القُلُوبَ ، ويَشُدُّ العَزائِمَ .

وفِى سَهْلِ «مَرْجِ العُيونِ» ، اشْتَعَلَتْ نارُ الحَرْبِ ، بَيْنَ المُسْلمينَ والعَدُوِّ ، أَتَى الفِرِنجُ فِيها بِكُلِّ ما لَدَيْهِم مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ أَساليبِ الحَرْبِ ، وأَلْقَوْا فيها بِكُلِّ ما يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْلِحَةٍ وسَواعِدَ ، فَلَمْ يُفِدْ ذلِكَ شَيْئًا مَعَ الإِيمانِ بِالْحَقِّ .

وجَعَلَتْ سُيُوفُ المُسْلِمينَ تَنْتَزِعُ رُءوسَ الفِرِنْجِ بِأَعْناقِها ، وتَشُقُّ صُدورَهُم ، نافِذَةً إِلَى حَبَّاتِ قُلوبِهم ، وأَخَذَتِ الأَيْدى تَمْتَدُّ إِلَى مَنْ ضَعُفُوا ، فَتَأْسِرُهم وتُغِلُّهم فِى القُيودِ ، كَثِيرٌ مِنهم مِنْ كِبارِ الفِرِنْجِ وفُرْسانِهِمْ المَعْدودينَ .

وكادَ «بُلْدُوينُ» يَلْقَى ما لَقِىَ غَيْرُه مِنَ القَتْلِ ،لَوْلاَ أَنَّ الحَظَّ أَمْهَلَه إِلَى جَوْلَةٍ أُخْرَى ، فَنَجَا بِصُعُوبَةٍ ، وفَرَّ هارِبًا ، لاحِقًا بِمَنْ هَرَبوا قَبْلَه ، وأَنْقَذَهُم فِرارُهُم مِنَ المَوْتِ المُحَقَّقِ .

وبَعْدَما سَجَدَ السُّلْطانُ شُكْرًا لِرَبِّه ، علَى هذا النَّصْرِ الحَاسِمِ ، الَّذى قَرَّبَه مِنَ القُدْسِ ، جَلَس يُوَزِّعُ الأَسْلابَ والغَنائِمَ ، ويَشْكُرُ القُوَّادَ عَلى ما بَذَلُوا فِى سَبيلِ اللهِ . وكانُوا يَوَدُّونَ أَنْ يَسْتَمِرُّوا فِى الحَرْبِ ، ويُهاجِمُوا

«طَبَرِيَّة» ، وبَعْدَها يُهاجِمونَ بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَأَدْرَكَ السُّلْطانُ ما يَتَرَدَّدُ فى صُدُورِهم ، وسُرَّ بَعزْمِهم وشَجاعَتِهِم ، وزادَهم عَلَى حَماسِهِمْ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ هادِئٍ :

- مَهْلاً أَيُّها الرِّفاقُ ، لا تَتَعَجَّلُوا ، فالأُمورُ مَرْهُونَةٌ بِأَوْقاتِها ، وهُناكَ ما يَدْعو إلى شَىْءٍ مِنَ التَّمَهُّلِ ، فَمَلِكُ القُدْسِ قَدْ نَجا ، وسَوْفَ تَتَجَمَّعُ حَوْلَه عَناصِرُ المُقاوَمَةِ الخائِفَةُ الَّتى بَقِيَتْ ، وتَدْفَعُه إلَى المُناوَشَةِ مِثْلَ المَرَّاتِ السَّابِقَةِ .

وقَدْ جاءَ إلَى الفِرِنْجِ مَدَدٌ مِنَ الغَرْبِ ، فى سُيُوفِ أُولَئِكَ الفُرْسانِ ، الَّذين أَقْبَلُوا مِنْ هُناكَ لِلْحَجِّ ، وبَعَثَ مَجِيئُهُم فى صُدُورِ الفِرِنْجِ بَعْضَ الأَمَلِ ، وأَحْيا شَيْئًا مِنْ رُوحِهِم المُحَطَّمَةِ ، وأَرَى أَنْ نَكْتَفِىَ الآنَ بِحِصْنِ بَيْتِ الأَحْزانِ ، نَمْحُوه مِنَ الوُجُودِ ، ونُنَظِّفُ الطَّرِيقَ مِنْه ومِنْ شَرِّه .

ولَمْ يَتَمَهَّلْ ، وانْطَلَقَ بِجَيْشِه مُسْرِعًا إلَى ذَلِكَ الحِصْنِ ، وحاصَرَه ، واشْتَبَكَ هُناكَ مَعَ الفِرِنْجِ فى مَعارِكَ قاسِيَةٍ ، سَقَطَ الحِصْنُ بَعْدَها فى يَدِه ، واسْتَوْلَى عَلَى ما بِه مِنَ الغَنائِمِ الهائِلَةِ ، وأَسَرَ الكَثِيرَ مِمَّنْ دافَعوا عَنْه ، ثُمَّ ضَرَبَه بِقُوَّةٍ وسَوَّى بِه الأَرْضَ ، وهُوَ يَقولُ فى سُرورٍ :

- ها أَنْتُم أُولاءِ أَيُّها الفِرِنْجُ رَأَيْتُم بَأْسَنا ، وعَرَفْتُم أَنَّ عَزائِمَنا قَوِيَّةٌ ، لَم تَضْعُفْ ، كَما خَيَّلَ لَكُم وَهْمُكُم ، وكَما قالَ لَكُمْ «بُلْدُوينُ» المُتَفَزِّعُ .

ولَمْ يَكْتَفِ بِتَدْمِيرِ حِصْنِ بَيْتِ الأَحْزانِ ، ومَلْءِ قُلوبِ الفِرِنْجِ مِنْ أَجْلِه بِأَشَدِّ الأَحْزانِ ، ومَضَى مُسْرِعًا يَهْجُمُ عَلَيْهِم ، ويَصِلُ انْتِصارًا بِانْتِصارٍ ، مُتَعَجِّلاً يَوْمَ القُدْسِ ، فَأَغارَ عَلَى مَناطِقِ «صُورَ» و «صَيْدا» و«بَيْرُوتَ» ، وأَقْبَلَ أُسْطُولُ مِصْرَ وهاجَمَ «عَكَّا» .

و«بُلْدُوينُ» ذاهِلٌ عاجِزٌ ، يُفَكِّرُ فى شَىْءٍ يَرُدُّ بِه سُيُوفَ المُسْلِمِينَ ، فَلَمْ يَجِدْ سِوَى أَنْ يَطْلُبَ مِنَ السُّلْطانِ هُدْنَةً ، يُوقِفُ بِها القِتالَ

مُؤَقَّتًا ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى شَيْءٍ . فوافقَ السُّلطانُ المُنتصِرُ ، امتثالاً لأمرِ رَبِّه ، بالاسْتِجابَةِ للعَدُوِّ الَّذى مالَ إِلَى السَّلْمِ ، وعقدَ الهُدْنَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ «بَلْدُوين» .

وكانَتْ قاصِرَةً على مَمْلَكَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فأصبحَ المُسلمون فى حِلٍّ مِنْ مُهاجَمَةِ غَيْرِها ، وكانَ أُسْطُولُ مِصْرَ فى مِياهِ الشَّامِ ، فصبَّ جَحِيمَه على «أَنْطَرْسُوس» .

وأَمامَ هذا الهَوْلِ ، اضْطُرَّ أَميرُ «طرابُلس» ، إِلَى أَنْ يَطْلُبَ من السُّلطانِ هُدْنَةً مُماثِلَةً لِهُدْنَةِ «بَلْدُوين» ، فوافقَ السُّلطانُ عليها كما وافقَ على ما قبلَها .

وكانَ نَظَرُ السُّلْطانِ بَعيدًا ، فَمَعَ امْتِثالِه لأَمْرِ رَبِّه ، بالاسْتِجابَةِ لِمَنْ مالَ إِلَى السَّلْمِ ، فَقَدِ اسْتَغَلَّ هاتَيْنِ الهُدْنَتَيْنِ مَعَ الفِرِنْجِ ، فى أَنْ يُصَفِّىَ حِسابَهُ مَعَ غَيْرِهِم ، وأَنْ يُتِمَّ اسْتِعْدادَه لِمَعْرَكَةِ القُدْسِ الأَخيرةِ .

فَذَهَبَ إِلَى مِصْرَ ، وعَمِلَ على تَقْوِيَةِ الجَبْهَةِ الدَّاخِليَّةِ بها ، وقَضَى عَلَى الخَوَنَةِ الَّذين بَلَغَه أَنَّهُم يَتعامَلُونَ مَعَ الفِرِنْجِ .

وحَصَّنَ الثُّغورَ[1] ، ونَظَّمَ الجَيْشَ ، وأَشْبَعَ حاجَةَ الجُنْدِ إِلَى المالِ .

ثُمَّ جَلَسَ هادِئًا ، يَقولُ فى رِضًى :

- كُلُّ هذا مِنْ أَجْلِ القُدْسِ .

كُلُّ صَعْبٍ يَهُونُ ، أَمامَ القَضاءِ عَلَى الفِرِنْجِ المُعْتَدِينَ ، وانْتِزاعِ القُدْسِ الشَّرِيفِ مِنْ أَيْدِيهِم ، وَرَدِّ الحَقِّ المَغْصوبِ إِلَى صاحِبِه .



(١) الثغور : مفردها الثَّغْر ، وهو الموضع يخاف منه هجوم العدو .

مناقشة الفصل السابع

١ «وقف الفرنج مرتعدين، يرون اقتراب نهايتهم، بعدما أفلحت الجهود فى ضم الصفوف، وإقامة الوحدة الإسلامية الشاملة، وعقد الاجتماعات الكثيرة، وتحدثوا عن خطر هذه الوحدة، وكيف يدفعونه، واتفقوا على أن يستنجدوا بأوربا، واثقين من أنها ستهب إلى نجدتهم بجموع أقوى وأشد بأسا»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (ضم) : (شد - جمع - ربط)

- مفرد (الجهود) : (الجهاد - الجُهْد - الجَهْد)

(ب) ما أثر الوحدة العربية الإسلامية فى تحقيق الهدف القومى ؟

(جـ) لماذا ارتعد الغاصبون من قيام الوحدة الإسلامية ؟

(د) بدأ «صلاح الدين» بتحصين مصر . وضح مع التعليل .

(هـ) كان (فيليب) و (إمبراطور بيزنطة) يستهدفان مصر بحملتيهما . اشرح مع التعليل .

(و) بِمَ توحى كلمة (أفلحت) فى موضعها ؟

(ز) (يَرَوْنَ اقتراب نهايتهم) . وضح الجمال فى العبارة .

(ح) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة (يرتعدون) ؟

٢ «فما كاد السلطان يبلغها، حتى حاصرها، وحصره هو وقواته بها، وعزله عن القدس، فأصبح بلا ملك ولا جيش. ولما اطمأن السلطان إلى أنه أطبق الشرك المحكم على الصيد، انطلق يغير على المدن الإفرنجية الأخرى»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايأتى :

- مرادف «حصر» : (ضيّق - حوّط - قيّد) .

- مضاد «عزل» : (مهد - مكن - قرب) .

(ب) لماذا لم يجهز «صلاح الدين» على «بلدوين» وجيشه داخل الحصار ؟

(جـ) انتهز «بُلدوين» انشغال المسلمين عنه وفرّ إلى القدس .

اكتب تقريرا عن الموقف الحربى من خلال دراستك للفصل .

(د) «أطبق الشرك المحكم على الصيد - تمكن من ملك القدس»

أى التعبيرين أجمل ؟ ولماذا ؟

(هـ) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة (قواته) ؟

٣ **«وجعلوا ينفخون فى صدره، ويدفعونه إلى الحرب، ويقولون له: إنه الموت، وأشرف لنا أن نموت فى ساحة القتال، من أن نؤخذ كما تؤخذ العصافير، ونفقد لذة الحياة، فعاد إليه شيءٌ من الحماس وكون منهم جيشا، سار به إلى صلاح الدين، وأخذه على حين غفلة»**

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (غفلة) : (نسوة - سهوة - نومة) .

- مضاد : (دفع) : (جذب - ضم - قرب) .

(ب) السلاح المعنوى أمضى أسلحة الحرب .

دلل على صدق هذه المقولة من خلال الفقرة .

(جـ) «ينفخون فى صدره ، ويدفعونه إلى الحرب»

عبر عن المعنى بكلمة واحدة .

(د) «نؤخذ كما تؤخذ العصافير - نؤخذ أسرى» .

أى التعبيرين تفضل ؟ ولماذا ؟

(هـ) كيف تفلت النصر من يد «صلاح الدين» ؟ وبماذا استدركه ؟



الفصل الثامن

الفارس اللص

(١)



أَخَذَتِ الرِّيحُ تَهُبُّ فِى جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَقْتَرِبُ بِسَفِينَتِهِم مِنَ الْهَدَفِ الأَكْبَرِ ، «فَبُلْدُوِينُ» طَرِيحُ الفِرَاشِ ، تَشْتَدُّ بِهِ العِلَّةُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْم ، وَأَحْوَالُ مَمْلَكَتِهِ تَزْدَادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْم ، قَدْ تَهَدَّمَ عِمَادُهَا القَوِىُّ بِمَوْتِ الإِمْبِرَاطُورِ البِيزَنْطِىِّ ، وأفزعه إِسْرَاعُ خَلَفِه «كُومْنِينَ» الثَّانِى بِإِرسَالِ بَعْضِ أَتْبَاعِهِ إِلَى السُّلْطَانِ صَلاحِ الدِّينِ ، يَخْطُبُ وُدَّه وَيَعْقِدُ مَعَه صُلْحًا .

وفِى هذه الأَحْوال البَائِسَة ، انْتَقَلَ النَّشَاطُ الإِفْرَنْجِىُّ إِلَى الفَارِسِ اللِّصِّ إِرْنَاط ، الَّذِى أَطْلَقَه الحَلَبِيُّونَ فِيمَنْ أَطْلَقُوا مِنْ أَسْرَى الفِرَنْجِ ، شُكْرًا لَهُم عَلَى مُعَاوَنَتِهِم إِيَّاهُمْ ، فِى رَفْعِ يَدِ السُّلْطَانِ عَنْهُم ، وَفَكِّ الحِصَارِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ «حَلَبَ» عَامَ خَمْسمائَة وثلاثة وسَبْعِينَ مِنَ الهِجْرَة .

فَبَعْدَ إِطْلاقِه أَسْرَعَ بِالزَّوَاجِ مِنْ صَاحِبَةِ الأُرْدُنِّ ، طَمَعًا فى بِلادِها الَّتِى وَرِثَتْهَا مِنْ أَبِيهَا ، وَتَوَلَّى بِذَلِكَ حُكْمَ الأُرْدُنِّ وحِصْنَى الكَرَكِ والشَّوْبَكِ ، وَمَضَى فِى طَرِيقِه السَّابِقَةِ ، مع جِيرَانِه مِنَ المُسْلِمِينَ وغَيْرِ المُسْلِمِينَ ، يَسْرِقُ ،

وينْهَبُ ، ويَسْطُو على النَّاس ، غَيْرَ مُتَنَبِّه إِلَى أَنَّ السِّتَّةَ عَشَرَ عامًا الَّتى قَضاها فى سِجْنِه ، قَدْ غَيَّرت كُلَّ شَىْء ، وأَنَّ دمَشْقَ والقاهِرَةَ اليَوْمَ دَوْلَةٌ مُوَحَّدَةٌ ، فِى يَدِ حُكومَةٍ واحِدَة ، تَحْتَ رايَةِ السُّلْطان صَلاح الدِّين .

وكانَ حِصْنا الكَرَك والشَّوْبَك ، يَتَحَكَّمان فى طَرِيقِ حُجَّاج المُسْلِمِينَ ، القاصِدِينَ منَ الشَّام إِلَى مَكَّةَ والمَدِينَة ، وفِى الطَّرِيق الرَّئِيسِىِّ بَيْنَ شَمال دَوْلَة مِصْرَ والشَّام المُوَحَّدَة ، وبَيْنَ جَنوبِها ، فَجَعَل يُهاجِمُ مِنَ الحِصْنَيْنِ قَوافِلَ الحُجَّاج ، وقَوافِلَ التِّجارَة ، ويَقْطَعُ الطَّرِيق بَيْنَ الشَّمالِ والجَنُوبِ ، فَرِحًا بِما يَنْهَبُ ويَسْلُبُ ويَقْتُلُ ، لا يَكُفُّ ساعَةً عَنِ اقْتِراف جَرائِمِه .

ولَمْ يَحْتَرِم الهُدْنَةَ المَعْقُودَةَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ، وبَيْنَ مَمْلَكَةِ القُدْسِ الَّتى يَتْبَعُها ، وخَرَجَ على رَأْسِ قُوَّة مِنْ أَتْباعِه ، إِلَى واحَة ، فى مُنْتَصَف الطَّرِيق بَيْنَ الأُرْدُنِّ وبَيْنَ المَدِينَة المُنَوَّرَة ، تُسَمَّى «تَيْماء» ، لِيَزْحَفَ مِنْها إِلَى الأَرْض المُقَدَّسَة بالحِجاز ، ويَضَعَ يَدَه عَلَيْها .

فَلَمْ يُمَكِّنْه «فَرُّوخْشاه» ابنُ أَخِى صَلاح الدِّين ، وخَرَجَ مِنْ دِمَشْق مُسْرِعًا إِلَى الأُرْدُنِّ لِغَزْوِها ، عالِمًا بِأَنَّ الخَبَرَ إِذا بَلَغَ إِرْناط ، لَوَى عُنُقَه وعادَ مُسْرِعًا لِحِمايَتِها .

وقَدْ كانَ ما أَرادَ «فَرُّوخْشاه» . فَما عَلِمَ إِرْناطُ بِخُروجِه حَتَّى فَزِعَ أَشَدَّ الفَزَع ، وأَسْرَعَ عائِدًا إِلَى إِمارَتِه لِيَحْمِيَها ، فَبَلَغها بَعْدَ ما نَهَبَ قافِلَةً كَبِيرَةً مِنْ قَوافِلِ الحُجَّاج ، كانَتْ فِى طَرِيقِها مِنْ «دِمَشْق» إِلَى مَكَّةَ المُكَرَّمَة ، وسَلَبَ مِنْها ثَرْوَةً ضَخْمَةً ، واعْتَدَى على مَنْ فِيها اعْتِداءً شَنِيعًا .

فاهْتَزَّتْ قُلُوبُ المُسْلِمِينَ ، فِى جَوانِب الدَّوْلَة الإِسْلامِيَّة كُلِّها ، وعَلَت الصَّرَخاتُ ، وتَصاعَدَت الزَّفَراتُ ، وارْتَفَعَت الحَناجِرُ تُنادِى بِالجِهادِ ، وغَدا

المسلمون كلما شقّ الأذانُ الآفاق ، بكوا ، أشدّ البكاء ، وأسرع الناس إلى ذوى الأمر منهم فى كلّ مدينة ، يقدمون أنفسهم وأموالهم ، فداء لبيت الله وقبر رسوله عليه السلام ، وينادون بالانتقام .

والسلطانُ صلاحُ الدّين يفورُ غيظًا ، ومن حوله قوّاده قد لبسوا السّلاحَ ، وأقبلوا بجموعهم إليه ، ليسيروا سريعًا إلى القدس ويفتحوه ، وهُوَ شديدُ الألم ، لكنّه يتذكّرُ الهُدْنة ، فتردُّه عن الحرب ، وتجعلُه يُجيبُ ذلكَ الحماسَ المُتّقِدَ ، البارِقَ فى عيونِ جنودِه ، ويقولُ فِى هُدوءٍ :

- مَهلا أيُّها الأبْطالُ ، لستُ خائفًا مِنْ أولئك الأشرار ، الّذين انحطّتْ قُواهم ، كَما انحطّتْ أخلاقُهُم ، لكِنّ الهُدْنَةَ قائِمَةٌ لَمْ تَنْتهِ ، وهِى غُلٌّ[1] فِى أعْناقِ المُؤمنينَ ، فماذا أفْعَلُ ؟ ! .

قالَ بَعْضُهم وهُوَ يَشُدُّ كَفَّهُ على مَقْبِضِ سَيْفِهِ : لكِنّهُم يا مَوْلاىَ السُّلْطانَ ، قَدْ نَقضُوا العَهْدَ بِما أتَوْا مِنْ شَرِّ الأعْمالِ ، وهَلْ بَعْدَ سَيْرِهِم إلَى مُهاجَمَةِ الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ وقَبرِ رَسولِ اللهِ مِنْ نَقْضٍ ؟ ! .

فَعادَ صَلاحُ الدِّينِ يُهَدِّئُه ويُهَدِّئُ إخوانَه ، ويَقولُ لَهُم باسِمًا :

- وهَلْ تُؤخَذُ الجماعَةُ كُلُّها بِما صَنَعَ لِصٌّ طائِشٌ مِنْها ؟ ! . وإذَا كانَ هُناكَ عِلاجٌ يَقْتَصِرُ على المُجْرِمِ وَحْدَه ، فَلِمَ لا نَقومُ بِهِ ، ونَحْفَظُ عَهْدَنا ونَبَرُّ بِمواثيقِنا ، ونُرْضِى رَبَّنا ؟ ! .

وبَعَثَ مُسْرِعًا إلَى مَلِك القُدْسِ ، يَلُومُه على ما صَنَعَ تابِعُه ، ويُذَكِّرُه بالهُدْنَةِ ، ويَطْلُبُ مِنْه أنْ يَأمُرَ إرْناطَ بِرَدِّ ما أخَذَ مِنَ القافِلَةِ ، وألّا يَعودَ إلَى مِثْلِ ما عَمِلَ مَرَّةً أُخْرَى .

---

(١) غُلّ : قيْد .



وعلَى الفَوْرِ ، أَرْسَلَ مَلِكُ القُدْسِ إلَى اللِّصِّ ، يَلُومُه ، ويأمُرُه بردِّ ما نَهَبَ ، والامْتِناع عَنْ مُهاجَمَة قَوافِلِ المُسْلمينَ ، فقابَلَ اللِّصُّ أَمْرَ المَلِك باسْتِهْزاءٍ شَدِيد ، وقالَ ساخِرًا :

- ومَن الَّذى قالَ «لِبُلْدُوينَ» المَرِيضِ العاجِزِ ، أنَّ «أرنولْد» يَخْضَعُ لأَمْرِه ، أَوْ يَخافُ تَهْدِيدَه ، أَوْ يَخْشَى صَلاحَ الدِّينِ أَوْ غَيْرَ صَلاحِ الدِّينِ ؟!! .

ومَتَى كُنَّا نَحْنُ الفرنْجَ ، نَحْتَرِمُ العُهودَ ونَحْفَظُ المَواثِيقَ ؟! . أَيَدْفَعُنا الجُبْنُ إلَى أَنْ نَفْعَلَ ما لا نُطِيقُ ، وما لَمْ نَكُنْ نَفْعَلُ ؟! .

«أَرْنولْدُ» لا يَخافُ أَبَدًا ، وسَوْفَ يَضَعُ يَدَه عَلَى مَكَّةَ والمدينَةِ ، وعلَى بِلادِ الْعَرَبِ كُلِّها ، وعلَى الشَّرْقِ بِأَجْمَعِه ، فَقَدْ جاءَ مِنْ بِلادِه لِلاغْتِصابِ ، وما خُلِقَ إلاَّ لِيَسْفِكَ الدِّماءَ ويُزْهِقَ الأَرْواحَ !! .

ثُمَّ نَظَرَ فِى وَجْهِ الرَّسولِ ، وصاحَ قائلا لَه فِى شِدَّةٍ :

- ارجِعْ إلَى سَرِيرِ مَلِكِكَ الخائِفِ ، ومِلْ علَى أُذُنِه ، وقُلْ لَه : إنِّى لَنْ أَرُدَّ شَيْئًا مِمَّا أَخَذْتُ مِنَ الأَسْرَى والأَمْوالِ ، فَهِىَ غَنِيمَتِى ، غَدَتْ مِلْكِى ، ولْيَصْنَعْ هُوَ وصَلاحُ الدِّينِ ما يَشاءانِ ، فَلَنْ يَقْدِرا عَلَى أَنْ يَنالا شَيْئًا مِنْ صاحِبِ الكَرَكِ والشَّوْبَكِ .

(٢)

زادَ هذا الرَّدُّ «بُلْدُوينَ» مَرَضًا علَى مَرَضٍ ، وعَجَبًا عَلَى عَجَبٍ لِهذا الأَحْمَقِ ، الَّذى لا يُبْصِرُ ما تَحْتَ قَدَمَيْه ، ولا يَرَى ما هُمْ فِيه مِنَ التَّمَزُّقِ والضَّعْفِ ، وما فِيه المُسْلمونَ مِنَ الاتِّحادِ والقُوَّةِ ؛وخافَ أَنْ يَبْلُغَ السُّلْطانَ ما قالَ ، فَيَشُقَّ الهُدْنَةَ ، ويُسْرِعَ إلَيْهِم ويَطْحَنَهُم ، فَبَعثَ إلَيْه عَلَى الفَوْرِ كِتابًا باكِيًا ، يَقولُ فِيه بِدُموعٍ مُنْهَمِرَةٍ :

- مَعْذِرَةً أيها السُّلْطانُ الرَّحِيمُ ، المُتَسامِحُ ، الكَبِيرُ القَلْبِ ، فَقَد اسْتَغَلَّ ذلكَ اللِّصُّ الفاجِرُ ، ضَعْفِي وعَجْزِي وقِلَّةَ حِيلَتِي ، وتَجَرَّأَ عَلَيَّ . ولَمْ يَحْتَرِمْ أَمْرِي ، ولَوْ كُنْتُ مُسْتَطِيعًا تَأْدِيبَه على وَقاحَتِه ، لأَسْرَعْتُ إِلَيْه وأَرَيْتُهُ جَزاءَ تَطاوُلِه ، وأَلْزَمْتُه بِاحْتِرامِ الهُدْنَة ، وعَلَّمْتُه ما لَمْ يَتَعَلَّمْ . لكنَّ العَيْنَ بَصِيرَةٌ واليَدَ قَصِيرَةٌ ، والعِلَّةَ مُتَوَحِّشَةٌ . وكُلُّ ما قَدَرْتُ عليه أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكُم بما كانَ ، لأُبْرِئَ ذِمَّتِي مِنْ هذا اللِّصِّ الجَبانِ .

قَرَأَ صَلاحُ الدِّينِ هذا الرَّدَّ ، وعَرَفَ ما قالَ إِرْناطُ ، فَغَلا الدَّمُ[1] في عُرُوقِه ، وهَمَّ بالرُّكُوبِ إلى ذلكَ اللِّصِّ وتَأْدِيبِه ، وتَأْدِيبِ الفِرِنْجِ مَعَه ، ثُمَّ تَذَكَّرَ الهُدْنَةَ ، والمَلِكَ المَرِيضَ ودُمُوعَه الَّتي تَسِيلُ في كِتابِه ، فَهَدَأَتْ ثَوْرَتُه ، واحْتَرَمَ الهُدْنَةَ ولَمْ يُعْلِنِ الحَرْبَ ، وظَلَّ مُحافِظًا على العَهْدِ ، يُقَوِّي جَيْشَه ، ويَنْفُخُ فِيه مِنْ رُوحِه ، مُنْتَظِرًا انْتِهاءَ الهُدْنَة ، لِيَرَى كُلُّ عادٍ جَزاءَ عُدْوانِه .

وفي تِلْكَ الأَثْناءِ ، بَلَغَه أَنَّ مُلُوكَ الشَّامِ يَتَنازَعُونَ فيما بَيْنَهم على بَعْضِ الإماراتِ ، وأَنَّ بَعْضَهُم كاتَبَ الفِرِنْجَ لِيُعِينُوه على إِخْوانِه ، فاسْتَعَدَّ لِلسَّيْرِ إِلَيْهِم ، ثُمَّ خَرَجَ مُشَمِّرًا لِيَفُضَّ هذا النِّزاعَ ، ويُعِيدَ الخارِجِينَ إلى الجَماعَةِ .

ولَمَّا بَلَغَ الفِرِنْجَ أَخْبارُ هذا الخُرُوجِ ، أَسْرَعُوا إلى مَلِكِ القُدْسِ ، يَتَشاوَرُون وإِيَّاهُ في الطَّرِيقِ لِمَنْعِ السُّلْطانِ مِنْ دُخُولِ الشَّامِ ، وانْتَهَى الرَّأْيُ إلى الوُقُوفِ في وَجْهِه ، وأَنْ يُقِيمُوا خَطَّ دِفاعِهِم عِنْدَ الكَرَكِ ، وسارُوا بِجُيُوشِهِم إلى هُناكَ ، ووَقَفُوا يَنْتَظِرُون اللِّقاءَ .

لكنَّ الأَسَدَ كانَ شَدِيدَ الحَذَرِ ، فابْتَعَدَ عَنِ الطَّرِيقِ ، واتَّجَهَ إلى إِقْلِيمِ الشَّوْبَكِ ، ولَزِمَ الأَطْرافَ حَتَّى بَلَغَ دِمَشْقَ ، فَوَجَدَ ابْنَ أَخِيه «فَرُّوخْشاه» ، قَدْ أَسْرَعَ إلى الفِرِنْجِ حِينَ عَلِمَ بِوُقُوفِهِم لَهُ ، وضَرَبَهُم ضَرْبَةً شَدِيدَةً ، وعادَ ومَعَه أَلْفُ أَسِيرٍ . وعِشْرُونَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الغَنَمِ ، فَفَرِحَ بِه وهَنَّأَهُ بِالنَّصْرِ العَظِيمِ .

---

(١) غلا الدم : زاد وارتفع .

ثُمَّ تحرَّكَ إلى الفرنْج واشْتَبكَ معهُمْ فِي معارِكَ طاحنَة ، قَتل فِيها الكَثِيرَ منْهم وأَسَرَ الكثِير .

ورأى أنْ يقْطعَ أوَّلاً شـرايينَ مَـمْلَكَةِ القُـدْسِ ، ويَفْصِلَ عَنْها إمارَتى «طَرابُلُس» و«أنطاكِيَة» بِمُهاجمَةِ بَيْروت مِنَ البَرِّ والبَحْرِ .

وجمَعَ قُوَّاتِه جَنُوب إقْليم البقاع ، واسْتَقْدَمَ أُسْطولا حَرْبِيًا مِنْ مِصْرَ ، لِمُباغتَةِ «بَيْروتَ» مِنَ البَحْرِ ، واسْتَقْدَمَ بَعْضَ قُوَّات بَرِّيَّة لِتُهاجِمَ «الدَّارُومَ» و «عَسْقلانَ» ، وتَشْغَلَ مَمْلَكَةَ القُدْسِ عَنْ نَجْدَةِ «بَيْرُوت» .

كانَ المَرَضُ قَدْ بَلَغَ بِمَلِك القُدْسِ أَقْصَى شِدَّته ، وأَعْجَزَه تمامًا عَنِ الحَرَكَة ، فأَقامَ الفرِنْجُ نائِبًا عَنْه ، يُدِيرُ المَمْلَكَة ويرْعَى شُئُونَها .

ومَعَ ما يَتَّصِفُ بِهِ ذلِكَ النَّائِبُ مِنَ الضَّعْفِ ، فَقَدْ أرادَ أَنْ يُثْبِتَ قُدْرَتَه ، وجَمَعَ جُموعَه وتَحَرَّكَ بها إلى قَرْيَةِ «الفُولَة» ، قُرْبَ «عَيْنِ جالوت» بِفِلَسْطِينَ ، ونَزَلَ بِهِم هُناكَ لِيُنْشِبَ القِتالَ مَعَ المُسْلِمِين .

لكِنَّ الفِرنْجَ رَأَوْا ضَخامَةَ جَيْشِ صَلاح الدِّين وبَأْسَ رِجالِه ، فَلَمْ يَجْسُروا على لِقائه ، وبَقِى الجَيْشان عِدَّةَ أيَّام مُتَواجِهَيْنِ ، وصَلاحُ الدِّينِ يَشُنُّ غارات عَنِيفَةً على مَواقِع الفِرنْجِ القَرِيبَةِ ، لِيُوَزِّعَ جُهودَ جَيْشِ القُدْسِ ، أَوْ يَسْتَدْرِجَه لِلدُّخول فِي مَعْرَكَة تُفْنِيه .

فَلَمْ يَخْرُجوا مِنْ أَماكِنِهم وظَلُّوا فى مَواقِفِهِمْ ، ثُمَّ رَحَلُوا ، وجُيُوشُ المُسْلِمِينَ مِنْ خَلْفِهم تَأْكُلُ مِنْ أَقْفِيَتِهِمْ ، حتى ابْتَعَدُوا ، فعادَ صَلاحُ الدِّينِ إلى «دِمَشْقَ» ، وواصَلُوا هُمْ سَيْرَهُم إلى «صَفُّورِيَّة» .

وفى تِلْكَ الأَوْقات الحَرِجَة ، أَقْدَمَ إِرْناطُ على عَمَلٍ خَطِيرٍ ، قَرَّبَ بِهِ نِهايَةَ الفِرِنْجِ ، وأَدْنَى القُدْسَ مِنْ أَيْدِى المُسْلِمِين .

(٣)

رأى إرْناطُ ، أنّ إمارةَ الكَرك صَغيرةٌ علَى مَقامه الكَبير ، وأنه أحَقّ بمَمْلكَة القُدْس ، وكانَ أوْلَى أنْ يَختاره الفرنْجُ وَصياً علَى العَرْش ونائبًا للْمَلك ، بَدَلاً منْ «لوزْ جنان» الضّعيف .

ودارَ برأسه أنْ يَكونَ أمْبراطُورًا كَبيرًا ، يَمْلكُ كُلَّ ما بيَد صَلاح الدّين منْ مَمْلَكَته الواسعَة ، المُمْتَدّة منَ اليَمَن جَنوبًا إلَى جبال طُورُوس فى الشّمال ، ومنَ الفُرات شَرْقًا إلَى النّيل غَرْباً ، ويَضعُ يَدَهُ علَى البَحْر الأحْمَر كُلّه ، ويَمْلكُ تجارَته الكَبيرَة ويَمْلأُ خَزائنَه بمالها ، ومال الدّوْلَة الواسعَة الّتى سَيَحْكُمُها .

كانَ جالسًا فى بُرْج عال منْ أبْراج قَلْعَة الكَرَك ، يَسْبَحُ فى تلْك الأمانى العَريضَة ، ويَراها تَقْترب منْهُ ثُمّ تَقْترِبُ ، حَتّى أمْسَكَ بها ، فَلَمْ يَقْنعْ خيالُهُ بهذا المُلْك كُلّه ، وصاحَ قائلا فى عَجَب :

- وأيْنَ أمَلُ الفرنْج كُلّهم ؟! . أيْنَ جَزيرَةُ العَرَب ، وهَدْمُ الإسْلام منْ أساسه بتَحْطيم كَعْبَته وقَبْر رَسُوله ؟! .

أنَسيتَ يا إرْناطُ حُلْمَكَ القَديمَ ، الّذى رَدّكَ عَنْه «فَرّوخْشاه» ؟! .

هَيّا يا إرْناطُ وأسْمع الدّنيا رَنينَ عَمَلكَ الكَبير . تَقَدّمْ ولا تَخْشَ شَيْئًا ، وإذا كانَ الحَظُّ قَدْ خانَك فى المَرّة السّابقَة ، فَسَوْفَ يَكونُ هذه المَرّة مَعك .

ولَبسَ ثيابَ الكتْمان ، وجَمَعَ حَوْلَه لُصُوصَ الفُرْسان ، وانْطَلَق بهم إلَى «أيْلَة» علَى خَليج العَقَبَة ، وفاجأها واسْتَوْلَى عليها ، ثُمّ وَقَفَ يُفَكّر .

لابُدّ للاحْتفاظ بأيْلَة ، منَ الاسْتيلاء علَى جَزيرة فرْعَوْنَ المُقابلَة لَها فى خَليج العَقَبَة ، ولكنْ ، كَيْفَ يَبْلُغُ هذه القَلْعَة ، ولابُدّ منْ سُفُن

نحمله وتنقله إليها ، وعيونُ المصريِّين مُفتَّحة ، وأُسطولهم قوىٌّ مُستعدٌّ ، وقائده حُسامُ الدِّين لُؤلُوٌ صاح لا يَغْفلُ ، وسوْف يُحطِّمُ السُّفُنَ قبْلَ أنْ تَصِلَ إلَى هذه القلْعَة .

فكَّرَ ثُمَّ فكَّرَ ، ولمَّا جاءَه الحَلُّ ، انْتفَضَ صائحًا يُهلِّلُ ، ويقولُ لِنَفْسه في غُرور :

– أنْتَ واسعُ العَقْلِ يا إرْناط ! إمْبراطُورٌ عَظيمٌ وربُّ السَّماء ! ! . بَسيطَةٌ ! بَسيطَةٌ ! .

نَعَمْ نَبْنِى فِى الكَرَك السُّفُنَ الَّتِى نُريدُها ، فِى مَكانٍ خَفِىٍّ لا يَعْلَمُ به أحَدٌ ، ثُمَّ نَحْمِلُها مُفكَّكَةً على ظُهورِ الجمالِ ، كأنَّها بَضائعُ للتِّجارة ، حتَّى نَبْلُغَ بِها خَليجَ العَقَبةِ ، وهُناكَ نُركِّبُها ، ونُنْزِلُها إلى الماء ، ونَمْضِى بها إلى الجَزيرَة ، ونَسْتَوْلِى عليْها قَبْلَ أنْ يَتَنَبَّهَ حُسامُ الدِّينِ أوْ غَيْرُ حُسام الدِّين .

ثُمَّ عَرَضَ الفِكْرَةَ على أتْباعه ، فَسُرُّوا بها ، وصَفَّقُوا طَويلاً لَها ، وجَعَلوا يُشَجِّعونَه ، ويَمْدَحُونَ عَقْلَه الواسعَ وذَكاءَه الخارقَ ، ولُعابُهم يَسيلُ علَى المُلْك الفَسيح وثَرواته الهائلَة . قَدْ أيْقَنوا بخَيالهم الطَّائرِ ، أنَّهم سَيَبْلُغونَ ما رَسَمَ الوَهْمُ لِرَئيسهم الطَّائشِ ، غَيْرَ مُقدِّرِينَ ما سَوْف يُصيبُهم مِنْ وراء ذَلكَ التَّهَوُّرِ والانْدفاع .

وما تَمَّ تَرْكيبُ هذه السُّفُنِ ، حَتَّى انْدَفَعَ بَعْضُها إلَى جَزيرَة القَلْعَة واسْتَوْلَى عَلَيها ، وانْدفَعَ البَعْضُ الآخرُ إلَى البَحْرِ الأحْمرِ ، وانْحَدَرَ على المَوانى المِصْريَّة الصَّغيرَة القائمة عَلَيْه .

مُفاجَأةٌ عَجيبَةٌ لَمْ يَكُنْ أحَدٌ يَتَوقَّعُها ، أثارَت الفَزَعَ فِى قُلوبِ النَّاسِ ، لأنَّهم لَمْ يَرَوْا مِنْ قَبْلُ سُفُنًا إفْرنْجيَّةً تَشُقُّ ماءَ البَحْرِ .

ومن بين ما أغاروا عليه، ميناء «عيذاب» المصرى الكبير، المواجه لميناء جُدَّة من جهة الغرب، ونهبوا بضع سُفُن تجاريَّة، كانت مُقْبِلةً من جُدَّة، واليمن، وعدن، والهند، وقتلوا الكثيرين ممن بها، وأسروا من تمكَّنوا منهم، وأحرقوا المراكب التى لم يتمكنوا من أسرها، وكانت ستَّة عشر مركبًا بأحمالها ورجالها، وأخذوا مركبًا ينقل الحُجَّاج من جُدَّة إليها، لأنها كانت طريق حُجَّاج مصر، يأتون إليها من شمالها وجنوبها، ويركبون السُّفُن منها إلى جُدَّة، ثُمَّ يعودون إليها بعدما يقضون حجَّهم كما ذهبوا، وبعد ذلك يتفرَّقون فى البلاد .

وفيما بين قوص وعيذاب، أسروا قافلةً ضخمةً من الحُجَّاج وقتلوا جميع من فيها، وأخذوا مركبين فيهما بضائعُ كثيرةٌ من اليمن، ونهبوا من السَّاحل أطعمةً كثيرةً، كانت مُعدَّةً للإرسال إلى الحرمين الشَّريفين، وارتكبوا فظائع تشقُّ القلوب وتُدمى العيون .

ولم يهدأوا، ونقلوا نشاطهم المُدمِّر إلى شاطئ الحجاز المُقابل، واندفعوا فى جرائمهم، حتَّى اقتربوا من مدينة رسول الله، وإرناط شديدُ الفرح، يصيح فيهم مُشجِّعًا، ويدفعهم إلى ضرب المُسلمين فى قبلتهم، وخوض البحر الأحمر إلى جنوبه، والاستيلاء على عدن، ووضع أيديهم على تجارة اليمن، وإغلاق هذه المياه من الشَّمال والجنوب، واحتكار تجارة الشَّرق الأقصى .

والنَّاس فى فزعٍ شديدٍ يصرُخون ويستغيثون .

(٤)

بلغت أخبارُ هذه الفاجعة صلاح الدِّين وهو فى دمشق، على أجنحة الحمام الزَّاجل، الَّذى ربط به أجزاء مملكته كُلَّها، وتمكَّن به من

الإلْمَام السَّرِيع بِكُلِّ ما بها ، فأَسْرَعَ كِتابَه على أَجْنحة هذا الحمام إلى مِصْرَ ، يَأْمُرُ أَخَاه العادل ، بالنُّهوض لإنْقاذ الحَرَمَيْن الشَّرِيفَيْن ، والقَضاءِ على هذه الحَمْلَة الغاشمة .

وبسُرْعَة البَرْق ، اسْتَعَدَّ الأُسْطولُ المِصْرِيُّ القَوِيُّ ، وقفز بِسُفُنه يَشُقُّ مياهَ البَحْرِ الأَحْمَر ، يَقودُه حُسامُ الدِّين لُؤْلُؤ ، قائدُ البَحْرِيَّة المِصْرِيَّة الذَّكِيُّ الشُّجاعُ ، وحاصَرَ أَيْلَةَ ، وأَحْرَقَ ما بها مِنْ سُفُنِ الفِرِنْج ، وأَسَرَ مَنْ فيها ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَتعقَّبُ السُّفُنَ عِنْدَ عَيْذابَ وشَواطِئِ الحجاز ، فدَهَمَها ودَمَّرَها ، وأَطْلَقَ مَنْ فِيها مِنْ تُجّارِ المُسْلمِينَ الَّذين أَسَرَهُم الفِرِنْجُ .

وأَمامَ الهَوْلِ الَّذى فاجَأَ الفِرِنْجَ ، تَرَكَ بَعْضُهُم السُّفُنَ ، وفَرُّوا هائمين فى الجِبالِ على وُجُوهِهِم ، وحُسامُ الدِّينِ خَلْفَهُم بِجُنوده ، قَدْ اسْتَأْجَرَ مِنَ العَرَبِ خَيْلاً ، وانْدفَعَ بِها بَيْنَ الجِبالِ ، يُطارِدُهم ، ويَأْسِرُ مَنْ يَلْحَقُ بِهِم ، حَتَّى أَسَرَهُم جَمِيعًا .

وعَلَى أَجْنِحَة الحَمام الزَّاجِلِ ، طارَ خَبَرُ النَّصْرِ إلى السُّلْطان ، فَسَجَدَ لله شُكْرًا ، وسَجَدَ المُسْلمون مَعَه دامِعِى العُيون ، ثُمَّ أَعْطَى أَمْرَه ، فانْطَلَقَ الحَمامُ إلى مِصْرَ بِرَدِّه ، يَأْمُرُ قائدَهُ الظَّافِرَ بِأَن يُنَفِّذَ فِيهِم أَمْرَ اللهِ تعالَى ، ويقولُ له فى كِتابه :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

﴿ إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة المائدة – الآيتان (٣٣ ، ٣٤) .

وهؤلاءِ الفِرنجُ يَستَحِقُّونَ أقسَى العِقابِ ، بِما صَنَعُوا مِنْ سَفْك الدِّماءِ ، والتَّطاوُلِ علَى اللهِ وعلَى بَيْتِهِ وقَبْرِ رَسولِهِ ، فَاقْتُلوهُم جَميعًا ، بَعْدَما تُعْلِنونَ لِلنَّاسِ إجْرامَهُم .

فَانطَلَقوا بِهِم فِي البِلادِ ، يَزُفُّونَهم فِي مَواكِبَ كَبِيرَةٍ شامِتَةٍ ، وهُم يَرْكَبونَ الجِمالَ مَقْلُوبِي الأَجْسادِ ، وُجُوهُهم إلَى أَذْنابِها وظُهُورُهم إلى أَعْناقِها ، فِي أوضاعٍ مُخْتَلِفَةٍ تَنْتَزِعُ الضَّحِكاتِ ، وتُفَجِّرُ السُّخْرِياتِ ، والطُّبولُ تَدُقُّ مِنْ حَوْلِهِمْ والأَبْواقُ تَنْفُخُ بِقُوَّةٍ . والصُّنُوجُ تُوالِي تَصْفِيقَها ، والمزامِيرُ جادَّةٌ فِي بَعْثِ أنفاسِها الَّتِي تُفَتِّتُ أَفْئِدَتَهم ، بِقَدْرِ ما تَبْعَثُ الفَرْحَةَ فِي صُدورِ المُسْلِمِينَ المثْلُوجَةِ بِنَصْرِ اللهِ ودَحْرِ الباغِينَ .

والنَّاسُ عَلَى جانِبَي الطُّرُقِ فِي زَحْمَةٍ شَدِيدَةٍ ، خَرَجُوا بِجُموعِهِم رِجالاً ونِساءً وأطفالاً ، أصِحَّاءَ ومَرْضَى ، شِيبًا وشَبابًا ، مُسْرِعِينَ ، لِيُشاهِدوا هؤلاءِ المُجْرِمينَ الَّذينَ عانَدُوا اللهَ ، وَظَنُّوا أنَّهم سَيَنالونَ شيئًا مِنْ بَيْتِهِ وقَبْرِ رَسولِهِ ، رافِعِينَ أصْواتَهُم بِالتَّهْلِيلِ والتَكْبِيرِ ، والحَمْدِ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ ، الَّذي نَصَرَ جُنْدَه ، وحَفِظَ بَيْتَه وحَمَى قَبْرَ رَسُولِهِ .

كانَ أُولئِكَ العادُونَ ، يَسِيرونَ مُطَأْطِئي الرُّءوسِ ، لِيُخفُوا ماتُعْلِنُ وجوهُهُم من الخِزْيِ ، والخَوْفِ من المصِيرِ المَحتومِ الَّذي أُعْلِنَ لَهُم ، والصَّيْحاتُ كُلُّها تُنادِي قائِلَةً فِي قُوَّةٍ :

- أَيْنَ إِرْناطُ اللَّعينُ؟ ! لِمَ قَتَلْتُموهُ قَبْلَ أنْ تَقْتُلَه هذه الزَّفَّةُ القاصِمَةُ ؟ ! .

وكانَ اللِّصُّ قَدِ اسْتَطاعَ الفِرارَ بِشِقِّ النَّفْسِ ، وظَنَّ أَنَّه نَجا ، لكِنَّ صَلاحَ الدِّينِ أَقْسَمَ ألاَّ يَغْفِرَ لَهُ هذه الخَطِيئَةَ أَبَدًا ، مُنْتَظِرًا وَقْتَ العِقابِ الأَلِيمِ الَّذي يَقْتَرِبُ فِي السُّيوفِ البارِقَةِ الَّتِي تَتَبَّعُ هذا الباغِيَ الأَثِيمَ .



١ «أخذت الريح تهب فى جانب المسلمين، وتقترب بسفينتهم من الهدف الأكبر، «فبلدوين» طريح الفراش، تشتد به العلة يوماً بعد يوم، وأحوال مملكته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، قد تهدم عمادها القوى بموت الإمبراطور البيزنطى، وأفزعه إسراع خلفه «كومنين الثانى» بإرسال بعض أتباعه إلى السلطان صلاح الدين يخطب وده ويعقد معه صلحاً».

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (تهب) : (تثور - تقوى - تكثر)
- مفرد (أحوال) : (حوْل - حالة - حال)
- مضاد (العلة) : (النشاط - الصحة - القوة)

(ب) ما المقصود بقوله : «الهدف الأكبر» ؟

(جـ) فى الفقرة إجمال وتفصيل . وضح ذلك .

(د) لماذا كان الإمبراطور البيزنطى عماد مملكة القدس ؟

(هـ) ماذا تعرف عن (كومنين) ؟ وما الذى جعل ملك القدس يفزع منه ؟

(و) «أخذت الريح تهب فى جانب المسلمين - أخذ الهواء يهب فى جانب المسلمين» . أى التعبيرين أدق ؟ ولماذا ؟

(ز) بين ما توحى به الكلمات التالية فى موضعها من العبارة :

«تهب - الأكبر - طريح الفراش»

وكان حصنا «الكَرَك والشوْبك» يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين القاصدين من الشام إلى مكة والمدينة، وفى الطريق الرئيسى بين شمال دولة مصر والشام الموحدة، وبين جنوبها، فجعل يهاجم من الحصنين قوافل الحجاج وقوافل التجارة، ويقطع الطريق بين الشمال والجنوب، فرحاً بما ينهب ويسلب ويقتل، لا يكف ساعة عن اقتراف جرائمه.

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (هاجم) : (اقتحم - واجه - قاتل)
- مفرد (قوافل) : (قُفْل - قافل - قافلة)
- مضاد (القاصدين) : (المتخلفين - المنصرفين - المعرضين)
- ماذا يريد الكاتب بقوله : «القاصدين من الشام إلى مكة» ؟

(ب) مَنْ كان على حصنى الكرك والشوبك ؟ وكيف وصل إليهما ؟

(جـ) اكتب نبذة مختصرة . توضح فيها حياة اللص إرناط .

(د) كان لإرناط أحلام تراوده ، حطمها «فرّوخشاه» . وضح ذلك .

(هـ) ما موقف كل من «صلاح الدين» «وبلدوين» من أعمال إرناط التخريبية ؟

(و) حدد الأسباب التى أدت إلى استفحال شأن «إرناط» ، وإزعاج المسلمين .

(ز) الكرك والشوْبك موقعان استراتيجيان استغلهما «إرناط» . اشرح .

٢ «ومع ما يتصف به ذلك النائب من الضعف، فقد أراد أن يثبت قدرته، وجمع جموعه، وتحرك بها إلى قرية (الفولة) قرب عين جالوت بفلسطين، ونزل بهم هناك؛ لينشب القتال مع المسلمين، لكن الفرنج رأوا ضخامة جيش «صلاح الدين» وبأس رجاله، فلم يجسروا على لقائه، وبقى الجيشان عدة أيام متواجهين، و«صلاح الدين» يشن غاراتٍ عنيفة على مواقع الفرنج القريبة؛ ليوزع جهود جيش القدس، أو يستدرجه للدخول فى معركة تفنيه»

(ا) تخير الصحيح مما بين القوسين لمايلى :

- مرادف (ينشب) : (يثير - يبدأ - يعلن)

- مفرد (جموع) : (جماعة - جمع - جامع)

- مضاد (ضخامة) : (قلة - ضعف - صغر)

(ب) بِمَ توحى العبارة «ولم يجسروا على لقائه» ؟

(جـ) ما الخطة التى رسمها «صلاح الدين» للاستيلاء على بيت المقدس؟

(د) من أين أتى «صلاح الدين» بالقوات التى هاجم بها «بيروت» ؟

(هـ) كيف صرف «صلاح الدين» نظر ملك القدس عن نجدة بيروت له ؟

(و) ما الحيلة التى استدرج بها «صلاح الدين» جيش العدو فى عين جالوت ؟ وما نتائج المعركة ؟

(ز) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «يتصف» ؟





الفصل التاسع

يوم حطين

(١)



أَسْرَعَ صَلاحُ الدِّينِ ، يَسْتَعِدُّ لِلْمَعْرَكَةِ الفاصِلَةِ مَعَ الفرنج ، لِيُنْهِى ذلِكَ الصِّراعَ الَّذى طَالَ ، ويُرِيحَ قُلُوبَ المُسْلِمينَ الَّتى تفورُ غَضَبًا ، فقامَ بِتَنْظِيمِ الجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ فِى البِلادِ كُلِّها ، لِكَيْلا يَجِدَ العَدُوُّ فيها ثُغْرَةً يَنْفُذُ مِنْها ، ويُؤَخِّرُ ساعَةَ النَّصْرِ .

ونَقَلَ بَعْضَ الأُمَراءِ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكَانٍ ، واخْتارَ لِلأَجْزاءِ الرَّئِيسةِ مِنَ الدَّوْلَةِ مَنْ تَشْتَدُّ ثِقَتُه فيه .

وجَعَلَ يَبْحَثُ عَنْ مَواطِنِ الضَّعْفِ فَيُقَوِّيها ، والمُسْلِمُونَ يَتَعَجَّلُونَ اللِّقاءَ ، وهُوَ يَسْتَمْهِلُهُم حَتَّى تَحِينَ الفُرْصَةُ المُناسِبَةُ ، الَّتى تُمَكِّنُهم مِنَ الضَّرْبَةِ القاصِمَةِ .

فَإِذا بِأَرْناط يُعَجِّلُ ذلكَ اللِّقاءَ بِحُمْقِه وخِسَّته ، فُيهاجِمُ قافِلَةً(١) إِسْلامِيَّةً كَبِيرَةً ، كانَتْ فِى طَرِيقِها إِلَى الشَّامِ ، مارَّةً بِحِصْنِ الكَرَكِ ،

(١) قافلة : الرفقة الكثيرة من الناس المسافرين ذهابا أو إيابا . والجمع : قوافل .

تحمِلُ تجارات كثيرةً فيها نعَمٌ جَليلةٌ ، ويَسْلُبُ أمْوالَها ، ويَغْصِبُ تجاراتها ، ويَقْتُلُ رجالَها ، ويَسْبِى نساءَها ويَخْطَفُ أطْفالَها ، لَمْ يَنْجُ مِنْ أفْرادها إلاَّ القَليلُ ، الَّذينَ أسْرَعوا إلَى السُّلْطانِ فِى دمَشْقَ ، صارخينَ فِى أسْوإ حال .

وكانَ إرْناطُ بَعْدَ فراره منْ مَعْرَكَة البَحْرِ الأحْمَرِ ، قَدْ ضاقَتْ به الأرْضُ بما رَحُبَتْ ، فَأقْبَلَ إلَى السُّلْطان باكيًا نادمًا ، وطَلَبَ صَفْحَه ، وعاهدَه علَى التَّوْبَة ، وأقْسَمَ لَه علَى ألاَّ يعودَ إلَى شَرِّه ، فَرَقَّ السُّلْطانُ الرَّحيمُ لحاله وعَفا عَنْه .

فَلَمَّا فَعلَ فَعْلَتَه بالقافلَة ، اشْتَدَّ غَضَبُه عليه ، ونَدمَ علَى تَرْكه دُونَ أنْ يُؤَدِّبَه ، وبَعثَ إلَيْه يَلُومُه ، ويُذَكِّرُه بالأمانِ والعَهْدِ ، ويَطْلُبُ منه إطْلاقَ الأسْرَى وردَّ ما غَصَبَه ، فَهَزِئَ مِنْ رُسُله ، وصاحَ فيهم ساخرًا ، يَقولُ فِى كِبْرٍ ، واسْتِهانَة :

- لَيْسَ لَكُمْ عِنْدى شَىْءٌ ، فَارْجعُوا إلَى صاحبِكُم ، وقُولُوا لَه : إنَّ «أرْنُولْدَ» لَنْ يُفرِّطَ فِى قُلامَة ظُفْرٍ مِنْ غَنيمَته ، ولَنْ تَسْتَطيعَ يَدٌ أنْ تَمْتَدَّ إلَيْها ، فَلْيُرْسِلْ إلَى نَبيِّه مُحَمَّدٍ ليَأْتِىَ إلَيه ، ويُخَلِّصَها مِنْ قَبْضَته إذا قَدَرَ ! .

فَفاضَ بِالسُّلْطان الغَضَبُ ، وبَكَى بُكاءً حارًّا ، ووَدَّ لَوْ طارَ إلَيْه بِسَيْفه وخَطَفَ رَأسَه ، جزاءَ تَطاوُله علَى المَقام الكَريم ، وعَقَدَ العَزْمَ علَى سُرْعَة حَرْبِ الفِرنْج ، والانْتهاءِ مِنْ رِوايَتِهم ، وبَعَثَ إلَى جَوانبِ الدَّوْلَة كُلِّها يَدْعُو إلَى الجِهادِ المُقَدَّس .

وكانَ خَبَرُ القافلَة ، ومُهاجَمَةُ الأراضى الحجازيَّة ، قَد طارَ فِى البلاد ، وأثارَ النُّفوسَ وأوْجَعَ الصُّدورَ ، ثُمَّ جاءَ رَدُّ اللِّصِّ نارًا زادَت القُلوبَ اشْتعالاً ، فَماجَت البِلادُ ، وأسْرَعَ الخُطَباءُ والبُلَغاءُ إلى المساجد الَّتى امْتَلأتْ بالثائرينَ ، وقامُوا بَيْنَهُم ، يَزيدُونَهم ثَوْرَةً . بِما يُلْقُونَ علَيْهم مِن

آيات الله العظيم وأحاديث رسوله الكريم ، وما يقصون من قصص الفداء ، الَّتى تحث على الجهاد والتَّضحية ، وتبيِّن ما أعدَّ من الجزاء الأوْفى فى جنَّات النَّعيم المُقيم للشُّهداء الأبْرار .

وتضامَّ الأُمراء وتصافوْا ، ومَنْ كانَ فى صدْره شىءٌ منْ أخيه نسيَه ، وعبَّئُوا قوَّاتِهم ، وانْطَلَقوا إلَى صلاح الدِّين بدمَشْق ، مُكبِّرين مُهلِّلينَ ، سيُوفُهم مَرْفوعةٌ ووُجوهُهُم عازمَةٌ .

ففرِحَ السُّلْطانُ بِهِم ، وشكَرَ لَهُم نُهوضَهُم إلَى اللِّقاء الأكْبر ، ثُمَّ ضمَّهُم إلَى ساحات التَّدْريب ، الَّتى نُصبتْ فى كثير منَ الأماكن ، تُلْقى علَى المُتطوِّعين دُروسًا فى القتال وفُنونه ، يَقُومُ بالتَّعْليم بها أبْطالٌ خاضُوا الْحَرْب وعَرَكوها ، ومَهَرُوا فيها ، بما أُلْقىَ إليْهم وما اكْتسبُوه منْ تَجاربهم .

ومعَ هذا التَّدْريب الْحَرْبىِّ ، تَدْريبٌ نَفْسىٌّ ، يَشْحَنُ الصُّدور بالإيمان ، والثِّقة بالنَّفْس ، والشَّجاعة ، والإقْدام ، فيُقوِّى السَّواعِدَ ويُحْكمُ الضَّرَبات .

حتَّى اطْمأنَّ إلَى قُوَّته ، وتجمَّعَ لَدَيْه الكثيرُ منَ الجُيوش ، فحدَّدَ موْعدَ السَّيْر إلَى العَدُوِّ ، وقامَ الاسْتعْدادُ علَى قدَم وساق ، يسْتَكْملُ كُلَّ ما يُعينُ علَى النَّصْر .

وفى أوَّل المُحرَّم منْ عام خمْسمائَة وثَمانينَ منَ الهجْرَة ، خرَجَ السُّلْطانُ يهُزُّ الآفاقَ بجَيْشه الكَبير المُدرَّب ، وأسْلحَته الكَثيرَة البارقَة ، وقُوَّاده الأقْوياء ، وجُنوده الشَّديدى التَّحَمُّس ، حتَّى بلَغَ رأسَ الماء قريبًا منْ «بُصْرَى» ، فترَكَ فيه ابْنَه الأفْضلَ نُورَ الدِّين وكلَّفَه بالبَقاء حتَّى تتَجمَّعَ الجيُوشُ كُلُّها عنْدَه ، وتكْتَملَ الإمْداداتُ الَّتى لاتَزالُ تُقْبلُ منَ البلاد .

واتَّجَه هُوَ إلَى «بُصْرَى» القَريبَة منْ بُحَيْرَة «طَبريَّة» ، ونَصبَ خيامَه هُناكَ ، ينْتَظرُ عَوْدَةَ الحُجَّاج ، ليَحْميَهُم منَ اللِّصِّ الَّذى يقفُ بحصْنه علَى الطَّريق . وقَطعَ ما حَوْلَ الحصْن منْ أشْجار ، وأتْلفَ كُلَّ ما هُناكَ منَ الزُّروع والكُروم ، وأطْبقَ علَيْه الحصارَ .

ولمَّا وَصلَتْ إمْداداتُ مصْرَ ، وزَّعَها ، وعَيَّنَ لَها مَواقِفَها ، وكَلَّفَ بَعْضَها أَنْ يَنْتَشِرَ فِى أَراضِى الكَرَكِ والشَّوْبَكِ ، وأَقامَ هُوَ عِنْدَ «بُصْرَى» ، وظَلَّ هُناكَ شَهْرَيْنِ ، وابْنُه الأَفْضَلُ عِنْدَ رَأْسِ الماءِ ، تَتجَمَّعُ لَدَيْه الجُيوشُ الإسْلامِيَّةُ وتَنْتَظِرُ الأَوامِرَ ، والفِرِنْجُ يَتَتَبَّعونَ السُّلْطانَ ، ويَعْرِفُونَ حَرَكاتِه واسْتِعْداداتِه ، ويُدَبِّرونَ للاشْتِباكِ مَعَه .

وعند «صَفُّورِيَّةَ» قُرْبَ «طَبَرِيَّةَ» ، الْتَقَى الجَمْعانِ ، وشَدَّ المُسْلِمونَ على الفِرِنْجِ بِخَيْلِهِم ورَجْلِهِم ، فَكَسَرُوهم ، وقَتَلُوا الكَثيرَ مِنْهُم ، وفِى مُقَدِّمَتِهِمْ رَئِيسُ الطَّائِفَةِ الأَسْبَتارِيَّةِ ، الشَّدِيدَةِ التَّعَصُّبِ عَلَى الإسْلامِ والمُسْلِمينَ ، وكادَ رَئِيسُ الطَّائِفَةِ الأُخْرَى المُتَعَصِّبَةِ ، الَّتى تُسَمَّى الدَّاوِيَّةَ يُقْتَلُ ، لَوْلا أَنَّهُ اسْتَطاعَ الفِرارَ ، وأُسِرَ الكَثِيرُ مِنْ فُرْسانِهِم ، وعادَ المُسْلِمُونَ بِالكَثِيرِ مِنَ الغَنائِمِ والأَسْلابِ .

(٢)

كانَ السُّلْطانُ حِينَ المَعْرَكَةِ بالكَرَكِ ، فَلَمَّا بَلَغَه ذَلكَ النَّصْرُ ، اهْتَزَّ طَرَبًا ، وفَرِحَ مَنْ مَعَه ، وزادَت عَزائِمُهُم قُوَّةً ، ولَمْ يَلْبَثْ طَويلاً ، وتَحَرَّكَ بِهِم إلَى «عَشْترا» جِوارَ «دِمَشْقَ» وضَرَبَ فيه خِيامَه وجَمَعَ جَيْشَه ، ونَظَّمَ صُفوفَه ، وجَعَلَ عَلى كُلِّ كَتيبة قائِدًا مِنْ أَمْهَرِ قُوَّادِه ، وبَعَثَ فِيهِم أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى القَوْلِ ، وأَشَدَّهُم تَأْثيرًا فِى النُّفُوسِ ، يُثَبِّتُونَهم ويُقَوُّونَ عَزائِمَهم ، والقُوَّاتُ الإسْلامِيَّةُ تَتَوافَدُ عليه مِنْ جَمِيعِ البِلادِ ، تَتَحَرَّقُ شَوْقًا إِلَى القِتالِ فِى سَبِيلِ اللهِ ، حَتَّى بَلَغَتْ عِدَّتُها اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ المُقاتِلِينَ الأَشِدَّاءِ ، زَحَمُوا الفَضاءَ وضاقَتْ بِهِم الأَرْجاءُ .

وفِى يَوْمِ الجُمُعَةِ لِثَلاثَ عَشْرَةَ بَقِينَ مِنْ رَبِيعِ الآخِرِ ، مِنَ السَّنَةِ الثَّالثَةِ

والثَّمانِينَ والخَمْسمَائَة مِنَ الهجْرَة ، تَحَرَّكَ السُّلْطانُ بجَيْشه الكَبِير مِنْ «عشْترا» إِلَى الأَرْدُنّ ، ونَزَلَ هُناكَ بتَلِّ الأُقْحُوان ، وأَقامَ به خَمْسَةَ أَيام ، يُحَدِّدُ المَواقِعَ ، ويُعَيِّنُ لِلجُنود أَماكِنَهُم ، ويَحُثُّهُم على الثَّبات والصَّبْر ، وقَدْ جَعَلَ لِكُلِّ كَتيبَة عَلامَةً تُميزُها مِنْ غَيْرِها . لِيَعْرِفَ ما بَذَلَ كُلٌّ مِنْها مِنْ بَلاء ، ولِيُثِيرَ ذَلِكَ الشِّعارُ التَّنافُسَ بَيْنَ الكَتائِب ، ويُقَوِّيَ هِمَّتَها .

ولَمَّا رَأَى الفِرَنْجُ قُوَّةَ المُسْلِمينَ بتَضامُنِهِم ووَحْدَتِهِم ، أَيْقَنوا بالهَلاك ، وبَدَتْ لَهُمْ نِهايَتُهُم كاشِرَةً عَنْ أَنْيابِها ، فَسَعَى بَعْضُهُم إِلَى بَعْض ، وصَرَخَ بَعْضُهُم فِى بَعْض ، يَفْتَحُون الأَعْيُنَ عَلَى الخَطَرِ الماحِقِ الَّذِى يُحيطُ بهِم ، وجَعَلوا يَلُمُّونَ كُلَّ سَيْف وكُلَّ خَنْجَر ونَبْل ، حَتَّى تَجَمَّعَ لَدَيْهِم ما يَقْرب مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ مُقاتِل ، ظَنُّوا أَنَّهُم سَيُحْرِزُونَ بهِم نَصْرًا عَظِيمًا ، يَقْلِبُونَ به الكِفَّةَ عَلَى المُسْلِمينَ ، ويُبْعِدونَهم عَنِ القُدْس ، ثُمَّ عَنِ الشَّام بَعْدَه ، ثُمَّ عَنِ الأَرْضِ كُلِّها ، وانْتَظَرُوا أَنْ يُقْدِمَ إِلَيْهِم صَلاحُ الدِّينِ فِى «صَفُّورِيَّة» .

فَلَمْ يَتَحَرَّكِ السُّلْطانُ إِلَيْهِم ، وانْقَضَّ عَلَى «طَبَرِيَّة» ، وفَتَحَها وأَسَرَ مَنْ فِيها ، وبَقِيَتْ قَلْعَتُها مُمْتَنِعَةً عَلَيه ، والفِرَنْجُ يَرْتَعِدُون خَوْفًا مِنْ سُقوطِها فِى يَدِه ، فَيَسْقُطُ بَعْدَها القُدْسُ . وجَعَلوا يَصْرُخونَ فِى الجُنود ، ويُثِيرُونَ حَماسَتَهُم ، ويَدْفَعونَهُم لِلسَّيْر إِلَى صَلاحِ الدِّين ، حَتَّى تَحَرَّكُوا ، فَسُرَّ لِتَحَرُّكِهِم ، ورَتَّبَ بَعْضَ رِجالِه لِمُحاصَرَةِ القَلْعَة ، واسْتَعَدَّ لِلقَضاء الأَخِير عَلَى أُولَئِكَ المُعْتَدِينَ .

وعَلَى سَطْحِ جَبَلِ «طَبَرِيَّة» كانَ اللِّقاءُ ، فَتَراشَقَ الجَيْشانِ بالنِّبال ، ثُمَّ تَقارَبا واصْطَدَمَ الفُرْسانُ بالفُرْسان ، وعَلا صَوْتُ الحَدِيد وصَهِيلُ الخُيُول ، وصُراخُ مَنْ تَخْتَرِقُ السُّيوفُ صُدُورَهُم ، ومَنْ تَفْرِى سَنابِكُ الخَيْلِ أَجْسامَهُم ، واشْتَدَّ التَّزاحُفُ والتَّناحُرُ ، حَتَّى حَجَزَ الظَّلامُ بَيْنَ الفَرِيقَيْن ، فَباتَ كُلٌّ مِنْهُما يَنْتَظِرُ النَّهار ، لِيَقْفِزَ فِى ضَوْئه إِلَى نُحورِ الأَعْداء .

ولَمْ يَكَدْ صَباحُ الجُمُعَةِ الرَّابعُ والعِشْرونَ مِنْ رَبيعِ الآخِرِ ، يُلْقِى على الكَوْنِ بَصيصًا مِنَ النُّورِ ، حَتَّى كانَ المُسْلِمونَ أَسْبَقَ إِلَى ظُهورِ الخَيْلِ .

وبَعْدَ لَحَظاتٍ قِصارٍ ، كانَتِ السُّيوفُ تُصَوِّتُ ، والأَفْراسُ تَصْهَلُ ، والصُّراخُ يَعْلُو ، والرُّءوسُ تَطايَرُ ، والمُسْلِمُونَ يَشُدُّونَ على الفِرِنْجِ ، يَضْرِبُونَ فَوْقَ الأَعْناقِ ، ويَضْرِبُونَ مِنْهُم كُلَّ بَنانٍ ، وكُلَّما تَجَمَّعوا فِى مَكانٍ لِيَصُدُّوا المَوْتَ المُتَدافِعَ إِلَيْهِم ، أَخَذَتْهُم سُيوفُه وحَصَدَتْهُم مَناجِلُه .

ومَضَى يَوْمُ الجُمُعَةِ بِسُيُولِ الدِّماءِ ، وتَلاهُ يَوْمُ السَّبْتِ والقِتالُ مُسْتَعِرٌ ، جُنْدُ اللهِ يَطْلُبونَ ما عِنْدَ اللهِ ، وفَرِيقُ الشَّيْطانِ يَطْلُبونَ ما عِنْدَ الشَّيْطانِ ، والبَلاءُ يَنْحَطُّ على الفِرِنْجِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وصُراخُهم يَعْلُو ، وفَزَعُهم يَشْتَدُّ .

ثُمَّ زادَهُم فَزَعًا أَنْ حِيلَ بَيْنَهُم وبَيْنَ الماءِ ، فَقَدْ كَشَفَهُم المُسْلِمونَ عَنْه ، وأَبْعَدوهم عَنْ مَواقِعِه ، وأَقْصَوْهُم عَنْ بُحَيْرَةِ «طَبَرِيَّةَ» ، فاسْتَماتُوا فِى الوُصولِ إِلَى الماءِ بِغَيْرِ جَدْوَى .

وكَثُرَ بِهِم القَتْلُ ، واشْتَدَّ بِهِم العَطَشُ ولَفْحُ الحَرِّ ، وأَشْعَلَ المُسْلِمونَ النَّارَ فِى الحَشائِشِ الجافَّةِ المُحِيطَةِ بِالمَكانِ ، فَشَبَّتْ حَرائِقُها فِى وُجُوهِ الفِرِنْجِ تَسْعَى مُسْرِعَةً بِلَهِيبِها إِلَيْهِم ، وكانَتِ الرِّيحُ عَلَيهم فَقَذَفَتْهُم بِحِمَمِها ، واجْتَمَعَ عَلَيْهِم حَرُّ السُّيوفِ ، وحَرُّ الجَوِّ ، وحَرُّ العَطَشِ ، وحَرُّ النَّارِ ، فكادَتْ تَزْهَقُ مِنْهُم الأَرْواحُ .

فَوَهَنَتْ قُواهُم وانْحَدَرَتْ سُيوفُ المُسْلِمينَ عَلَيهم تَقْطَعُ رِقابَهُمْ ، وتَفْلِقُ هامَهُم ، وامْتَدَّتِ الأَيْدِى إِلَى الأَسْرَى تَلُفُّ القُيُودَ حَوْلَ أَرْجُلِهم وأَعْناقِهِم ، وقَفَزُوا خَلْفَ الفارِّينَ يُلاحِقُونَهُم ، لِيَذُوقوا ما ذاقَ غَيْرُهم مِنَ البَلاءِ .

اسْتَوْلَى على الفِرِنْجِ القَتْلُ والأَسْرُ ، فَأَوَوْا إِلَى جَبَلِ حِطِّينَ ، لِيَعْصِمَهُم مِنَ


الله اكبر

المَوْتِ ، بَعْدَما انْهَزَمَتْ طائفَةٌ مِنْهُم ، وتَبِعَتْها مِنَ المُسْلمينَ طائفَةٌ أبادَتْهُم عَنْ آخِـرِهِم ، وهَرَبَ بَعْـضُـهُم إلَى «صُـورَ» . وأحَـاطَ المُسْلمـونَ بالباقِينَ ، الَّذِينَ احْتَمَوا بِجَبَلِ «حِطِّينَ» وحاوَلُوا نَصْبَ خِيامِهِم عَلَى ظَهْرِ تَلِّه ، وعاجَلُوهم عَنْ إقامَتِها ، وانْهالُوا عَلَيْهِم ضَرْبًا وطَعْنًا .

فَظَنُّوا أنَّهُ لامَنْجَى لَهُم مِنَ المَوْتِ إلا بالإقْـدامِ عَلَيْـه ، وحَـمَلُوا على المُسْلمِينَ بِكُلِّ ما بَقِيَ فِيهِمْ مِنْ قُوَّة ، فَأَثْخَنَهُمُ المُسْلِمونَ قَتْلاً وجراحًا وأسْرًا . ولَمْ يَعُـدْ لَهُم أمَلٌ فِي الفِـرارِ ، وأيْقَنُوا بالبَـوارِ والدَّمـارِ ، فَـقَدْ أطْبَقَ المَـوْتُ أشْـدَاقَه عَلَيْهِم ، ولَمْ يَبْقَ مِنْهُم سِوَى مَلِك القُدْسِ فَوْقَ التَّلِّ ، فِي خَمْسِينَ فارِسًا ، والمُسْلمونَ يَضْرِبُون خَيْمَتَه ، ومَنْ حَوْلَه يُدافِعُونَ عَنْها بِاسْتِماتَة لِتَظَلَّ قائِمَةً ، حَتَّى سَقَطَتْ ، وأُسِرَ مَنْ حَوْلَها جَمِيعًا وغُلُّوا بِالأغْلالِ .

(٣)

كـانَ السُّلْطانُ علَى فَرَسِـه ، يُتابِعُ جُنْدَ الله وهُمْ يَضْرِبونَ أعْداءَ الله ، فَيَتَساقَطُونَ قَتْلى أوْ يُؤْسَرُونَ ، يَرَى المَلِكَ الحائِرَ المَخْلُوعَ الفُؤادِ ، وقَدْ شُلَّتْ حَرَكَتُه هُوَ وَمَنْ مَعَه ، حَتَّى سَقَطَتِ الخَيْـمَـةُ ، فَقَفَزَ السُّلْطانُ مِنْ فَوْقِ جَـوادِهِ إلَى الأرْضِ ، ومالَ علَيـهـا ووَضَعَ كَـفَّيْـه فَوْقَـهـا ، وسَـجَـدَ علَى التُّرابِ ، شُكْرًا لِرَبِّه ، وهُوَ يَبْكِي بِأَغْزَرِ الدُّموعِ ، ويُبَلِّلُ بِها الثَّرَى .

ثُمَّ اعْتَدَلَ ، وجَعَلَ يَمُدُّ عَيْنَيْه حَوْلَه ، يَنْظُرُ إلَى جُثَثِ الفِرِنْجِ المُلْقاةِ بِجانِبِ الخُيُولِ ، وَيَتأمَّلُ الأجْسادَ القليلَةَ الَّتِي بَقِيَتْ أشْباحًا ، ووَقَفَتْ ذَلِيلَةً مُنَكَّسَةَ الرُّءُوسِ ، وكانَتْ مِنْ قَبْلُ أُلُوفًا مُؤَلَّفَةً شامِخَةً ، تَزْأَرُ وتُهَدِّدُ وتَتَوَعَّدُ ، وتَهُزُّ السُّيوفَ نَحْوَ الرِّقابِ .

فعادَ باكِيًا ، يَضَعُ كَفَّيْه على الأرْضِ ، وجَبْهَته فَوْقَ التُّرابِ ، ويَسْجُدُ مَرَّةً

أُخْرَى شُكْرًا لِربِّه على نَصْره . ثُمَّ اعْتَدَل وأَمَرَ فَضُرِبَتْ لَه خَيْمَةٌ كَبِيرَةٌ ، وأُحْضِرَ أمامَه مُلُوكُ الفِرِنْج ورُؤَساؤُهم الباقُونَ ، ومِنْ بَيْنِهم إِرْناطُ .

فَأَجْلَسَ السُّلْطانُ مَلِكَ القُدْسِ بجانِبه ، وجَلَسَ إِرْناطُ بجَانِبِ المَلِك ، وهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السُّلْطانِ فِى رُعْبٍ شَدِيد ، وعَيْنا السُّلْطان تُرْسِلان إِلَيْه نارًا حامِيَةً تَكادُ تُحْرِقُه ، تَنْطِقان بالعَزْمِ على أَنْ يَقْتَصَّ مِنْه ، ويَفِيَ بِنَذْرِه ، ويَبَرَّ بقَسَمِه ، واللِّصُّ يَنْتَفِضُ مِنْ شِدَّةِ الفَزَع ، يَنْتَظِرُ سَاعَتَه الأَخِيرَةَ ، الَّتِى لَمْ يَعُدْ يَشُكُّ فِى أَنَّها دَنَتْ .

ثُمَّ الْتَفَتَ السُّلْطانُ إِلَيْه ، وقالَ يُؤَنِّبُه ، بادِيَ الغَضَب :

- أَتَرَى يا إِرْناطُ جَزاءَ العُدْوانِ عَلَى النَّاسِ ، والتَّطاوُلِ عَلَى رَسولِ الله ؟ !

أَتَرَى أَعْراضَ المُسْلِمينَ وأَمْوالَهُم ودِماءَهُم ، وما صَنَعَتْ يَداكَ الآثِمَتان بِهِم ؟ !

ها أَنْتَ ذا يا إِرناطُ ، قَدْ وقَعْتَ فِى قَبْضَتِهم ، لِتَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لاَ يَغْفُلُ عَنِ الظَّالِمِينَ المُعْتَدِين ، وإِنْ أَطالَ لَهُم الحَبْلَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدرٍ ! .

كَمْ أَخْلَفْتَ يا إِرْناطُ الوَعْدَ ، وخُنْتَ العَهْدَ ، ولَمْ تَحْتَرِمْ مِيثاقًا ، وظَنَنْتَ أَنَّكَ قادِرٌ لَيْسَ فَوْقَكَ أَحَدٌ ! .

لَمْ تَخْشَ يا إِرْناطُ قُوةَ اللهِ العَزِيز ، وذَهَبْتَ إِلَى بَيْتِه لِتَهْدِمَهُ ، وإِلَى قَبْرِ رَسُولِه الكَرِيم لِتَنْبِشَه ، ولَمْ تَدْرِ أَنَّهُ سُبْحانَه حافِظٌ لدِينه وبَيْته وقَبْر نَبِيِّه ، وأَنَّه أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكَ مَنْ هَمُّوا بالعُدْوانِ عَلَى حَرَمِه ، وكانُوا أَكْبَرَ مِنْكَ قُوَّةً ، وأَكْثَرَ جَمْعًا ، وأَشَدَّ بَطْشًا ! .

ثُمَّ وَجَّه بَصَرَه إِلَى المَلِك المُرْتَعِد خَوفًا مِنَ القَتْلِ ، وقالَ لَه فِى هُدوءٍ :

- جُرْمُ هذا اللِّصِّ كَبيرٌ لا يُغْتَفَرُ ، أَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تَصْنَعْ مِثْلَ ما صَنَعَ ، فاهْدَأْ ولا تَخَفْ .

وكانَ قَدْ طَلَبَ لِلمَلِك ماءً مَثْلُوجًا ، فَلَمَّا أُحْضِرَ أَمَرَ بتَقْدِيمِه لَه ، وكانَ العَطَشُ قَدْ نالَ مِنْه ، فَمَدَّ يَدَه مُسْرِعًا وتَناوَلَ القَدَحَ ، ودَسَّ فِيه فَمَه ،

وجَعَلَ يَشْرَبُ وهُوَ يَشُدُّ أنفاسَه حتَّى ارْتَوى ، وأبْقَى بَعْضَ الماءِ فِى القَدَحِ ، ومَدَّ به يَدَه إلَى إرْناطَ ، فَجَذَبَه مُسْرِعًا وعَبَّ ما به مِنَ الماءِ ، وهُوَ لاَ يَكادُ يُصَدِّقُ أنَّه أفْلَتَ مِنَ المَوْتِ عَطَشًا ، وإنْ كانَ المَوْتُ بالسَّيْفِ يَتَراقَصُ أمامَ عَيْنَيْه .

ولَمَّا رأى السُّلْطانُ ما صَنَعَ المَلِكُ بالماءِ ، الْتَفَتَ إلَيْه وقالَ غاضِبًا :

- ماذا صَنَعْتَ أيُّها المَلِكُ ؟ ! كَيْفَ أطْفَأْتَ ظَمأً مَنْ لاَ يَسْتَحِقُّ أنْ يَعيشَ ؟! .

أتَظُنُّ شَرْبَةً لذلكَ الماءِ سَيَشْفَعُ لَه ، ويَحُولُ بَيْنَه وبَيْنَ المَوْتِ ، علَى عادَةِ الْعَرَبِ فِى أنَّ مَنْ يَشْرَبُ ماءَ آسِرِه يَحْفَظُ دَمَه ؟ !

لاَ أيُّها المَلِكُ ! إنَّما يَصْنَعُونَ ذلكَ إذا أذِنَ الآسِرُ ، وأنا لَمْ آذَنْ لكَ !

ثُمَّ أشارَ ، فَخَرَجَ الجَميعُ إلَى مَكانٍ ضُرِبَ فِيه السُّرادِقُ ، وخَلَتِ الخَيْمَةُ مِنْهُم وبَقِىَ السُّلْطانُ والخَدَمُ ، وأمَرَ بإحْضارِ إرْناطَ والمَلِكِ ، وعادَ يُذَكِّرُ اللِّصَّ بِغَدْرِه وخِسَّتِه ، ثُمَّ قالَ لَه وقَدْ خَفَّفَ شَيْئًا مِنْ حِدَّتِه :

- الإسْلامُ رَحيمٌ يا إرْناطُ ، يَعْفُو عَنِ المُسِيءِ إذا تابَ وأحْسَنَ التَّوْبَةَ ، ولَيْسَ بَيْنَك وبَيْنَ الْمَوْتِ إلاَّ أمْرٌ واحِدٌ ، إنْ لَمْ تَفْعَلْه قتلتك بِيَدِى ، ووَفَيْتُ بِنَذْرِى .

أتَذْكُرُ ذلكَ النَّذْرَ يا إرْناطُ ، مَتَى كانَ؟ وأيْنَ كانَ ؟ .

أمْرٌ واحِدٌ يا إرْناطُ يَفْرِضُه اللهُ تَعالَى علَى جُنْدِه المُنْتَصِرِينَ . أتدرى ما هُوَ ذلكَ الأمْرُ ؟

أنْ يَدْخُلَ عَدُوُّهُم فِى دِينِ الإسْلامِ ، ويَشْهَدَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ .

فَإذا نَطَقَ بِهذِه الشَّهادَةِ ، فَقَدْ حَقَنَ دَمَه ، وأصْبَحَ واحِدًا مِنَ المُسْلِمِينَ ، لَهُ ما لَهُم وعَلَيْه ما عَلَيْهِم ، وعَفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ! .

أتَرَى رَحْمَةَ هذا الدِّينِ وعَطْفَه يا إرْناطُ؟ ! فَكِّرْ قَبْلَ ألاَّ تَقْدِرَ علَى التَّفْكِيرِ .

فأسْرَعَ اللِّصُّ المُتَكَبِّرُ قائلاً فى شِدَّة :

- لاَ ، لَنْ أدْخُلَ فى دِينكُمْ ، ولَنْ أعْتَرِفَ بإلهِكُمْ ومُحَمَّدِكُم ، وإنْ عِشْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمونَ مَنْ إرْناطُ الجَبَّارُ ! ! .

ولَمْ يُتِمَّ كَلامَه ، حَتّى سَلَّ السُّلْطانُ خَنْجرَه ، ودَفَعَه فى صَدْرِ اللِّصِّ فَأنْفَذَه إلَى حَبَّةِ قَلْبِه ، وهُوَ يَقولُ فِى ارْتِياح :

- الْحَمْدُ لله وَفَيْتُ أيها اللِّصُّ بنَذْرِى ، وأرْضَيْتُ رَبِّى ، واقْتَلَعْتُ مِنَ الأرْضِ شَجَرَةً خَبِيثَةً ، لا تُخلِّفُ إلاَّ الخُبَثاءَ ! .

وأسْرَعَ الجُنودُ إلَى إرناط الجَرِيحِ وأجْهَزوا عَلَيْه ، ثُمَّ جَرُّوه خارِجَ الخَيْمَة ، والسُّلْطانُ يَنْظُرُ إلَى مَلِكِ القُدْسِ الَّذى اصْفَرَّ وَجْهُه ، وهَرَبَ الدَّمُ مِنْ جَسَدِه ، وجَعَلَ يُهَدِّئُهُ ويَقُولُ لَه مُطَمْئِنًا :

- لاَ تَخَفْ أيُّها المَلِكُ ، فَلَمْ تَجْرِ عادَةُ المُلُوكِ أنْ يَقْتُلوا المُلوكَ ، أمَّا هذا اللِّصُّ فَتَجاوَزَ حَدَّه ، فَاسْتَحَقَّ ما أصابَه .

ثُمَّ جَمَعَ الأسْرَى ، وبَعَثَ بِهِم إلَى دِمشْقَ وفِيهِم مَلِكُ القُدْسِ ، وأمَرَ بالتَّحَفُّظِ الشَّدِيدِ عَلَيْهِم .

فَسارُوا قِطارَاتٍ طَوِيلَةً ، تَجُرُّ الخَطْوَ ، كَما تَجُرُّ الجِمالُ المُثْقَلَةُ خَطْوَها ، فَهُمْ يَحْمِلُون مِثْلَها هَمّاً ثَقِيلاً يُبَطِّئُ بِهِمُ السَّيْر ، طائِرِى الأفْكارِ ، لاَيَدْرُونَ أيْنَ المَصِيرُ .

وبَاتَ المُسْلِمُونَ لَيْلَةَ الأحَدِ فى سُرور ، تَرْتَفِعُ أَصْواتُهم بِالتَّهْلِيلِ والتَّكْبِير ، والحَمْدُ لله العَلِىِّ ذى الفَضْلِ الكَبِير .

ثُمْ انْقَلَبَ هُتافُهُم العَالِى مُوَجَّهًا إلَى صَلاحِ الدِّينِ ، يَقولُ فِى حَماسٍ شَدِيد :

- القُدْسُ أيُّها السُّلْطانُ العَظِيمُ ! أتِمْ ! أتِمْ ! .

أطْفِئْ نارَ الشَّيْطانِ وأضِئْ نُورَ الرَّحْمنِ .



مناقشة الفصل التاسع

١ **«ونقل بعض الأمراء من مكان إلى مكان، واختار للأجزاء الرئيسية من الدولة مَنْ تشتد ثقته فيه، وجعل يبحث عن مواطن الضعف؛ فيقويها، والمسلمون يتعجلون اللقاء، وهو يستمهلهم حتى تحين الفرصة المناسبة، التى تمكنهم من الضربة القاصمة، فإذا «بارناط» يعجل ذلك اللقاء بحمقه وخسته»**

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (ثقة) : (قوة - ائتمان - عهد)
- مفرد (مواطن) : (وطنية - وطن - موطن)
- مضاد (الخسة) : (القوة - الرفعة - الكبرياء)

(ب) ماذا يقصد الكاتب بقوله : «الضربة القاصمة» ؟

(جـ) وظف «صلاح الدين» مواهبه الحربية فى خدمة الهدف . اشرح ذلك .

(د) لِمَ كان المسلمون يتعجلون اللقاء ؟ وما موقف «صلاح الدين» ؟

(هـ) ماذا تعرف عن معاهدة البحر الأحمر ؟ وما الظروف التى أدت إلى خرقها ؟

(و) خرج السلطان إلى العدو، وترك ابنه الأفضل فى رأس الماء . وضح الأسباب التى أدت إلى ذلك .

(ز) أحكم «صلاح الدين» خطته الحربية للقضاء على إرناط . اشرح ذلك .

(ح) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «الأمراء» ؟

٢ **«وتضام الأمراء وتَصَافَوْا، ومن كان فى صدره شىءٌ من أخيه نسيه، وعبئوا قواتهم، وانطلقوا إلى «صلاح الدين» بدمشق، مكبرين مهللين، سيوفهم مرفوعة، ووجوههم عازمة، ففرح السلطان بهم، وشكر لهم نهوضهم إلى اللقاء الأكبر، ثم ضمهم إلى ساحات التدريب»**

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مرادف (عبأ) : (غلف - جهز - كلف)

- جملة «سيوفهم مرفوعة» : توحى بـ (الفرح والسعادة - الشجاعة والاستعداد - العزم والإصرار)

(ب) ما المقصود بقوله : (مكبرين مهللين)

(جـ) لِمَ انطلق الأمراء بقواتهم إلى «صلاح الدين» ؟ وما موقف السلطان منهم ؟

(د) «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»

اربط بين مفهوم الآية الكريمة وما اختطه السلطان للقاء العدو .

(هـ) ما التدريبات التى تلقاها الأمراء وقواتهم ؟

(و) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «قواتهم» ؟

٣ «وفى أول المحرم من عام خمسمائة وثلاثين من الهجرة، خرج السلطان يهز الآفاق بجيشه الكبير المدرب، وأسلحته الكثيرة البارقة، وقواده الأقوياء، وجنوده الشديدى التحمس، حتى بلغ رأس الماء قريبا من بصرى»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لمايلى :

- مفرد «الآفاق» : (الأفقى - الأفَّاق - الأُفُق)

- مضاد (البارقة) : (القاتمة - الصدئة - المعتمة)

(ب) لماذا ترك «صلاح الدين» ابنه على رأس الماء ؟

(جـ) ما الذى دفع «صلاح الدين» إلى اتخاذ بصرى معسكرًا لجيشه ؟

(د) أين كان السلطان أثناء معركة (صفورية) ؟ وما أثرها فى نفسه ؟

(هـ) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «قواده» ؟



الفصل العاشر

سعى حميد

(١)



أصْبَحَ القُدْسُ بَعْدَ حِطِّين ، تَحْتَ رَحْمَة صَلاح الدِّين ، وكانَ بوُسْعه أنْ يسيرَ إلَيْه ، ويُحاصره ، ويَفْتحه بالقُوَّة ، إنْ لَمْ يَرْفعْ رايَةَ التَّسْليم ، فقَدْ حطَّمَتْ هذه المَعْرَكةُ قُوَّته العَسْكَريَّة والنَّفسيَّة .

لكنَّه حَسبَ حساب فرنج أوربَّا ، وأنَّهم سَيهُبُّونَ إلَى نَجْدَته ، وخَافَ أنْ يَحْصُروه بَيْنَ القُدْس وبَيْنَ البَحْر الَّذى سَيأْتونَ منْه ، ورأى أنْ يَبْدأَ بالمُدُن السَّاحليَّة ويَفْتحها ، فَيحْرمَه القواعدَ البَحْريَّةَ الَّتى تَرْبطُه بالخارج ، ويُعْجزَ فرنجَ الغَرْب عَنْ دُخول البلاد ، ويَحْصُرَ فرنْجَ الشَّام داخلَه ، فتَتَساقطَ مُدُنُه فى يَده بسُهولَة ، ويُصْبحَ القُدْسُ وَحْدَهُ مُنْعَزلاً سَهْلَ السُّقوط .

كَما يَتَمكَّنُ بالاستيلاء علَى تلْكَ المُدُن السَّاحليَّة ، منَ الاتِّصال البَحْريِّ السَّريع ، بَيْنَ شَطْرَىْ دَوْلَته فى مصْرَ والشَّام .

وانْطَلَقَ يُحاصرُ تلْكَ المُدُنَ السَّاحليَّة ، ويَفْتَحُها واحدَةً واحدَةً ، حَتَّى بَلَغَ «عكَّا» ، ولَمْ تكُنْ أحْسَنَ حالاً منْ غَيْرها ، فَهى تَفْتَقرُ إلَى الفُرْسان والمُقاتلين ، بَعْدَما أكَلَت المَعْرَكَةُ فُرْسانَها ومُقاتليها .

وقَدْ أفقدَتْ شدةُ المَعْركَة أهْلَها قُوَّةَ تَماسُكِهِم ، ومَلأَتْ قُلوبَهُم بالخَوْف القاتِلِ ، فَلَمْ تَكَدْ مُقَدِّمَةُ جَيْشِ السُّلْطان تَقْتَرِبُ مِنْها ، حَتَّى أَسْرَعَ حاكِمُها يُقَدِّمُ مَفاتيحَها ، مُشْتَرِطًا تَأْمينَ أَهْلِها على أَرْواحِهِم ، وأَمْلاكِهِم وأَمْوالِهِم ، فأَمَّنَهم السُّلْطانُ ، وجَعَلَ يَسْتَعِدُّ للدُّخولِ .

لكنَّ مَوْقِفَ الحاكِم ، لَمْ يُعجِبِ الكَثيرينَ مِنْ أَهْلِها ، وعزَّ عَلَيْهِم التَّسْليمُ بِغَيْرِ مُقاوَمَة ، وهَبُّوا يُحَرِّضُونَ عَلَى الصُّمودِ ، حَتَّى تُقْبِلَ النَّجَداتُ مِنَ الْغَرْبِ . وبَدأوا الْمُقاوَمَةَ ، وأَشْعَلوا النِّيرانَ فِى بَعْضِ الأَحْياءِ ، لِيُخيفوا صَلاحَ الدِّينِ ، فَلَمْ يَهْتَمَّ بما عَمِلُوا ، ودَخَلَ الْمَدينَةَ بِجُنودِه وطَمْأَنَ النَّاسَ ، فاطْمَأَنُّوا ، وفَتَحوا صُدورَهُمْ لَه ، لِما لَمَسوا فيه مِنَ العَطْفِ والرَّحْمَةِ ، ورأَوْا أَنَّه لَمْ يُحاسِبْهم عَلَى الوُقُوفِ فِى وَجْهِه ، ونَسِىَ ما صَنَعَ الفِرَنْجُ مِنَ الجَرائِمِ البَشِعَةِ الَّتى لا تُنْسَى .

ولَمَّا اسْتَقَرَّ بِها ، أَطْلَق أَرْبَعَةَ آلافِ أَسيرٍ مِنَ الْمُسْلِمينَ ، كانوا فِى سُجونِها ، واخْتارَ ابْنَه الأَفْضَلَ حاكِمًا لَها ، وجَعَلَها مَرْكَزًا لِقيادَتِه ، يُوَجِّه مِنْها قُوَّاتِه لِلاسْتيلاءِ عَلَى الْمُدُنِ القَريبَةِ ، تَمْهيدًا لِفَتْحِ القُدْسِ .

وفِى هذا الوَقْتِ ، أَقْبَلَ أَخوهُ العادِلُ مِنْ مِصْرَ بِجَيْشِه الضَّخْمِ ، وهاجَمَ الْمُدُنَ السَّاحِلِيَّةَ فِى فِلَسْطينَ ، واسْتَوْلَى عَلَيها ، كَما وَجَّهَ هُوَ ابْنَ أُخْتِه حُسامَ الدِّينِ لاجِينَ إِلَى الْمُدُنِ السَّاحِلِيَّةِ ، فاسْتَوْلَى عَلَى كَثيرٍ مِنْها ، وجاءَ دَوْرُ «بَيْروتَ» .

كانَتْ «بَيْرُوتُ» أَشَدَّ مُدُنِ السَّاحِلِ فِى بِلادِ الشَّامِ تَحْصينًا ، فَوَقَفَ الفِرَنْجُ فيها خَلْفَ أَسْوارِها ، وحاوَلوا الدِّفاعَ عَنْها ، لكِنَّهم كانوا تُجَّارًا وأَصْحابَ حِرَفٍ ، لَيْسَ بَيْنَهم مُقاتِلٌ يُجيدُ الحَرْبَ ، فاسْتَسْلَمَتْ سَريعًا لِلسُّلْطانِ ، فَدَخَلَها ، وتَرَكَ بِها بَعْضَ الجُنودِ ، واتَّجَه إِلَى «عَسْقَلانَ» ، وسارَ يَفْتَحُ الْمُدُنَ فِى الطَّريقِ ، حتَّى بَلَغَها ، فَسَلَّمَتْ بَعْدَ مُقاوَمَةٍ عَنيفَةٍ ، وبَعْدَما نَفِدَت قُوَّتُها كُلُّها .

جَعلَتْ هذه المُدُنُ الإفْرنْجيَّةُ تتساقطُ ، عنْدَما تُحسُّ باقْترابِ المُسْلمين منها ، فَقدْ هَدَّ النَّصْرُ الإسْلامى قُواها ، وأفْقَدَها الأمَلَ فِى الصُّمود ، وفضَّلَ أهْلُها أنْ يُبْقُوا على أنفُسِهِم ، ويَعيشوا تَحْتَ رايَةِ الإسلام الرَّفيقِ ، الَّذى لا يَتعَصَّبُ ، ولا يَتجَبَّرُ ، ولا يُفرِّقُ بَيْنَ النَّاس .

ولَمْ يَبْقَ أمامَ السُّلْطانِ بَعْدَمَا قَلَّمَ أظْفارَ الفرنْجِ ، غَيْرُ مَدينَةِ القُدْسِ ، الهَدَفِ الأكْبَرِ مِن كُلِّ الجِهادِ .

فَجَعَلَ يَسْتَعِدُّ لدُخولِها ، لا يَشُكُّ فِى أنَّها سَتُسَلِّمُ عِنْدَما يَدْنو مِنْ أسْوارِها ، كَمَا صَنَعَ سِواها ، فَقَدْ أحْكَمَ الحَلْقَةَ حَوْلَها بِفَتْحِ المُدُنِ المُحيطَةِ بِها ، ولَمْ يَعُدْ بِها مَنْ يُدافِعُ عَنْها ، بَعْدَما الْتَهَمَتْ «حِطِّينُ» كُلَّ رِجالِها وفُرْسانِها ، ولَمْ يَبْقَ بِها قائِدٌ كَبِيرٌ يَجْمَعُ القُوَى ، ويَقودُ مَعْرَكَةً ذاتَ بال .

(٢)

سارَ السُّلْطانُ إلَى القُدْسِ ، الأمَلِ العَظيمِ ، شَديدَ الاطْمِئْنانِ على التَّسْليمِ ، وإنْ كانَ حَذِرًا لِكُلِّ ما قد يَطْرَأُ ، ممَّا لَمْ يَكُنْ فِى الحِسابِ .

وما كادَ يَبْلُغُ أسْوارَها ، حَتَّى ظَهرَتْ مُقاوَمَةٌ ، وقِيادَةٌ ، وانْدِفاعٌ ، فَعَجِبَ أشَدَّ العَجَبِ ، وجَعَلَ يَسْأَلُ نَفْسَه عَنْ هذه القِيادَةِ ، مِنْ أيْنَ أتَتْ ؟ ! .

ولَمْ يغِبْ عَنْه الجوابُ طَويلاً ، وتَذكَّرَ .

فَقدْ كانَ مِنْ بَيْنِ الأُمَراءِ الَّذين نَجَوْا مِنْ «حِطِّينَ» الأميرُ «بالْيانُ» الثَّانى «دى إيْبلين» ، فَرجا السُّلْطانَ أنْ يَسْمَحَ لَه بالذَّهابِ إلَى القُدْسِ ، ليَأْخُذَ زَوْجَتَه وأوْلادَه ، فَسَمَحَ لَه ، جَرْيًا على المُعامَلَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ خُصومِه ، على شَرْطِ أنْ لا يَبْقَى بِها أكْثَرَ مِنْ لَيْلَةٍ واحِدَةٍ .

فلَمَّا وَصلَ إليها «بالْيانُ» وَجدَها مُمزَّقةً ، لَمْ يَبْقَ بها فُرسانٌ يُدافعُون عَنها ، ولَيْسَ بها سِوَى النِّساءِ والأطْفال ، ووَجدَ رُوحَ الأهالى المَعْنويَّةَ مُنْهارةً ، عَقبَ ما سَمعُوا عَنْ كارثَة «حطِّينَ» وأسْرِ مَلكِهم وغَيْره . لاَ يَعْرفُونَ ماذا يَعْملون ، والمُسْلمُونَ يَتَقدَّمون إليهم وهُمْ بِغَيْرِ دفاع ، لاَ يَشكُّونَ فِى أَنَّ دماءَ العَرَبِ الَّتِى تُلَطِّخُ كُلَّ شِبْرٍ فِى القُدْسِ ، سَوْفَ تَصرُخُ بِالمُسْلمينَ وتَدْفَعُهُم إلَى الانْتقام الشَّديد .

وحينَما رَأَوْا «بالْيانَ» فَرحوا فَرحًا شَديدًا ، وعادَت إليهم أرْواحُهُم الطَّائرةُ ، وأَسْرَعوا إلَيْه يَتَوسَّلُون بالدُّموع المُنْهمِرَة ، ألاَّ يَتْرُكَهُم لسُيوف المُسْلمينَ ، الَّتى تَقْتَرِبُ مِنْ أعْناقِهم ، ويَرْجُونَه أَنْ يَبْقَى مَعَهُم يَقودُهُم للدِّفَاعِ ، لَعَلَّهُم يَنْجُونَ مِنَ الهَلاكِ المُحَقَّق .

فَنَسِى وَعْدَ السُّلْطان ، وقَرَّرَ البَقاءَ ، وهَبَّ مُسْرِعًا يَعْمَلُ ما يُسْتَطاعُ ، وجَمَعَ مَنْ قَدَرَ على جَمْعهِم ، مِنَ الفُرْسان ومِنْ أبْنائهِم فَوْقَ سِنِّ الخامسَةَ عَشْرَةَ ، ومِنَ الصُّنَّاع والتُّجار والعُمَّال ، الَّذينَ يَصْلُحُونَ للْقتال ، ونَهَبَ ما فِى المَعابِد مِنَ الذَّهَب والفضَّةِ والتُّحَف وغَيْرها ، وباعَها واشْتَرَى بِها السِّلاحَ وسَلَّحَهُم بِه ، مَعَ ما عَثَرَ عَلَيْه مِنْ بواقيه ، وإنْ كانَ قَديمًا أَوْ هَزيلاً .

وعِنْدَما كانَ السُّلْطانُ يُحاصِرُ «عَسْقَلانَ» خافَت القُدْسُ عَلى نَفْسِها ، وأَرْسَلَتْ بَعْثَةً مِنْ أَهْلِها إلَيْه ، تَعْرِضُ التَّسْليمَ ، بالشُّرُوط الَّتى سَلَّمَتْ بِها بَقيَّةُ المُدُن الإفْرنْجيَّة فِى فِلَسْطِينَ ، أىْ يُؤَمِّنُهُم السُّلْطانُ عَلى أرْواحِهِم ، وأَمْوالِهِم ، وأَوْلادِهِم ، ونِسائِهِم ، ويَسْمَحُ لِمَنْ يَشاءُ مِنْهُم بالخُرُوج .

ولَمَّا وَجَدوا فِى هذا الأميرِ ، ما قَوَّى فيهِم رُوحَ المُقاوَمَة ، عَدَلُوا عَنْ عَرْضِهِم ، ونادَوْا بالْحَرْب ، وصَرَخوا بِأَنَّ المَوْتَ أَهْوَنُ عَلَيْهِم مِنَ التَّسْلِيم ، فَغَضِبَ السُّلْطانُ غَضَبًا شَديدًا ، وأَقْسَم عَلى أَنْ يَسْتَرِدَّ بَيْتَ المَقْدِسِ بِحَدِّ السَّيْف .

ثُمَّ عادَ وكرَّرَ عَلَيْهم عَرْضَ التَّسْليم ، بِشُروط أَسْخَى مِنْ تِلْكَ الشروط ، لِكَيْلا يَضْطرَّ إلى اسْتِخْدام العُنْف مَعَ المَدِيْنَة المُقدَّسَة ، فَرَفضوا ، وأَصَرُّوا على المُقاوَمَة ، فَأَقْسَمَ على ألاَّ يَتْرُكَ القُدْسَ حَتَّى يَبَرَّ بِقَسَمِه ، ويَدْخُلَهُ ، ويَرْفَعَ عليه أَعْلامَه .

ولَمَّا يَئِس مِنْ فَهْمِهِم لِمَوْقِفه ، أَعَدَّ عُدَّتَه لِمُهاجَمَةِ المَدِينَة ، فنزلَ بالجانبِ الغَرْبِيِّ مِنْها ، وضَرَبَ عليه الحِصارَ .

وعِنْدَما وَجَدَ هذا الجَانِبَ قَوِيَّ التَّحْصِين ، لَمْ يُضِع الوَقْتَ ، وجَعَلَ يَطوفُ حَوْلَ السُّورِ ، يَتَحَسَّسُ مَوْضِعًا ضَعِيفًا يَدْخُل مِنْه .

خَمْسَةُ أَيَّام كامِلَة وهُوَ يَدُورُ ويَدُورُ ، لَعَلَّهُ يَهْتَدي إلى ذلِكَ المَوْضِع ، فَلا يَضْطَرَّ إلى أَنْ يَنْصِبَ المَنْجنيقات المُدَمِّرَةَ عَلَى البَيْتِ المُقَدَّسِ ، ثُمَّ أَعادَ عَلَيْهِمُ الرَّجاءَ أَنْ يُسلِّموا ، ويَحْمُوا المَدِينَةَ ، ويَحْمُوا أَنْفُسَهم ، وأَوْلادَهُم ، وأَهْلَهُم ، فَأَصَرُّوا على الرَّفْضِ .

ولَمَّا فَقَدَ الأَمَلَ فِي أَنْ يَعْقِلوا ، ويَرَوْا الخَطَرَ الَّذي يُطَوِّقُهُم ، اسْتَقَرَّ رَأْيُه عَلَى أَنْ يُهاجِمَ السُّورَ مِنَ الجِهَة الشَّمالِيَّة فانْطَلَقُوا إِلَيْه ، ثُمَّ وَقَفُوا أَمامَه لايَتَحَرَّكُونَ ، يَذْكُرُونَ المُسْلِمينَ يَوْمَ جاءُوا إِلَى القُدْسِ بَعْدَ الإِسْلامِ ، لِيُحَرِّرُوه مِنْ أَيْدِي الرُّومانِ ، يَرْجُونَ أَنْ يَعْقِلَ هؤلاءِ الفِرَنْجُ ، ويَصْنَعوا ما صَنَعَ أَهْلُ القُدْسِ حِينَذاك ، ويَرْفَعوا رايَةَ التَّسْليم ، ويَحْظَوْا بِما حَظِيَ بِه أُولئكَ مِنَ المُعاهَدَة العَظِيمَة ، الَّتي عَقَدُوها مَعَ المُسْلِمينَ ، وأَمِنوا بِها عَلَى أَرْواحِهم وأَمْوالِهم وأَهْلِهم ، ومَعابِدِهم .

لَكِنَّهُمْ رَكِبوا رُءُوسَهُم ، ومَضَوْا فِي شَطَطِهم ولَمْ يُسَلِّموا ، فَحَمَلَ المُسْلِمون عَلَى السُّورِ حَمْلَةً واحِدَةً ، حَتَّى بَلَغوه ونَقَبُوه ، واسْتَعَدُّوا لِلدُّخول .

(٣)

أَحَسَّ «بالْيانُ» بِنَقْصِ الرِّجالِ المُقاتِلين ، بِصُورةٍ مُخيفَةٍ ، وأَدْرَكَ اسْتِحالَةَ المُقاوَمَةِ ، وجَعَلَ يَصْرُخُ ويَقولُ فِي فَزَعٍ :

- وَيْلاهُ ! ثُمَّ وَيْلاهُ ! .

كَيْفَ أُقاوِمُ جُيوشَ المُسْلِمينَ الجَرَّارَةَ ، بِهذِهِ الأَيْدِي القَلِيلَةِ الهَزِيلَةِ ؟! .

يا لَلسَّماءِ ! !

رَجُلٌ واحِدٌ فِي مُقابِلِ خَمْسِينَ مِنَ النِّساءِ والأَطْفالِ ! كَيْفَ هذا ؟ ! وكَيْفَ قَرَّرْتُ المُقاوَمَةَ ، ولَم أَتَنَبَّهْ إِلى هذهِ الكارِثَةِ ؟ ! . أَلَمْ أَكُنْ قائِدًا خَبِيرًا بِالْحَرْبِ ، بَصِيرًا بِالمعَارِكِ ؟ ! .

اصْحُ يا «بالْيانُ» مِنْ نَوْمِكَ ، واسْتَخْدِمْ عَقْلَكَ ، ولا تَنْدَفِعْ بِطَيْشِ مَنْ لا يُبْصِرُونَ الطَّرِيقَ ، ولا يَعْرِفونَ العَواقِبَ .

ولكِنْ ، هَلْ تُسَلِّمُ ؟ ! .

لاَ ، سَأُوَاصِلُ المُقاوَمَةَ ، لكِنْ بِشَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ الحَدِيدِ والدِّماءِ ، غَيْرِ السُّيوفِ والرِّماحِ ، فَأَنا خاسِرٌ إِنْ لَجَأْتُ إِلَى هذا السِّلاحِ ، فَإِنْ وُجِدَ ، فَلَيْسَ هُناكَ مَنْ يَحْمِلُه ، لا سَواعِدَ ولا قُلوبَ ! .

وبَعَثَ مُسْرِعًا إِلَى السُّلْطانِ جَماعَةً مِنَ الأُمَراءِ ، فِي طَلَبِ الأَمانِ ، بِشَرْطِ احْتِرامِ مَنْ بِالمَدِينَةِ مِنَ الفِرِنْجِ ، والسَّماحِ لِمَنْ يَشاءُ مِنْهُم بِمُغادَرَتِها .

وكانَت هذه الشُّروطُ ، هِيَ بِعَيْنِها الشُّروطَ الَّتِي عَرَضَها صَلاحُ الدِّينِ مِنْ قَبْلُ فَرَفَضَها «بالْيانُ» ، لكِنَّ العَقْلَ الشَّارِدَ لا يَرْتَدُّ إِلَى صاحِبِه ، إِلاَّ إِذَا طُرِقَ رَأْسُه طَرْقًا عَنِيفًا ، ورَأَى الخَطَرَ أَمامَ عَيْنَيْه ، وتَأَكَّدَ مِنَ الهَلاكِ ، فَعَجِبَ صَلاحُ الدِّينِ مِنْ أَمْرِ «بالْيانَ» وصاحَ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ :

- أَلُعْبَةٌ نَحْنُ يا «بالْيانُ» ؟! عُدْتُمْ إِلَى ما أَبَيْتُموه بَعْدَما غَرَّكُمْ شاطحُ الخَيالِ! لَنْ أَرْجعَ عَنْ عَزْمِى يا «بالْيانُ» ، ولابُدَّ مِنْ تَسْليم المَدينَة بِحَدِّ السَّيْف ، مِنْ غَيْرِ قَيْد ولاَ شَرْط ، فَقَدْ أَقْسَمْتُ أَنْ أَفْتَحَها عَنْوةً ، وأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ الفَتْحَ بالقُوَّة ، لاَ يُعْطِى امْتيازًا مِثْلَ الفَتْح صُلْحًا ، وقَدْ بَدأْتَ بالشَّرِّ ، فَذُقْ جزاء العناد والتَّكَبُّر .

وَلَنْ أَفْعَلَ مَعَكُم إلاَّ مِثْلَ ما فَعَلْتُم بِالقُدْسِ وأَهْلِه ، حِينَ مَلَكْتُموه سَنَةَ إِحْدَى وتسْعِينَ وأَرْبَعمائَة مِنَ الهِجْرَة ، مِنَ القَتْلِ والسَّلْب والنَّهْب ، وما اقْتَرفْتُموه مِنْ أَبْشَع الجرائم ، تِسْعِينَ عامًا حالِكَةَ الظَّلام ، مُتَدفِّقَةَ الدِّماء ، وجَزاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُها .

تَذَكَّرَ الفرنْجُ مَوَاقِفَهُم المُخْزِيَةَ ، وجَعَلوا يَتَدبَّرون المَصيرَ القاتِمَ ، الَّذى يَنْتَظِرُهُم فِى حُدود السُّيوف الإسْلاَميَّة المَشْهورَة ، المُتَحفِّزَة للأَخْذ بالثَّأْر .

وعادُوا إِلَى السُّلْطان مَرَّةً أُخْرَى ، يَتَوسَّلُون إِلَيْه فِى ذِلَّة وانْكسار ، ويُحاوِلُون أَنْ يُرَقِّقُوا قَلْبَه بالبُكاء والنَّدَم ، وإِثارَة عَطْفه ورَحْمَته الَّتِى مَلأَ صيتُها الآفاقَ ، ويَنْتزعُوا مِنْه العَفْوَ ، ويَطْمَئِنُّوا عَلَى رُءُوسِهِم الَّتِى تَهْتَزُّ فَوْقَ الأَعْناق .

ولَمَّا وَجَدَه «بالْيانُ» شَديدَ الغَضَب ، مُصِرًّا عَلَى رَأْيه ، لَجأَ إِلَى طَرِيقَة أُخْرَى ، فَأَلْبَسَ وَجْهَهُ غِطاءً آخَرَ ، وبَعَثَ إِلَيْه كِتابًا يَقولُ لَه فيه بِلَهْجَة غَرِيبَة :

- «إِنَّنا أَيُّها السُّلْطانُ لَنْ نُسَلِّمَ أَبدًا ، وقَدْ عَقَدْنا العَزْمَ عَلَى الصُّمود لَكُمْ وهَزِيمَتِكم ، وإِذا رَأَيْنا المَوْتَ لابُدَّ مِنه ، فَوَاللهِ لَنَقْتُلَنَّ أَبْناءَنا ونساءَنا ، ولَنُحْرِقَنَّ كُلَّ ما نَمْلِكُ مِنْ أَمْوالنا وأَمْتِعَتِنا ، ولا نَتْرُكَكُم تَأْخُذونَ مِنَّا دِينارًا ولا دِرْهَمًا ، ولاَ تَأْسِرُون مِنَّا رَجُلا ولاَ امْرَأَةً .

أَخَذَ السُّلْطانَ العَجَبُ الشَّديدُ مِمَّا يَسْمَعُ ، وكادَ أَنْ يَأْمُرَ بِإِلْقاءِ الكِتابِ فِى وَجْهِ الرَّسُولِ ، وبِطَرْدِه ، ثُمَّ فَضَّلَ أَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يَسْمَعَ

باقيه ، وجعل يسدد بصره إلى الرسول وهو يصل قراءته قائلاً :

- فإذا فرغنا أيها السلطان من ذلك ، أخربنا الصخرة التى تقدسونها ، وتقولون إن رسولكم وقف فوقها ، وعرج منها إلى السماء ، وحطمنا المسجد الأقصى الذى تقدسونه ، وهدمنا غيره من الأماكن التى تحرصون عليها ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير . خمسة آلاف أسير أيها السلطان! ، ولا نترك دابة ولا حيوانًا إلا قتلناه» .

فَفاضَ الغَضَبُ بالسُّلْطانِ ، ووَضعَ يدَه على مَقْبضِ سَيْفِه ، وهَمَّ أنْ يُمْسكَ بِه ويُطيرَ رأْسَ الرَّسُولِ بِحَدِّه ، ويأْمُرَ باقْتِحَامِ القُدْسِ ، ونَظرَ إلَى القاضِى الفاضِلِ ، وقالَ والغضَبُ يُرْعدُه :

- ماهذا ياعَبْدَ الرَّحيم ؟ ! ألا يَسْتَحقُ مَنْ يَحْملُ هذا الكَلامَ ، أنْ لاَ يَبْقَى لَحْظَةً على ظَهْرِ الأَرْضِ ، كَما يَسْتَحِقُّ مَنْ بعَثَه ؟ !

قالَ عَبْدُ الرَّحيم مُترَفِّقًا :

صَدْرُ مَوْلاَىَ أَوْسَعُ ، وقَلْبُه أكْبَرُ ، وهذا رَسولٌ يَحْملُ كتابًا ويُبَلِّغُ رسالَةً ، ولا ذَنْبَ لَه فِى شَىْءٍ ، وأُفَضِّلُ أنْ يَسْمعَ مَوْلاىَ باقِىَ الرِّسالَةِ ، ثُمَّ يَرَى كَيْفَ يُؤدِّبُ مَنْ بعَثَها ، بِما يَسْتَحِقُّ مِنَ العِقَابِ .

فَهدَأَ السُّلْطانُ بَعْضَ الشَىْءِ ، وعادَ يَسْتَمعُ فِى غَضَبٍ ، والرَّسولُ يَقْرأُ فِى خَوْف شَدِيد :

- «وبَعْدَ ذلكَ نَخرُجُ إِلَيْكُم ، ونُقاتلُكُم قتالَ مَنْ يُريدُ أنْ يَحْمِىَ دَمَه ونَفْسَه ، وحِينَذاكَ لا يُقْتَلُ الرَّجُلُ مِنَّا حَتَّى يَقْتُلَ أَمْثالَه .

هذا ما عَزَمْنا عَلَيْه أيُّها السُّلْطانُ ، ولَكَ أنْ تَختارَ فى مُعامَلَتنا ما تَشاءُ» .

فلَمْ يَهْتَمَّ السُّلْطانُ بِتَهْدِيد «بالْيانَ» ، وزادَ عَزْمًا على التَّمَسُّكِ بِرأْيِه ،

والمُضىِّ فى طَريقه ، وفَتح القُدْس بالقُوَّة ، وكادَ يُلْقى أوامِرَه بالهُجوم ، ثُمَّ رأى أنْ يُشاوِرَ أصْحابَه ، كما أمَرَ الدِّينُ ، وكما يَصْنَع هُوَ فى كُلِّ أمْر .

وجَمَعَهُم ، وعَرَضَ عَلَيْهِم الكِتابَ ، فَسَخِرَ كَثيرٌ مِنْه ومِنْ كاتِبه ، ورَفَضوا الخُضوعَ لِلتَّهْديد ، ونادَوا بالهُجوم السَّريع ، وفَتْح القُدْس بِغَيْر قُيود ولا شُروط ، والقَبْضِ على «بالْيانَ» ومَنْ مَعَه ، وقَتْلِهم جَزاءَ التَّهْديد وقلَّة الذَّوْق .

ورأى بَعْضُهُم أنْ يَسْتَجيبُوا ، ولا يُؤاخِذوا «بالْيانَ» بِما كَتَبَ ، وقالَ القاضى الفاضِلُ فى هُدوءٍ :

- أطَالَ اللهُ بَقاءَ مَوْلاىَ ، وحَفِظَه وأذَلَّ أعْداءَه . ما دُمْنا يا مَوْلاىَ سَنَصِلُ إلى الهَدَف الَّذى نَقْصِدُه ، مِنْ غَيْر طَريق الدِّماءِ وتَحْطيم البَيْت المُقَدَّس ، الَّذى لا يَهْتَمُّ الفِرِنْجُ بِتَحْطيمه ، فَلِمَ لا نُوافِقُ على الصُّلْح ، بالشُّروطِ الَّتى نُصالِحُ بِها غَيْرَ هؤلاءِ ؟ .

وهُمْ يا مَوْلاىَ شَديدو الحُمْقِ ، فَقَدْ يَرْكَبُون رُءوسَهُم ويُلْقُونَ بِأنْفُسِهم فى النَّارِ .

والانْتحارُ لَدَيْهِمْ يا مَوْلاىَ أمْرٌ سَهْلٌ ، لا يَعْرِفُونَ له عِقابًا كَما يَعْرِفُ المُسْلمونَ ، وكَثيرٌ مِنْهُم يَسْعَى إلَيْه ، فى ضيقٍ وفى غَيْر ضيقٍ ، حَتَّى لَيَقْتُلُ المَرْءُ مِنْهُم نَفْسَه ، لأنَّه لَمْ يُوَفَّقْ فى صُحْبَةِ إنْسانٍ ! .

وتَغْليبُ جانِبِ السِّلْم يا مَوْلاىَ خَيْرٌ ، والإسْلامُ يَعْفو عَنِ الزَّلاَّت ، ويَتَجاوَزُ عَنِ السَّيِّئات ، وما كَتَبَ «باليانُ» كِتابَه هذا وهُوَ يَعْتَقِدُ أنَّه سَيَصِلُ بِه إلى شَىْءٍ ، فَهُوَ يَعْلَمُ أنَّ المُسْلِمَ لا يَخافُ التَّهْديدَ ، ويَعْرِفُ أنَّ بَأسَنا شَديدٌ ، وما أرادَ يا مَوْلاىَ إلاَّ أنْ يُفَرْقِعَ بِشَىْءٍ ، لِيُرِىَ النَّاسَ أنَّه صَنَعَ شَيْئًا .

فَوافِقْ يا مَوْلاىَ إنْ شِئْتَ على الصُّلْح ، وخَلِّصِ القُدْسَ مِنْهُم ، وكَفَى كُلُّ ما مَضَى مِنْهُم مِنَ الشُّرورِ والآثامِ .

مناقشة الفصل العاشر

١ «أصبح القدس بعد حطين تحت رحمة صلاح الدين، وكان بوسعه أن يسير إليه، ويحاصره ويفتحه بالقوة، إن لم يرفع راية التسليم، فقد حطمت هذه المعركة قوته العسكرية والنفسية»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لمايلى :

- المقصود بقوله «يحاصره» : (يحيط به - يقف أمامه - يسيطر عليه - يهجم عليه)

- مضاد (الرحمة) : (الغلظة - الظلم - القسوة - الشدة)

- فعل (تسليم) : (أسلم - سالم - سلّم - سلم)

(ب) «حطمت هذه المعركة قوته» ما المعركة المشار إليها ؟ ولمن كانت الغلبة والنصر ؟

(جـ) من الذى رفع راية التسليم ؟ ولماذا ؟

(د) لماذا لم يدخل «صلاح الدين» القدس بعد معركة «حطين» ؟ وماذا فعل بملك القدس وقائده «إرناط» ؟

(هـ) ما قيمة العطف فى قوله «العسكرية والنفسية» ؟

٢ لم فكر «صلاح الدين» فى فتح المدن الساحلية قبل دخول القدس ؟ ومن الذى ساعده على ذلك؟

٣ ما الظروف التى ساعدت «صلاح الدين» على فتح «عكا» ؟ وما موقف حاكمها وشعبها منه ؟

٤ كيف عامل «صلاح الدين» أهل عكّا؟ وما أثر ذلك فى نفوسهم؟

٥ كانت «بيروت» أشد مدن الساحل تحصينا. فلماذا استسلم أهلها سريعا؟

٦ «ولما وجدوا فى هذا الأمير، ما قوى فيهم روح المقاومة، عدلوا عن عرضهم، ونادوا بالحرب، وصرخوا بأن الموت أهون عليهم من التسليم، فغضب السلطان غضبا شديدا، وأقسم على أن يسترد بيت المقدس بحد السيف»

(ا) هات مرادف «المقاومة» ومقابل «عدلوا»، فى جملتين من تعبيرك .

(ب) من الأمير المشار إليه فى العبارة ؟ وما موقف صلاح الدين منه يوم «حطين» ؟

(جـ) ما العرض الذى قدمه أهل القدس إلى «صلاح الدين» ؟ ولماذا عدلوا عنه ؟

(د) دخل «صلاح الدين» القدس من الجهة الشمالية . فما موقف أهلها منه ؟ وما الذى جال فى خاطرهم فى تلك اللحظة ؟





الفصل الحادى عشر

تطهير القدس

(١)



غَدا الفرنجُ فى القُدْسِ ، صَيْدًا يَضْطربُ فى حَبائله ، يَتحرَّكُ فيها حَركات هائجَةً غيرَ عاقلة ، مُرْتَعِدًا من السّكّينِ الّتى تبْرُقُ أمامَ عَيْنَيْه ، يَغْدُونَ ويَرُوحُونَ ، لا يَعْرِفُون منْ شِدَّةِ ما بِهم ، لِمَ يَغْدُونَ؟ ولِمَ يَرُوحُونَ ؟

يَجْرونَ مَرَّةً إلَى كُنوزِهِمُ المَخْبوءَة ، ويَسْتَخْرجونها منْ مَخابِئها ، ويَضَعونَها أمامَهم ، ويَنْظُرون إليها فى حَسَرات باكيَة ، ثُمَّ يَدُسُّونَها حَيْثُ كانَتْ . ومَرَّةً يَحْملونَ صِغارَهُم علَى أكْتافِهِم ، ويَجْرُونَ بِهِم بَعيدًا بَعيدًا ، ثُمَّ يرتَدُّون ويَنْظُرون إلَيْهِمْ فى تَحَسُّرٍ ، يُفَكِّرون فيما سَيَعْمَلون إذا وَقَعَت الواقعةُ .

ثُمَّ يُوَجِّهونَ الأبْصارَ إلَى المَرْضَى ، والعَجَزَة ، والمُثْقَلات بما فى بُطونهنَّ منَ الأجنَّة ، ويَعْصِرون أعْيُنَهم المُجرَّحَةَ ، لِتُسْعفَهم بقَطرات منَ الدُّموع ، تُبَرِّدُ شَيْئًا مِنَ النّارِ المُشْتَعلَة فى الصُّدور ، لكنْ هَيْهات ، فَقَدْ تَجَمَّدَتْ ، ولَمْ تَعُدْ قادرةً علَى أنْ تَسْتَجيبَ بِشَىْءٍ ، تاركَةً اللَّهيبَ المُتَّقدَ فى الأحْشاء يَفْريها .

الرِّجالُ مِثْلُ النِّساء ، يَلْطِمونَ الخُدودَ ويَشُقُّونَ الجُيوبَ ، فَقَدْ فَقَدُوا الأَمَلَ فِي الصُّلح ، كَما فَقَدوا الأَمَلَ فِي المُقاوَمَة ، والقِلَّةُ الباقِيَةُ مِنَ الفُرْسانِ ، مُنَكَّسَةُ الرُّءُوسِ والسُّيوفِ ، تَجُرُّ الخَطْوَ ، مُثْقَلَةً بِالسُّخْرِيَةِ اللاذِعَة ، الَّتِى تَنُوشُها مِنْ كُلِّ جانبٍ ، حَتَّى إِذا لَمْ تَعُدْ قادِرَةً عَلَى مُواجَهَة سُيولِها الجارِفَة ، خَرَجَتْ إِلَى المُسْلِمينَ ، واشْتَبَكَتْ مَعَهم فِي مُحاوَلَة يائِسَة ، لا تَلْبَثُ أَن تَعُودَ مِنْها بِغَيْرِ نِصْفِها ، أَو أَكْثَرَ مِنَ النِّصْف ، ناجِيَةً مِنَ الهَلاكِ بِالكَثِيرِ مِنَ الجِراحِ الغائِرَة ، تُحَذِّرُها وتَصِيحُ بِها أَلاَّ تَعُودَ .

والأَفْواهُ فِى جَوانِبِ المَدِينَة تَصْرُخُ فِى فَزَع ، تَحُثُّ «بالْيانَ» عَلَى عَقْدِ الصُّلْح . ولَمْ يَكُنْ «بالْيانُ» يَمْلِكُ أَنْ يَعْقِدَ صُلْحًا ، بَعْدَما أَغْضَبَ السُّلْطانَ بِرَفْضِه إِيَّاه ، وما زادَ مِنْ إِغْضابِه بِكِتابِه المُهَدِّد ، الَّذِى ظَنَّ أَنَّه سَيَصِلُ بِه إِلَى شَىْءٍ .

وكانَ السُّلْطانُ الرَّحِيمُ عَلَى عادَتِه ، قَدْ مالَ إِلَى الرَّأْفَة بِهؤُلاء ، الَّذينَ أَصْبَحُوا أَنْفاسًا تَتَرَدَّدُ فِى أَشْباح ، ورُءُوسًا مِثْلَ القَماقِم[1] الفارِغَة ، فَوْقَ الأَعْناقِ المُهْتَزَّة والأَجْسادِ المُرْتَعِشَة ، وخافَ عَلَى بَيْتِ اللهِ مِنْ أَنْ تُصِيبَه يَدٌ طائِشَةٌ بِأَذًى ، فَرَضِىَ بِالصُّلْح ، وعَدَلَ عَنْ أَخْذِ المَدِينَة عَنْوَةً ، وأَعْلَنَ مُوافَقَتَه عَلَى التَّسامُح مَعَ هؤُلاءِ ، الَّذِينَ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ حَوْلٌ ولاَ قُوَّةٌ ، ورَحْمَةً بِالعَجَزَة والمَرْضَى والأَطْفالِ .

وانْطَلَقَتِ البَشائِرُ تُعْلِنُ العَفْوَ ، وتَقولُ لِلنَّاسِ بِأَصْواتٍ عالِيَة :

– أَبْشِروا ، أَبْشِروا ، فَقَدْ عَطَفَ عَلَيْكُمُ السُّلْطانُ ، وفَكَّ الأَغْلالَ عَنْ رِقابِكُم ، فَمَنْ شاءَ مِنْ غَيْرِ المُحارِبِينَ أَنْ يُقيمَ بَيْنَنا فَمَرْحَبًا ، ومَنْ أَرادَ مِنْهُم أَنْ يَخْرُجَ فَلَه الحُرِّيَّةُ ، يَذْهَبُ حَيْثُ يَشاءُ .

---

(١) القماقم : مفردها القمقم وهو الإناء .

أَمَّا المُحاربُون فيَخْرُجُون حَتْمًا ، علَى أَنْ يَدْفعَ القادِرُون مِنْهُم فِدْيَةً مِنَ المالِ ، للرَّجُلِ عَشْرَةُ دَنانِير ، ولِلْمَرأَة خَمْسَةٌ ، ولِلطِّفْلِ ديناران .

أَمـامَكُم أَيُّهـا النَّاسُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا تُؤَدُّون فـيـهـا الفِـدْيَةَ ، ومَنْ انْقَضَت الأَرْبَعونَ يَوْمًا ولَمْ يُسَدِّدْ ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَسِيرًا ، مَمْلُوكًا ، فَقَدَ حُرِّيَّتَه ، وغَدا فى عِدادِ الرَّقيق .

فَتَنَفَّسَ الفرنْجُ أَنْفاسًا طَويلَةً ، وسَقَطَ بَعْضُهُم علَى الأَرْضِ ذاهِلاً ، لاَ يُصَدِّقُ أَنَّه أَفْلَتَ مِنْ قَبْضَةِ المَوْتِ ، ولا ما يَسْمَعُ عَنْ هذه الفِدْيَةِ الزَّهيدَةِ الَّتِى أَعْلَنَها السُّلْطانُ .

وبَكَى الكَثيرون تَأَثُّرًا مِنْ رَحْمَةِ الإِسْلام وعَطْفِه ، وحُسْنِ مُعامَلَته لأَعْدائه ، وزادَهم بُكاءً تَذَكُّرهُم قَوْمَهُم وهُمْ يَقْتُلونَ العَرَبَ ويَسْلُبونَهم ، ويَنْهَبونَهم ، ولا يُبْقونَ أَحَدًا مِنهم قَدَرُوا عَلَيه .

وجلَسَ كِبارُ الأَعْمارِ مِنْهُم ، نادِمِين ، يَسْتَرْجِعُون الأَيَّامَ البَعيدَةَ ، حِينَ كانوا شُبَّانًا يَسْمَعونَ الخِداعَ والكَذِبَ ، مِمَّنْ يُحَرِّضُونَهم علَى غَزْوِ الشَّرْقِ ، ويُصَدِّقونَهُم ، مُنْدَفِعينَ بِفَوْرَةٍ[1] لا تَعْقِلُ ولا تُمَيِّزُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ .

تَرِنُّ فِى آذانِهِم كَلِماتُ «بُوهِمند» ، وهُوَ يُؤَكِّدُ لَهُم أَنَّهُم ذاهِبُونَ إِلَى النَّعيمِ المُقيمِ ، ويُمَنِّيهِم بِالحَياةِ السَّعيدَةِ الدَّائمَة الَّتى لَنْ تزولَ ، وكَلِماتُ ذلكَ الأَميرِ العالِمِ العاقِلِ ، وهُوَ يُحَذِّرُ المَلِكَ ، ويُؤَكِّدُ له أَنَّ حَمْلَتَه خاسِرَةٌ ، لأَنَّه لا يَدْرِى ما العَرَبُ ، ولا يَعْرِفُ أَنَّ أَرْضَهُم لا تَدَعُ فَوْقَها دَخيلاً ، مَهْما طالَتْ بِه الأَيَّامُ .

يَتَذَكَّرُون ما مَضَى فِى حُزْنٍ وأَلَمٍ ونَدَمٍ ، ثُمَّ يَلْتَفِتُون إِلَى أَبْنائِهِم ويَقولُون لَهُم فِى أَسًى :

- احْزِمُوا الأَمْتِعَةَ واسْتَعِدُّوا لِلرَّحيلِ ! ولكِنْ أَيْنَ تَذْهَبُون ؟ ! ! بِلادُ

(١) فورة : المقصود : ثورة أو حماسة .

أورُبَّا مُغْلَقَةً أمامَنا ، قَدْ أقْفَلَ صَلاحُ الدِّين مَنافِذَ البَحْرِ ، الَّتى كانَتْ تَصِلُنا ببِلادِنا ، وتَحْمِينا وتُنْجِدُنا . والمُدُنُ الإفْرِنْجِيَّةُ مِن حَوْلِنا قَدْ سَدَّتْ أبْوابَها فِى وُجُوهِنا ، فَأيْنَ نَسِيرُ؟! .

ثُمَّ يَنْخَرِطُونَ فِى بُكاءٍ عالٍ ، وهُمْ يَقُولُون فِى نَدَمٍ :

- ماذا جَنَيْنا مِنْ مَجِيئِنا ؟ ! .

قَطَعْنا الشَّبابَ كُلَّه فِى دِماءٍ وبَلاء ، ثُمَّ كادَتْ حَياتُنا تَنْتَهِى بِرُءُوسِنا ، لَوْلاَ رَحْمَةُ السُّلْطانِ وكَرَمُ الإسْلامِ ، فَلَيْتَ السُّلْطانَ يَسْمَحُ لَنا بالبَقاءِ ! .

لَيْتَنا لَمْ نَكُنْ مُحارِبِينَ ، فَأَقَمْنا مِثْلَ المَدَنِيِّينَ ، الَّذِى فَضَّلُوا أحْضانَ الإسْلامِ ، وعِشْنا فى وَسَطِ هؤُلاءِ العَرَبِ الكُرَماءِ المُتَسامِحِينَ ! .

(٢)

حُدِّدَ يَوْمُ الجُمُعَةِ السَّابِعُ والعِشْرون مِنْ شَهْرِ رَجَب ، لِتَسْلِيم بَيْتِ المَقْدِسِ ، وهُوَ اليَوْمُ الَّذِى أُسْرِىَ فِيه بِرَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرام إلَى المَسْجِدِ الأقْصَى ، وعُرِجَ بِه فِيه إلَى السَّماءِ .

فَباتَ الفِرِنْجُ لَيْلَتَه يَبْكُون ويَتَوَجَّعُون ، وباتَ المُسْلِمُون يُهَلِّلُون ويُكَبِّرُونَ ، حَتَّى أشْرَقَ النَّهارُ فَفُتِحَتِ الأبْوابُ ، وانْدَفَعَتْ جُمُوعُ المُسْلِمِينَ إلَى داخِلِ المَدِينَةِ ، بِشَوْقِ الحَبِيبِ إلَى الحَبِيبِ ، خاشِعَةَ الأبْصارِ ، تُرَتِّلُ مِنْ آياتِ اللهِ الكَرِيمِ قَوْلَه تَعالَى فِى سُورَةِ الإسْراءِ :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [١] .

ثُمَّ تَصِيحُ فِى قُوَّةٍ واشْتِياقٍ :

---

(١) سورة الإسراء - الآية (١) .

- إلى قُبَّة الصَّخْرة ، إلى أقْدام البُراق ، هيَّا يا أحبَّاء ، هيَّا يارفاقُ .

فتَزيدُ صُدورُ الفرنْج توَجُّعًا ، وهُمْ ينْظُرون إلى الجُموع المُتدافعَة ، كأنَّما ينْظُرونَ إلى المَوْت ، يوَدُّون لوْ هجَموا عليها وأبادُوها ، كَما أبادَ أسْلافُهم أسْلافَها ، ممَّنْ كانُوا بالقُدْس حين دَهَموه مُنْذ تسْعين عامًا .

حتَّى إذا أطْفأ المُسْلمونَ بعْضَ الشَّوْق إلى بَيْت الله ، خرَجوا ، وقُلوبُهم خافقَةٌ بالفَرح ، معَ الأعْلام الإسْلاميَّة المُرفْرفَة على الأسْوار ، تُعْلنُ النَّصرَ وقُوَّة الله العَزيز الجبَّار ، وأصْواتُهم ترْتَفعُ إلى عَنانِ[1] السَّماء ، تُردِّدُ فى اسْتعْبار[2] :

«لاَ إلهَ إلاَّ الله ، وَحْدَهُ ، صدَقَ وَعْدَهُ ، ونَصرَ عَبْدَهُ ، وأعَزَّ جنْدَهُ ، وهَزمَ الأحْزابَ وَحْدَهُ » .

ثُمَّ انْصرَفوا ينْتَظرون فَراغَ الفرنْج منَ الرَّحيل ، ويترقَّبُون يوْمَ الجُمُعَة المُقْبلَ الرَّابعَ منْ شَعْبانَ ، ليُؤَدُّوا صَلاةَ الجُمُعَة بالمَسْجد الأقْصى مَعَ السُّلْطان . ويَحْضرُوا المهرَجانَ الَّذى سيُقامُ بعْدَ الصَّلاة .

حزَمَ الفرنْجُ أمْتعَتهُم ، وحمَلُوا ما اسْتطاعُوا حَمْلَه منْها على أكْتافهم وظُهُورهمْ ، ووضَعُوه فى الشَّوارع والمَيادين ، كوْمات فَوْقَ كوْمات ، ممَّا نَهبوا منَ العَرب على مَرِّ الأيَّام وكَرِّ السَّنَوات ، ووَقَفوا أمامَها يَعْرضُونَ الكثيرَ منْها بأبْخَس الأثْمان ، ويَبيعُونها بيْعَ الهَوان .

ومنْ حَوْلهمْ مَوْجٌ منْ طُيورهم الَّتى فرَّتْ منْ محابسها ، وحَيَواناتهم الَّتى نَزعَتْ قُيُودَها ، ودَوابِّهم الهائجَة بَيْنَ الزِّحام ، يَعْلُو صَهيلُ خُيُولها ، ونَهيقُ حَميرها ، وثُغاءُ شياهها ، ورُغاءُ إبلها ، وعُواءُ كلابها ، ومُواءُ قططها ، وتَعْلُو معَه اسْتغاثَتُهم منْها ، وهىَ تَهْجُمُ علَيْهم منْ شدَّة الجُوع ، تَبْحَثُ عَن الطَّعام الَّذى شَحَّ ، والماء الَّذى نَدَرَ .

---

(١) عَنان : ما يبدو للناظر من السماء . (٢) استعبار : المقصود جريان الدموع .



والسُّلْطانُ جالسٌ فِى سُرادقه ، يَعْمَلُ جاداً علَى حفْظ النِّظام ، وكَفِّ أَيْدِى المُعْتَدِينَ عَنِ الضُّعَفاء ، وفَكِّ المُشاجَرات الَّتِى اشْتَعَلَتْ نارُها فِى هذه السُّوق الصَّاخِبَة ، وخاصَّةً بَيْنَ المَذاهب الإفْرَنْجِيَّة المُتعادِيَة ، ويَسْتَجِيبُ للْمُسْتَغيثِينَ به منَ الأَشْرار ، ولِمَنْ يَرْجُونه إعْفاءَهم منَ الفِدْيَة ، الَّتِى يَعْجزُونَ عَنْ أدائها مَعَ قِيمتها الزَّهيدَة ، ومَنْ يَتوسَّلْنَ إلَيْه ، أَنْ يُعيدَ إلَيْهِنَّ أطْفالَهُنَّ الَّذينَ ضَلُّوا عَنْهُنَّ ، ومَنْ يَرْجُونَه أَنْ يُطْلِقَ لَهُنَّ العائِلَ الوَحيدَ ، مِنْ أَبْنائهِنَّ أَوْ أَزْواجِهِنَّ أو إخْوَتِهِنَّ ، وإلاَّ هَلَكْنَ جُوعًا ، ومَنْ يَبْكُون لأَنَّهُم لا يَجِدُون ما يَحْمِلُهم وهُمْ يَرْحَلُونَ .

يُلَبِّى هذه الرَّغَبات كُلَّها وغَيْرَها ، ومُناديه علَى بابه رَافعَ الصَّوْتِ باسْمه ، يَقولُ ولا يَسْكُتُ : هَلْ مِنْ فَقيرٍ فَنُغْنيه؟ هَلْ مِنْ عاجزٍ فَنُعْفيه ؟ هَلْ مِنْ ضَالٍّ فَنُؤْويه؟ .

ثُمَّ حَمَلُوا ما اسْتَطاعُوا حَمْلَه ، وسارُوا به إلَى الأَبْواب يَجُرُّونَ أَرْجُلَهُم . وتَجمَّعوا خارجَها كما أَمَرَ السُّلْطانُ ، فِى مَجْموعات ثلاث : واحدَةٌ منْها يَسيرُ بِها مُقَدِّمو الدَّاوِيَّة ، والثَّانيَةُ يَسيرُ بِها مُقَدِّمو الإسْبِتارِيَّة ، والأُخْرَى يَسيرُ بها «باليانُ» .

وتحرَّكُوا فى الطُّرق بأَحْمالِهم ، وسارُوا يَتَعثَّرون ، ذَاهِبِينَ إلَى حَيْثُ المَجْهولُ الَّذى لاَ يَعْرِفُونَ أَيْنَ يَكونُ؟ ولا ماذا يَكُونُ ؟ .

ولَمَّا خَلَت المَدينةُ مِنْ أُولئكَ المَخدُوعِينَ ، أَمَرَ السُّلْطانُ بِأَنْ تُعادَ إلَى ما كانَتْ عَلَيه مِنَ الجَمال والجَلال ، فَأَسْرَعَ العُمَّالُ والمُهَنْدِسُون يَعْمَلُونَ .

وجَدُوا الفِرِنْجَ قَدْ حَطَّموا الكَثِيرَ منَ المَبانِى الإسْلاميَّة ، وحَوَّلوها إلَى حَظائِرَ ومَزابِلَ ، ومَواضعَ تَنْفِرُ مِنْها العُيونُ ، وتَشْمَئِزُّ مِنْها النُّفوسُ . وغَيَّروا كَثيرًا مِنْ مَعالِمها الَّتِى يَحْرِصُ العَرَبُ علَيها .

فَأَسْرَعوا يُزيلونَ هذه الأَوْساخَ ، وبَدَأُوا بِالمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذى وَجَّهَ الفِرِنْجُ إِلَيْه أَكْثَر عَبَثِهم ، وما اسْتَطاعوا مِنَ التَّخْرِيبِ والتَّشْويه .

وأَسْرَعوا يُنَظِّفُونَه ويَغسِلُونَهُ ، وأَقْبَلَتْ أَحْمالُ ماءِ الوَرْدِ تُلْقَى فِي ساحَتِه ، وتَبْعَثُ ذَكِيَّ الرَّائِحَةِ فِى جَوانِبِه ، وتَجْلُو أَرْضَه وحَوائِطَه ، وتَكْشِفُ ما غَطَّى الفِرِنْجُ بِأَوْساخِهِمْ مِنَ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ الكَرِيمَةِ ، المَكْتوبَةِ عَلَى الجُدْرانِ بِماءِ الذَّهَبِ ، فَتَلأْلأَتْ ، ونَطَقَتْ كَما كانَت بِالجَلالِ والبَهاءِ .

وجَدُوا الدَّاوِيَّةَ قَدْ بَنَوْا غَرْبِىَّ المَسْجِدِ الكَرِيمِ أَبْنِيَةً لِسُكْناهُم ، وأَطْلَقوا صَرْفَها القَذِرَ يَبْعَثُ الرَّوائِحَ الكَرِيهَةَ ، ويَجْذِبُ الحَشَراتِ والهَوامَّ ، وأَدْخَلوا بَعْضَ المَسْجِدِ فِى تِلْكَ الأَبْنِيَةِ وأَطْلَقوا فِيها الخَنازِيرَ بِأَوْساخِها ، فَأَزالُوا تِلْكَ المَبانِىَ ، ونَظَّفُوا أَماكِنَها ، وأَعادُوا إِلَى المَسْجِدِ كَثِيرًا مِنْ بَهائِه ورَوْنَقِه .

والسُّلْطانُ ساهِرٌ يَتَعَجَّلُ الانْتِهاءَ مِنَ العَمَلِ ، ويَقولُ لِلْمُهَنْدِسينَ والعُمَّالِ : أَسْرِعوا بِكُلِّ قُواكُم ، وابْذُلوا أَقْصَى جُهْدِكُم ، فَسَوْفَ نُصَلِّى الجُمُعَةَ القادِمَةَ فِى المَسْجِدِ الأَقْصَى إِنْ شاءَ اللهُ .

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى وزِيرِه القاضِى الفاضِلِ ، وقالَ وعَيْناهُ مُغْرَوْرِقَتانِ بالدُّموعِ :

- المِنْبَرُ يا عَبْدَ الرَّحِيمِ . مِنْبَرُ الشَّهِيدِ نُورِ الدِّينِ . ابْعَثُوا إِلَى «حَلَبَ» وأَحْضِرُوه ، لِنُقيمَه حَيْثُ أَرادَ السُّلْطانُ المُؤْمِنُ المَكْشوفُ الحِجابِ ، مَنْ لَمْ يَشُكَّ يَوْمًا ، فِى أَنَّ ذلكَ المِنْبَرَ سَيَأْخُذُ مَكانَه مِنَ القُدْسِ الشَّرِيفِ .

قالَ الوَزِيرُ زائِدَ التَّأَثُّرِ : أَحْضَرْناه يا مَوْلاىَ .

- وكَيْفَ هُوَ يا عَبْدَ الرَّحِيمِ ؟ .

- تُحْفَةٌ رائِعَةٌ يا مَوْلاىَ ، يَلِيقُ بِأَوَّلِ القِبْلَتَيْنِ وثانِى المَسْجِدَيْنِ وثالِثِ الحَرَمَيْنِ . وسَوْفَ يَتَلأْلأُ فِى المَسْجِدِ الأَقْصَى يَوْمَ الجُمُعَةِ إِنْ شاءَ اللهُ .

(٣)

كانَ العالَمُ الإسْلامِىُّ كُلُّهُ ، مَشْدُودًا إلَى المَعْرَكَة ، يَنْبُضُ قَلْبُه بِنَبَضاتِها ، ويَتَحَرَّكُ جِسْمُه بِحَرَكاتِها ، فَشَبابُه فِى وَسَطِها ، يُكافِحُ بِكُلٍّ ما أُوتِىَ مِنْ قُوَّةٍ وإيمَان .

والأُمَّهاتُ ساهِراتُ اللَيَّالِى مَعَ فَلْذاتِ الأَكْبادِ ، رافِعاتِ الأَكُفِّ إِلَى السَّماءِ ، داعِياتٍ لأَوْلادِهِنَّ بِالنَّصْرِ ، والعَوْدَةِ سالِمِينَ غانِمِينَ ، قَدِ انْتَزَعُوا الأَوْتادَ الَّتِى دَقَّها المُسْتَعْمِرونَ فِى الأَرْضِ الطَّاهِرَةِ ، وهَدَمُوا القِلاعَ وقَضَوْا عَلَى تِلْكَ الحَرَكَةِ الطَّامِعَةِ الغاشِمَة .

وقُلوبُ الجَمِيعِ تَرِفُّ حَوْلَ بَيْتِ الله ، تَتَرَقَّبُ أَنْ يُفْتَحَ ويُذْكَرَ فِيهِ اسْمُه ، ويَعودَ الحُجَّاجُ إِلَى ساحَتِه ، يُؤَدُّونَ الفَرْضَ ، ويَرْجِعُونَ بِالنَّفَحاتِ والبَرَكات .

الكُلُّ مُتَأَهِّبٌ يَنْتَظِرُ فِى لَهْفَة ، يَمُدُّ الآذانَ إِلَى المَنائِرِ العالِيَةِ ، لِيَسْمَعَ مِنْ فَوْقِها الخَبَرَ السَّعِيدَ ، والمُؤَذِّنُ يُعْلِنُه بِصَوْتِه الرَّفِيقِ المَدِيد .

وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، أَسْرَعُوا إِلَى مَحَطَّاتِ الحَمامِ الزَّاجِلِ ، ووَقَفُوا عِنْدَ أَبْراجِها ، تَدُورُ أَعْيُنُهم فِى السَّماءِ ، تَتَبَعُ كُلَّ حَمامَةٍ مُقْبِلَةٍ مِنَ الشَّام ، تُحَلِّقُ مَعَها وتَهْبِطُ مَعَها ، وتُقَلِّبُ البَصَرَ فِى جَناحَيْها ، لَعَلَّ فِيهِما كِتابَ البِشارَةِ ، فَيَقْفِزوا إِلَى ظُهورِ الدَّوابِّ ، ويَنْطَلِقوا بِها إِلَى هُناكَ .

والمَساجِدُ مُزْدَحِمَةٌ بِالخَلْقِ ، كُلُّ فَمٍ عَلَى أُذُنٍ ، يَسْأَلُ عَنِ الخَبَرِ ، ويَتَمَنَّى أَنْ يَسْمَعَ شَيْئًا يُطَمْئِنُ .

حَتَّى جَلْجَلَتِ المَآذِنُ بِقُوَّة ، تُعْلِنُ تَسْلِيمَ القُدْسِ ، فَماجَتِ الجُموعُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ، وأَسْرَعَتْ إِلَى الشَّامِ رِجالاً ورُكْبانًا ، يَزْحَمُونَ الطُّرُقَ بِأَعْدادِهِمِ الهائِلَةِ المُتَدافِعَة .

وهُناكَ وَجَدُوا أَسْواقَ الفَرْحَةِ مَنْصوبَةَ السُّرادِقاتِ ، تَخْفُقُ فيها الأَعْلامُ وتَدُقُّ الطُّبولُ ، ويُنْشِدُ المُنْشِدون ، ويُغَنِّى المُغَنُّون ، ويَخْطُبُ الخُطباءُ ، ويَقولُ الشُّعَراءُ ، وتَرْتَفِعُ الزَّغاريدُ ، وتَرْقُصُ الخُيولُ على أَنْغامِ المَزاميرِ ودَقّاتِ الطُّبولِ ، وتُرَدِّدُ الأَفْواهُ التَّهْليلَ والتَّكْبيرَ ، والْحَمْدُ للَّهِ العَلِيِّ القَديرِ ، الَّذى أَذَلَّ الطُّغاةَ ، وأَرْغَمَ أُنوفَ المُتَجَبِّرينَ ، وخَلَّصَ الأَرْضَ الطَّاهِرَةَ .

والسُّلْطانُ مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ ، باسِمُ الثَّغْرِ ، يَسْتَقْبِلُ الوُفودَ ، ويُحَيِّيهِم ويُرَحِّبُ بِهِم ، ويَمُدُّ لَهُم بِساطَ كَرَمِهِ الواسِعِ ، ويُنْزِلُهُم أَحْسَنَ المَنازِلِ ، والفَرْحَةُ دائِمَةٌ ، والحُبورُ مُتَّصِلٌ .

حتَّى أَقْبَلَ يَوْمُ الجُمُعَةِ الرّابِعُ مِنْ شَعْبانَ ، فَهَبُّوا مَعَ الفَجْرِ لِلصَّلاةِ ، ثُمَّ أَسْرَعوا إلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى زَرافاتٍ زَرافاتٍ ، يَلُفُّهُم التَّكْبيرُ والتَّهْليلُ ، ودَخلُوه فَرِحينَ مُسْتَبْشِرينَ ، ومَلَئُوا ساحاتِه ، وجَعلوا يُصَلُّونَ ويُكَبِّرون ، حَتَّى أَذَّنَ المُؤَذِّنُ لِصَلاةِ الجُمُعَةِ ، فَخفَتَتِ الأَصْواتُ ، وخَشَعَتِ الأَفْئِدَةُ ، واتَّجَهَتِ الأَنْظارُ إلَى الْمِنْبَرِ المُتَلأْلِئِ ، تَنْتَظِرُ الخَطيبَ .

ثُمَّ تَتَبَّعَتِ القاضِىَ مُحْيِ الدِّينِ الزَّكِىَّ ، وهُوَ يَرْقَى دَرَجاتِ المِنْبَرِ فِى ثَباتٍ ، والسَّيْفُ فى يَدِه ، يَشُدُّ كَفَّه على مَقْبِضِهِ ، كأَنَّه مُقْدِمٌ إِلَى رُءُوسِ الفِرنْجِ ، لِيَخْطَفَها مِنْ فَوْقِ الأَعْناقِ .

ثُمَّ أَرْهَفوا إِلَيْه الأَسْماعَ وهُوَ يَهْدُرُ بِخُطْبَتِه ، ويَحْمَدُ رَبَّه القَوِىَّ القَديرَ الَّذى كَسَرَ شَوْكَةَ الظّالمينَ ، ورَدَّ بَيْتَه إِلَى عِبادِه المُخْلِصينَ ، ثُمَّ مَضَى يُعَدِّدُ فَضائِلَ المَسْجِدِ الأَقْصَى ومَآثِرَه ، ويَعْرِضُ عُدْوانَ الفِرنْجِ وآثامَهُم ، وكَيْفَ أَذَلَّهُم اللهُ وانْتَقَمَ مِنْهُم ، وأَزاحَهُم ، وأَخَذَهُم أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ .

فَارْتَجَّ المَسْجِدُ بِالتَّأَثُّرِ ، وعَلَتِ الأَصْواتُ بِالبُكاءِ . وكُلَّما مَضَى فِى

خُطْبَته ، ازْدادت تلْكَ الأَصْواتُ ارْتفاعًا ، وتلْكَ الدُّموعُ انهمارًا ، حتَّى انْتَهى ، فَنَزلَ من فَوْق المِنْبَرِ ، وأَمَّ النَّاسَ فِى الصَّلاة ، وأَبْكاهُم بُكاءً شَديدًا ، بما تَلاَ عَلَيْهم مِنْ آيات الله البَيِّنات ، الَّتى تُصوِّرُ جِهادَ جُنْد الله وتَضْحياتهم ، وجَزاءَ الشُّهَداء الأَحْياء ، الَّذين لَمْ يَمُوتوا ، بَلْ انْتَقلُوا مِنَ الدَّار الفانيَة إلَى الدَّارالباقيَة ، يَتمَتَّعونَ فيها بجَنَّات النَّعيم ، ذات القُطُوف الدَّانيَة ، والمياه الجَاريَة ، والظِّلِّ الظَّليلِ ، لاَ يَسْمَعُونَ فيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثيمًا إلاَّ قيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا .

فَلَمَّا قُضيَت الصَّلاةُ ، أَسْرَعَ النَّاسُ إلَى السُّلْطان ، يُسَلِّمونَ عَلَيْه ، ويُهَنِّئُونَه بنَصْر الله ، ويَتمَنَّوْنَ لَهُ دوامَ التَّوفيق فِى إعْلاء كَلمَة الله . ثُمَّ خَرَجَ والنَّاسُ مِنْ خَلْفه ، وساروُا إلَى المَوائد الفَخْمَة المَمْدُودَة للطَّاعمينَ ، فَأَكلُوا هَنيئًا ، وشَربُوا مَريئًا ، فائضى السُّرور بهذَا العيد السَّعيد .

وبَعْدَ ما انْتَهَوْا منْ طَعامهمْ وشَرابهم ، ذَهَبوا إلَى السُّرادق العالى الفَسيح ، وجَلَسَ السُّلْطانُ فِى صَدْره ، يَحُفُّ به الْكُبَراءُ ، والعُظَماءُ ، والقُوَّادُ ، ورجالُ الدَّوْلَة ، بوجُوه باسمَة ، وعُيون ضاحكَة ، ثُمَّ أَرْهَفوا الآذانَ إلى الخُطَباء ، الَّذين قاموا وقالُوا ، وأَفاضُوا فِى مَدْح السُّلْطانِ ، والشُّكْر لله علَى قَهْر العُدْوان ، وهَزُّوا القُلُوبَ ببَليغ الكَلام ورَقيقه ، وما كانُوا يُوَقِّعونَه أَنْغامًا عَذْبَةً ، تَنْتَزِعُ التَّصْفيقَ والإعْجابَ .

ثمَّ نَهَضَ الشُّعَراءُ بقَصائدهم ، فَغَنَّتْ برَقيق أَبْياتها ودَقيق مَعانيها ، وعَبَّرَت عَمَّا فِى الصُّدور منَ الفَرَح ، وعَن الحَقِّ الَّذى لا يُغْلَبُ مَهْما ظَنَّ الباغُونَ أَنَّهم هَزَمُوه ، وجَعَلَت السَّامعينَ يَتمايَلُون طَرَبًا ، والشَّاعرُ ابْنُ سَناء المُلْك يُغَرِّدُ بأَبْياته ، ويَقولُ للسُّلْطان فائضَ الانْبساط :

لَسْتُ أَدْرى بِأَىِّ فَتْحٍ تُهَنَّا

يَا مُنيلَ الإسْلاَمِ مَا قَدْ تَمنَّى

أَنُهَنِّيكَ إِذْ مَلَكْتَ شَــامًــا
أَمْ نُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكْتَ عَــدْنَا
قَدْ مَلَكْتَ الجِنَانَ قَصْرًا فَقَصْرًا
إِذْ مَلَكْتَ الشَّـامَ حِصْنًا فَحِصْنَا

ولَمْ يَهْدَإِ التَّصْفِيقُ والهُتَافُ ، حَتَّى نَهَضَ أبو الحَسَنِ الجُوَيْنِيُّ ابْنُ نَجا المِصْرِيُّ ، وأَلْقَى قَصِيدَتَه الَّتِي أَعادَتِ الأَكُفَّ إِلَى التَّصْفِيقِ ، والأَفواهَ إِلَى الهُتافِ ، ثُمَّ أَنْصَتُوا مُتَمايِلِينَ ، وهُو يَقُولُ مُتَمايِلاً مِثْلَهُم .

جُنْدُ السَّـمَـاءِ لِهَـذَا الْمَلْكِ أَعْـوَانُ
مَنْ شَكَّ فِـيـهِمْ فَـهَـذَا الفَـتْحُ بُرْهَانُ
تِسْـعُــونَ عَــامًــا بِلادُ اللهِ تَصْـرُ
خُ وَالإِسْلاَمُ أَنْصَـارُه صُمٌّ وعُـمْـيَـانُ
فَـالآنَ لَبَّى صَـلاحُ الدِّينِ دَعْـوَتَهُم
بِأَمْـرِ مَنْ هُوَ لِلْمِـعْـوَانِ مِـعْـوَانُ

اللهُ ! اللهُ ! ! أَعِدْ ! أَعِدْ !
لَيْسَ هذا كَلامًا ، بَلْ قَطَراتِ النَّدَى علَى أَوْرَاقِ الأَزاهِيرِ اليَانِعَةِ ! ! .
أَعِدْ يَاابْنَ نَجا ! أَعِدْ ! !

ولَم تَهْدَإِ الضَّجَّةُ المُنْتَشِيَةُ ، حَتَّى نَهَضَ السُّلْطانُ ، ووقَفَ يُعْطِى العَطايَا ، ويَمْنَحُ المِنَحَ ، ويُلْبِسُ الشُّعَراءَ ، والخُطَباءَ ، والقُوَّادَ ، ورِجالَ الدَّوْلَةِ ، الخِلَعَ السَّنِيَّةَ ، الَّتِى أُعِدَّتْ لِهذا اليَوْمِ العَظِيمِ .

وبَعْدَما انْتَهَى الحَفْلُ ، حَيَّوا السُّلْطانَ ، وهَتَفُوا بحياته وحَياة العَرَبِ والإِسْلام ، ثُمَّ انْصَرَفُوا يَدْعُونَ لِدينِ اللهِ بالنَّصْرِ ، وأَفْواهُهُمْ تُرَدِّدُ مِنْ كَلامِ اللهِ الكَرِيمِ قائِلَةً فِي قُوَّةٍ : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١) صدق الله العظيم

(١) سورة الأنعام – الآية (٤٥) .

مناقشة الفصل الحادى عشر

١ «غدا الفرنج فى القدس، صيدا يضطرب فى حبائله، يتحرك فيها حركات هائجة غير عاقلة، مرتعدا من السكين التى تبرق أمام عينيه، يغدون ويروحون، لا يعرفون من شدة ما بهم، لِمَ يغدون ولِمَ يروحون»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة لما يأتى مما بين القوسين :

- المراد بـ (السكين) : (السيوف اللامعة - جيش المسلمين - الموت الذى ينتظرهم - هزيمتهم فى المعركة)

- مرادف : (يضطرب) : (يخاف - يتحرك - يختل - يرتعد)

- مضاد : (مرتعدا) : (مسرورا - مطمئنا - ساكنا - آمنا)

(ب) ما سبب خوف الفرنج ؟ وما النتائج التى ترتبت على خوفهم ؟

(جـ) لقَّنَ المسلمون الفرنج درسا لن ينسوه . فما هذا الدرس ؟

(د) ما قيمة التعبير بقوله «غير عاقلة» بعد قوله «هائجة» ؟

(هـ) صور بقلمك حالة الفرنج بعد هزيمتهم فى موقعة حطين .

٢ لماذا وافق السلطان على دخول القدس صلحا، وعدل عن دخوله عنوة ؟

٣ ما الشروط التى اشترطها السلطان على الفرنج عند دخوله القدس ؟

٤ بِمَ تعلل: سقوط بعض الفرنجة على الأرض - بكاء الكثيرين منهم - ندم كبار الأعمار. وذلك بعد عفو السلطان عنهم؟

٥ ماذا فعل السلطان مع الفرنج عند دخوله القدس ؟

٦ للسلطان موقف مع الفرنج عند دخوله القدس. ناقشه، واذكر رأيك فيه.

٧ ما اليوم الذي حدد لتسليم بيت المقدس؟ ولماذا؟

٨ «حتى إذا أطفأ المسلمون بعض الشوق إلى بيت الله، خرجوا، وقلوبهم خافقة بالفرح، مع الأعلام الإسلامية المرفرفة على الأسوار، تعلن النصر وقوة الله العزيز الجبار، وأصواتهم ترتفع إلى عَنان السماء، تردد في استبشار: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة لما يأتى مما بين القوسين :

- مرادف (خفق) : (اهتز - اضطرب - اشتاق - تحرك) .

(ب) لماذا خرج المسلمون مع الأعلام بعد دخولهم بيت الله ؟

(جـ) ما قيمة التعبير بقوله : «وأصواتهم ترتفع إلى عنان السماء» بعد قوله : «تعلن النصر» ؟

(د) تعددت رغبات الفرنج بعد دخول المسلمين بيت المقدس . فما هذه الرغبات ؟ وما موقف السلطان منها ؟



مناقشة عامة

١ «لست أدرى أيها الأمير، العالم، الباحث، المفكر، كيف غاب عنك أن القدس، وفلسطين، وبلاد الشام، وغيرها، كانت أرضنا وقطعة من بلادنا الواسعة فى الشرق والغرب، والبر والبحر؟!»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى :

- مرادف : «أدرى» : (أعلم - أعتقد - أظن)
- مضاد : «غاب» : (حضر - انتظر - بقى)

(ب) دلل على أن القدس عربية من خلال قراءتك للفصل .

(جـ) من المتحدث؟ وماذا يقصد بقوله : «القدس وفلسطين وبلاد الشام وغيرها كانت أرضنا وقطعة من بلادنا» ؟

٢ «القدس أيها السادة عربية لحما ودما، وإذا كانت الأيدى الغاصبة قد تداولتها من يد إلى يد، فلابد من أن يرتد الحق إلى صاحبه، مهما طالت الأيام وكرت الأعوام»

(ا) ضع مرادف (تداولتها) ، وجمع (الغاصبة) ، ومضاد (كرت) فى ثلاث جمل من عندك .

(ب) ماذا أفادت عبارة «القدس عربية لحماً ودماً» ؟

(جـ) علام تدل هذه العبارة : «تداولتها الأيدى من يد إلى يد» ؟

٣ «أما الشطر الآخر من هذه الحملة الغاشمة، فكان يتألف من الأمراء، ومن يتبعهم من الفرسان، ممن يجيدون النزال والضرب والطعان، يقودهم أولئك الأمراء الطامعون»

(ا) ضع مرادف (الشطر) ، ومفرد (الفرسان) ، ومضاد (الطامعون) فى ثلاث جمل من عندك .

(ب) وضح معنى : (النزال ، والضرب ، والطعن)

(جـ) ممن تألف جيش الحملة الغاشمة على بلاد المسلمين؟ ولم قادهم الأمراء فيها ؟

٤ ليس هذا يوم كراهة، ولا شهامة، ولا رحمة، ولا شفقة، ولا عفة، بل يوم الدماء، والقتل، والإفناء.

علام يدل قول «بوهمند»؟ وما الذى دفعه إلى ذلك؟

٥ هيا أيها الأبطال، أسرعوا، فإنى خائف من أن يستيقظ أولئك الغافلون من نومهم، الذى ساعدنا إلى اليوم على هزيمتهم، وإذا صحوا كانوا خطراً شديداً علينا، قد لا نحتمل لقاءه.

(ا) تخير الصحيح ممَّا بين الأقواس لما يلى :

- مرادف «خائف» : (مرتبك ـ فزع ـ قلق)

- المقصود بـ «هيا» : (انتبهوا – أقبلوا – أسرعوا)

- مضاد «خطر» : (أمن ـ هدوء ـ طمأنينة)

(ب) من الغافلون فى العبارة؟ ولماذا وصفهم المتحدث بالغفلة؟

(جـ) بالعبارة اعتراف بحق العرب التاريخى فى القدس وضح ذلك .

٦ فظلوا يدعون ربهم بقلوب خالصة، يعلمون أنه قريب مجيب، فلم يخيب رجاءهم واستجاب لهم، وبعث إليهم عماد الدين زنكى كبير أمراء السلاجقة، فهب بتة وإيمان، لقتال الفرنج وطردهم من القدس الشريف الذى دنسوه.

(أ) ضع مرادف «بعث» وجمع «رجاء» ، ومضاد «خالصة» فى ثلاث جمل من تعبيرك .

(ب) لماذا اتجه أهل الشام إلى الدعاء؟

(جـ) ماذ تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين للهجوم السلاص

- معنى «وردت» : (أتت - توالت – تشرت)

٨ في اقتن جمع «أجواد» : (أجواد – جياد – أجاويد) .

(ب) ما أثر وفاة أسد الدين في نفس نورِ الدين؟ وما الذي خَفَّف عنه هذا الأثر؟

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى :

- معنى «مقصده» : (أمله - هدفه - طريقه)

- مضاد «همه» : (أمنه - حزنه - إهماله)

(ب) كيف استطاع نور الدين إضعاف الفرنج قبل الهجوم عليهم؟

(جـ) لماذا كان عقد الهدنة مع البيزنطيين صدمة للفرنج؟ وماذا فعلوا؟

٨ **قال الوزير أسد الدين للأمير نور الدين:**

نعم يا مولاى، مصر صفقة رابحة للإسلام والمسلمين، بها تتوحد القوى، ويحصر الفرنج بين نارين، فإذا وافق مولاى على المسير إليها، كان خيراً وبركة، وتوفيقاً من الله، الحافظ لدينه، بأيدى عباده المخلصين، ومادام شاور يعرض هذا العرض، متحمساً للمشاركة فى الجهاد، فليس هُناكَ ما يمنع من أن نُبادِر بالسير إلى مصر.

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلي :

- جمع : «صفقة» : (صُفُق - صفقات - صُفَقَاء)

- معنى : «نبادر» : (نَنْهض - نسرعُ - نَبدأُ)

(ب) لماذا كانت مصر صفقة رابحة للإسلام والسلمين ؟

(جـ) ماذا عرض شاور على نور الدين؟ وما رأى أسد الدين فيما عرضه؟

(د) كان نور الدين متردداً فى السير إلى مصر . فلماذا؟

٩ **فى هذا المجلس، كان الجميع صامتين محزونين، وهو متغير اللون، مملوء العينين بالدموع، فقد وردت الأنباء من مصر بموت أسدًا سين، عثب قفرة عائية من جواده القته على الأرض.**

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين القوسين ما يأتى؟

- معنى «وردت» : (أتت - توالت – مشرت)

- جمع «جواد» : (أجواد - جياد – **أجاوِيد**)

(ب) ما أثر وفاة أسد الدّين في نفس نورِ انسرِ الدّين؟ وما الذي خَفَّفَ عنه هذا الأثر؟

(جـ) لماذا كان نور الدين شديد الاهتمام بمصر ؟

١٠ **«ولا تنسوا نور الدين، وأنتم تنظرون إلى ذلك المنبر الجميل الجليل، وتسمعون الخطيب من فوقه، وهو يبكى بدموع الفرح لإنقاذ القدس، وتطهيره من دنس الفرنج. ثم أطبق أجفانه، وخلّى الفرس لصاحب الدور، الذى قدر له أن يتم الرواية، ويبلغ الغاية»**

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يأتى :

- معنى «الجليل» : (الرائع - العظيم - الكبير)
- مضاد «خلّى» : (أبقى - أهدى - جعل)

(ب) ما أهمية المنبر الذى تحدثت عنه العبارة السابقة ؟

(جـ) ما أثر وفاة نور الدين فى نفوس المسلمين؟ ولماذا ؟

(د) لِمَنْ ترك نور الدين دوره العظيم؟

١١ **قال السلطان صلاح الدين لوزيره عبد الرحيم:**

«كنت أتمنى هذه الدعوة يا عبد الرحيم، لتكون مبررا لدخول الشام، وإخضاع الخارجين وردهم إلى الجماعة، والوصول باجتماعهم إلى الهدف، الذى نذرنا أنفسنا لبلوغه فهيا يا عبد الرحيم، فقد أراد الله أن يعجل بنهاية الغاصبين، ويتم نعمته على المسلمين»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يأتى :

- مرادف : «مبرراً» : (سبباً - دليلاً - طريقاً)
- جمع : «نعمة» : (نعم - نعائم - أنعام)
- مضاد : «يعجل» : (يتأخر - يبطئ - يتوقف)

(ب) ما الدعوة التى تحدث عنها السلطان ؟ وما أهميتها ؟

(جـ) ما الهدف الذى نذر صلاح الدين ورجاله أنفسهم لبلوغه؟ وما قيمته فى التخلـ[illegible] الاعداء؟

(د) «يتم نعمته على المسلمين» توضح العبارة تأثر الكاتب بالأسلوب القرآنى . بين ذلك .

١٢ «ولم ينقض الشهر، حتى كان يحاصر مدينة «حلب» ويشدد عليها قبضته، لكنها لم تسقط فى يده، وعزمت على الصمود»

(ا) وضح المقصود من العبارات الآتية :

(يشدد عليها قبضته ـ لم تسقط فى يده ـ عزمت على الصمود)

(ب) ما هدف «صلاح الدين» من حصار مدينة حلب ؟

(جـ) لم تسقط مدينة حلب فى يد «صلاح الدين» . فما أسباب ذلك ؟

١٣ «زادت قلوب الفرنج خوفاً من الوحدة، التى يجدّ صلاح الدين فى تكوينها، ومع أن أحوالهم ساءت، فقد دفعهم ذلك الخوف إلى أن يعملوا على منع هذه الوحدة من أن تتم، فهى أكبر مصيبة تصيبهم»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يأتى :

- معنى «يجدُّ» : (يجتهد ـ يواظب ـ يهتم)

- جمع «مصيبة» : (مصائب ـ صائبات ـ إصابات)

(ب) لماذا كان الفرنج يخافون من الوحدة العربية ؟ وما الدرس المستفاد من ذلك ؟

(جـ) وضح فى ضوء الفصل جهود «صلاح الدين» نحو تحقيق هذه الوحدة؟

(د) لماذا فكر «صلاح الدين» فى العودة بجيشه إلى مصر؟

١٤ «فعاد الخوف يدب فى صدر الملك، وقال وهو يحاول إخفاء ما أحس به:

«دعونا من «صلاح الدين» وجيشه ومكره، وتعالوا بنا نتم التشاور فى تقوية هذا الحصن اكثر وأكثر؛ ليكون الخنجر المسموم فى قلوب العرب»

(ا) تخير الصحيح مما بين القوسين لما يلى :

- مضاد «الخوف» : (الراحة ـ الأمن ـ الهدوء)

(ب) تقوى هذا الحصن بـ :

(تعلية البناء ـ تكثيف الأسوار ـ وضع الحراس) .

(جـ) كانت مساومة «صلاح الدين» على الحصن مناورة حربية . وضح ذلك ؟

(د) كيف كان الحصن خنجراً فى قلوب العرب؟ وما أضراره؟

(هـ) «ليكون الخنجر المسموم فى قلوب العرب» .

وضح الصورة البلاغية فى العبارة ، ثم اذكر قيمتها الفنية؟

١٥ «كان شهر أبريل عام ١١٨٩م، قد كسا الأرض ثوباً سندسياً، من العشب الأخضر النضير، فخرج أهل دمشق فى الصباح بماشيتهم، إلى المراعى الواسعة القريبة من «بانياس»، لترعى فى خير الله ونعمته، فانطلقت تجرى وتقفز، وتأكل وتشرب، وتقف لصغارها، وتقدم لها أطباءها؛ فتمتص لبنها، فرحة باليوم المشرق والخير الوفير»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لما يلى :

- مرادف «انطلق» : (سار - أسرع - ذهب)

- مضاد «الوفير» : (القليل - الضئيل - الصغير)

(ب) كيف انتزع الفرنج السعادة من قلوب أهل دمشق الآمنين؟ وبم رَدَّ عليهم العرب ؟

(جـ) بم شاركت القوات المصرية فى معركتى «مرج العيون - طرابلس»؟

(د) ماذا تعرف عن حصن «مخاضة الأحزان»؟ وكيف خطط «صلاح الدين» لإزالته من الوجود ؟

(هـ) كيف رد «صلاح الدين» على كل من «بلدوين» وأمير طرابلس حينما طلبا الهدنة؟

(و) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «المراعى»؟

١٦ «ثم عرض الفكرة على أتباعه، فسروا بها، وصفقوا طويلاً لها، وجعلوا يشجعونه، ويمدحون عقله الواسع وذكاءه الخارق، ولعابهم يسيل على الملك الفسيح، وثرواته الهائلة، قد أيقنوا أنهم بخيالهم الطائر، أنهم سيبلغون ما رسم الوهم لرئيسهم الطائش، غير مقدرين ما سوف يصيبهم من وراء ذلك التهور والاندفاع»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لما يلى :

- مرادف «الطائش» : (المنحرف - الواهم - الضال)

- مفرد «أتباع» : (تبعة - تبّاع - تابع)

- مضاد «يشجع» : (يثبط - يقلل - يضعف)

(ب) ما الفكرة التى عرضها «إرناط» على أتباعه ؟ وما أثرها فى نفوسهم؟

(جـ) كيف نفذ «إرناط» فكرته؟ وما أثر ذلك على المسلمين ؟

(د) وضح نشاط «إرناط» التخريبى فى البحر الأحمر .

(هـ) كيف واجه «صلاح الدين» النشاط التخريبى للص «إرناط»؟

(و) اكتب نبذة مختصرة عن نجاح «حسام الدين لؤلؤ» قائد البحرية المصرى فى تتبع «إرناط»؟

(ز) كيف نفذ المسلمون أمر الله فى المخربين؟

(ح) «ولعابهم يسيل على المُلْك الفسيح» وضح الخيال فى العبارة ، ثم اذكر أثره فى المعنى .

(ط) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «ذكاءه»؟

١٧ «وكان اللص قد استطاع الفرار بشق النفس، وظن أنه نجا، لكن «صلاح الدين» أقسم ألا يغفر له هذه الخطيئة أبداً، منتظراً وقت العقاب الأليم الذى يقترب فى السيوف البارقة التى تتبع هذا الباغى الأثيم»

(ا) هات مرادف «الفرار» وجمع «الخطيئة» ومضاد «الباغى» فى ثلاث جمل مفيدة .

(ب) ما المعركة التى فر منها اللص «إرناط» ؟ وما نتائجها ؟

(جـ) ما الخطيئة التى ارتكبها «إرناط» ؟ وأقسم صلاح الدين على أخذه بها ؟

(د) «السيوف البارقة التى تتبع هذا الباغى الأثيم»

- ما قيمة الوصف بـ «البارقة - الأثيم»

- وضح الخيال فى العبارة . ثم اذكر قيمته الفنية؟

١٨ «ومضى يوم الجمعة بسيول الدماء، وتلاه يوم السبت والقتال مستعر، جند الله يطلبون ما عند الله، وفريق الشيطان يطلبون ما عند الشيطان، والبلاء

ينحط على الفرنج من كل جانب، وصراخهم يعلو، وفزعهم يشتد»

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لما يلى :

- معنى «مستعر» : (مشتد ـ ملتهب ـ متوهج)

- مضاد «الفزع» : (السكون ـ الراحة ـ الأمن)

(ب) ما المقصود من قوله : «يطلبون ما عند الله»؟

(جـ) وضح خطة «صلاح الدين» الحربية أثناء إقامته بتل الأقحوانة ؟

(د) ماذا فعل «صلاح الدين» عند لقائه بالعدو على سطح جبل طبرية ؟

(هـ) وضح الجمال فيما يلى :

«جند الله يطلبون ما عند الله ، وفريق الشيطان يطلبون ما عند الشيطان»

١٩ **«الحمد لله وفيت أيها اللص بنذرى، وأرضيت ربى، واقتلعت من الأرض شجرة خبيثة، لا تخلف إلا الخبثاء!»**

(ا) تخير الصحيح مما بين الأقواس لما يلى :

- مرادف «وَفَّى» : (أدّى ـ أكمل ـ أجاد)

- مضاد «أرضيت» : (أهنت ـ أغضبت ـ أفزعت)

(ب) ما الذى وفَّى به «صلاح الدين»؟ وكيف ؟

(جـ) «اقتلعت من الأرض شجرة خبيثة» فى العبارة صورة بيانية . . وضحها ، وبين أثرها فى المعنى .

(د) كيف تكشف فى معجمك عن كلمة «اللص»؟

٢٠ **«ولابد من تسليم المدينة بحد السيف من غير قيد ولا شرط، فقد أقسمت أن أفتحها عَنْوَة، وأنت تعرف أن الفتح بالقوة، لا يعطى امتيازاً مثل الفتح صلحاً، وقد بدأت بالشر، فذق جزاء العناد والتكبر»**

(ا) اختر الإجابة الصحيحة من بين القوسين لما يلى :

- مرادف «عَنْوَة» : (قوة ـ سيطرة ـ قسرا ـ قسوة)

- مضاد «القوة» : (التراجع ـ الضعف ـ التخاذل ـ الاستسلام)
- الجمال فى قوله : «فذق جزاء العناد والتكبر» نوعه : (تشبيه ـ استعارة ـ كناية ـ مجاز) .

(ب) ما الفرق بين الفتح بالقوة ، والفتح بالصلح؟

(جـ) من المتحدث فى العبارة السابقة؟ وما مناسبة ذلك ؟

(د) وضح مضمون الرسالة التى بعث بها «باليان» إلى «صلاح الدين» . وما موقف «صلاح الدين» منها ؟

(هـ) للقاضى الفاضل «عبدالرحيم» رأى يخالف هوى «صلاح الدين» من الرسالة وضح ذلك .

٢١ «المسجد الأقصى: أول القبلتين، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين». اشرح العبارة السابقة شرحاً موجزاً.

«كان العالم الإسلامى كله مشدوداً إلى المعركة، ينبض قلبه بنبضاتها، ويتحرك جسمه بحركاتها، فشبابه فى وسطها، يكافح بكل ما أوتى من قوة وإيمان»

(ا) ما المعركة التى يقصدها الكاتب فى العبارة ؟ وما موقف العالم الإسلامى منها ؟

(ب) تخير الإجابة الصحيحة لما يأتى مما بين القوسين :

- المقصود بقوله : «مشدودا» : (مستعداً ـ مجذوباً ـ متحفزا ـ ملهوفا) .
- مرادف «ينبض» : (يضطرب ـ يتحرك ـ يخاف ـ يرتجف) .
- مضاد «يتحرك» : (يسكت ـ يسكن ـ يثبت ـ يهدأ) .

(جـ) لماذا أسرع كثير من الناس إلى محطات الحمام الزاجل ؟

(د) ماذا فعل المسلمون بعد تحقيق النصر؟

٢٢ عمت الفرحة بلاد الشام بتسليم القدس. فما مظاهر ذلك؟

٢٣ «كان ليوم الجمعة الرابع من شعبان تاريخ مجيد»

اشرح ذلك موضحاً ما حدث فيه

٢٤ «فلما قضيت الصلاة، أسرع الناس إلى السلطان، يسلمون عليه، ويهنئونه بنصر الله، ويتمنون له دوام التوفيق فى إعلاء كلمة الله. ثم خرج والناس من خلفه، وساروا إلى الموائد الضخمة الممدودة للطاعمين، فأكلوا هنيئاً، وشربوا مريئاً، فائضى السرور بهذا العيد السعيد»

(ا) تخير الإجابة الصحيحة لما يأتى مما بين القوسين :

- المقصود بقوله : «قُضيت» : (أُدِّيَتْ ـ أُحْكِمَتْ ـ أُتِمَّتْ ـ أُقِيمت)
- مرادف «فائض» : (كثير ـ منتشر ـ ضخم ـ مندفع)
- جمع : «عيد» : (أعواد ـ أعياد ـ عوائد ـ عادات)

(ب) أسرع الناس إلى السلطان بعد انقضاء الصلاة . علل لذلك ؟

(جـ) لماذا ذهب الناس إلى السرادق الفسيح؟ وماذا حدث فيه ؟

الفهرس

طبع بمطابع الشركة بمدينة السادس من أكتوبر

